خلاصة تاريخ العراق

منذ نشوءه الى يومنا هذا

للأب أنستاس مارى الكرملى أحد أعضاء مجلس معارف العراق فى بغداد

وقد استحسنه ناظر المعارف وقرر تعيينه

لتدريس تاريخ العراق فى مكاتب الحكومة والأهالى

ووافق على نشره وتعميم فوائده

مقر رئاسة الجيش الانكليزى فى دار السلام

(طبع بمطبعة الحكومة بالبصرة)

سنة ١٩١٩ م — ١٣٣٧ هـ

المقدمة

هذا كتاب اقترحه عليّ ناظر معارف بغداد بعد الاحتلال البريطاني بأكثر من سنة . وهو الذى رسم لى فصوله ، فلبيت طلبه واستخلصته من نحو ستين مصنفا بين عربى وفرنسى وانكليزى وتركى ولاتيني . وأتممته فى نحو ثلاثة أشهر ، لانه اقترحه عليّ فى حزيران سنة ١٩١٨ ولم أشرع به الا فى أيلول لاشتداد الحر فى بغداد فى فصل القيظ ولهذا لم أنهه الا فى تشرين الثانى . ولولا ان هذا التأليف موضوع للمدارس لذكرت أسماء المناهل التى وردتها بلوغا لهذه الامنية .

وقد توخيت غالبا ذكر الاعلام على ماهى معروفة عند العرب وأعدت كثيرا من الأعلام السامية الاصل الى نصابها الذى نقلت عنه ولم أجار المعربين الحديثين الذين نقلوا تلك الالفاظ الشرقية عن الافرنج فجاءت، مشوهة غاية التشويه حتى انه لايهتدى اليها ولا الى أصلها . وهو عيب فاش بين أهل الصحافة والتآليف الحديثة مما يؤسف على صدوره من أقلامهم .

وقد أجملت فى بعض المواطن وفصلت فى مواضع أخرى تبعا لحاجة أبناء البلاد الى معرفة واسعة لبعض الحقائق والى دراية غيرها دراية مجملة .

وقبل الختام أرفع عبارات الشكر الى حضرة أستاذى الشهير والعلامة الكبير السـيد محمود شكرى افندى الالوسى الذى نظر فيه وهدانى الى عدة أمور لا منـدوحة عنها . وأرفع أيضا فرائض الاقرار بالمعروف والاحسان الى المنسيور لويس خرتين الكرملى نائب قصادة العراق والجزيرة لما تفضل على بنقل فصول عديدة من الانكليزية الى الفرنسية ومنها نقلتها الى العربية .

الجزء الاول

(في الجزيرة القديمـة قبـل الاسـلام)

أحوال المدالث الفراتية الجغرافيه

(ومقـابلتها بمدالث مصر وبنجاب)

العمران النهرى

(سرجون أكد – الأنهر والمدن)

الجزيرة القديـــــــمه

(طبع بمطبعة الحكومة بالبصرة)
١٣٣٧ هـ – ١٩١٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

(أقسام التاريخ وفوائد دراسته)

يقسم التاريخ قسمين: التاريخ المدنى وهو المراد به اذا أطلقنا كلمة التاريخ. والتاريخ الطبيعى وهو علم المواليد الثلاثة . الحيوان والنبات والمعادن وليس الكلام عنه هنا .

ويتفرع التاريخ المدنى الى فرعين وهما عام وخاص فالتاريخ العام يتضمن تاريخ البشر عموما . ويقسم اعتياديا الى أربعة أعصر وهى العصر القديم منذ خلق آدم الى سقوط مملكة الرومان وانقراضها فى سنة ٤٧٦ م . والعصر المتوسط يبتدئ منذ سنة ٤٧٦ م وينتهى سنة ١٤٥٣ وهى سنة فتح العثمانيين لمدينة القسطنطينية . والعصر المتأخر من سنة ١٤٥٣ الى سنة ١٧٨٩ والعصر الحديث أو الحالى ويبتدئ من سنة ١٧٨٩ الى يومنا هذا

. والتاريخ الخاص يشمل أيضا التاريخ المفرز وهو المختص بموضوع واحد كمملكة او ولاية أو دولة أو بلدة أو بيت أو شخص . ويشمل أيضا تاريخ الحوادث أى مايتعلق بعصر واحد أو حادثة مأثورة كحرب البسوس مثلا وتاريخ الجاهلية . ويسمى التاريخ الخاص بعدة أسماء بحسب موضوعاته كتاريخ العرب وتاريخ الاسلام والتاريخ السياسى الى غيرها . واذا كتب التاريخ كتابة ساذجة سنة فسنة يسمى بالاخبار أو تاريخ القرون أو تاريخ الوقائع

(وبالأفرنجية : قرونولوجية) واذا كان كاتبه يكتب ماشاهده بنفسه أو كان له مدخل فيه يسمى كتابه تذكرة أو أخبارا . واذا لم يتكلم الا عن نفسه فيعرف بالترجمة الخاصة أو الذاتية . واذا اعتبر التاريخ فى نسقه أى فى طريقة مأخذه فى ذكر الحوادث فتتبع كاتبها الزمن بترتيب فهو أخبار الأيام أو تاريخ السنين . واذا تكلم عن شعب فقط او أمة من الامم فيعرف بالسير واذا ذكر الحوادث التى جرت فى وقت واحد عند أمم مختلفة فيعرف بالحوادث العصرية ويسمى بغير هذه الأسماء بحسب المجرى الذى يجرى فيه

ومهما يكن من أقسامه فان دراسة التاريخ من أوجب الدروس على الانسان لانه بالوقوف عليه يعرف ما مضى فيتحقق أن المساوئ لاتلد الا أضرارا لصاحبها وأن الحسنات لاتنتج الا منافع لصاحبها . وما من أمة ارتقت الا بعد أن عرفت تاريخ سلفها . وما انحطت الا لما جهلت تاريخه . لان المرء لا يندفع الى العمل الا بما يرى ويؤثر على حواسه الباطنة والظاهرة ولا يقعد عن الجد والدأب الا اذا لم يكن له دافع يدفعه اليه . هذه هى المنافع الكبرى التى لا يغض عنها فضلا عن سائر المنافع التى لا تخفى على المطالع .

فمنها أن الانسان يحب البقاء ويؤثر أن يكون فى زمرة الأحياء فأى فرق بين مارآه أمس أو سمعه وبين ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين فاذا طالعها فكأنه عاصرهم واذا علمها فكأنه حاضرهم

ومنها أن الملوك ومن اليهم الأمر والنهى اذا وقفوا على مافيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف ونظروا الى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الاحدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الاموال وفساد الاحوال استقبحوها وأعرضوا عنها واطرحوها واذا رأوا الولاة العادلين وحسنها وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم وان بلادهم وممالكهم عمرت وأموالها درت استحسنوا ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء

الصائبة التى رفعوا بها مضرات الأعداء وخلصوا بها من المهالك واستصانوا نفاس المدن وعظيم الممالك ولولم يكن فيها غير هذا لكفى

ولما كان الوقوف على ديار العراق والجزيرة مما يهم كل انسان يريد الوقوف على مبادئ التاريخ وتقدمه أتينا بهذا التأليف ليتحقق مافى الأمنية

الجـــــزء الاول

(فى الجزيرة القــديمة قبــل الاســلام)

أحوال المدالث الفراتية الجغرافية ومقابلتها بمدالث (١) مصر وبنجاب

(العمران النهرى — سرجون أكد — الأنهر والمدن)

الجــزيرة القديمــة

المراد بالجزيرة عند العرب : الأرض التى تحيط بها المياه من كل جانب أو تكاد . فهى تنطبق على مايسمى بالجزيرة حقيقة وعلى مايسمى بشبه الجزيرة أيضا . ولم ينظر العرب الى نوعية هـذا المـاء المحدق بتلك الأرض فسواء كان عنـدهم ذلك المـاء ماءبحرا وماء نهر . ولهذا قد أطلقوا منذ القديم اسم الجزيرة على مايسميه الافرنج (ميسو بوتاميا) أى بين النهرين . وهذا الذى نريده هنا بلفظ الجزيرة فهى الديار الممتدة من هضاب أرمينية الى مصب شط العـرب

---

(١) أى مواقع سيلها

أحوال المدالث الفراتية الجغرافية

تعال نركب طيارة تحلق بنا فى الجو ونذهب بها الى المحل الذى ينبع منه الفراتان : دجلة والفرات فاذا صعدنا مجرى كل منهما نرى ماءهما ينبط من محل فى أرمينية من أسفل جبل كان يعرف عند الأقدمين باسم (نفاطس) وهو الذى يسميه العرب فى عهدنا هذا جبل نمرود أو جبــل ذى القرنين وعند الترك (كلشن طاغ) وهو أعلى الجبال التى تطرد بين البحر الاسود ونجد ايران) وفى بعض المواضع منه يبقى الثلج على مدار السنة أما ماء الفرات فيتجمع من وادبى مراد وقره صو . فاذا جمع بينهما هرب بمياههما الى الشرق ثم يغربها الى الغرب دافعا إياها فى مختنقات جبال وعرة وأودية ضيقة فاذا جاوز ملطية قفز قفزة بجانبية كانه يحاول الفـرار الى الجنوب الغربى فيخدش لنفســه معبرا فى الطورس طالبا بحر الروم الذى يميـل اليه كل الميل ثم كمن يرعوى عن غيه يعود الى الجنوب الشرقى فى جهة خليج فارس أما دجلة فان مخرج رأسه من جوار (مراد) لكنه يجرى فى الغرب الى الشرق فى جهـة مخالفة لجهة شقيقه فاذا خرج من الجبال يميـل الى الجنوب ويحـاول أن يدنو من أخيه الفرات رويدا رويدا فاذا صار فى جوار بغـداد أخذ كل واحد منهما يحاول مصالحة أخيه كأن الواحد يقول لشقيقه : تعال نجتمع فى هذه المدينة القديمة ونتعاهد على أن لانتفارق فيكاد كل واحد منهـما يتفق مع الآخر اذ لا يفصل الواحد عن الآخر الا مسافة بضع ساعات فى سهل مطمئن وكأن عدوا سمع مانجم من اتفاقهما اذا مااجتمعا فى بغداد جاء فوشى بالواحد بعد الآخر الى صاحبه وفرق بينهما فأخذ كل منهما يسير على موازاة شقيقه وهو ينظر اليه شزرا مسافة ٢٠ الى ٣٠ ميلا ثم يعودان فيفترقان ولا يتفقان الا بعد أن ينحـدرا نحو ثمانين ساعة اذ يتحققان أن الفراق لايفضى الا الى هلاك كل منهما فى الفلوات المحرقة فيتصالحان عنـد القرنة ومن هناك ينحدران مشتركى القوى ليصـبا فى خليج فارس .

والفرات يرحب من جهة يساره عند وسط مجراه بزائرين وهما البليخ والخابور ومنذ اتصل به الخابور الى أن اجتمع بأخيه لايزوره أحد. أما دجلة فان زواره أكثر من ذلك فان الزابين الأعلى والأسفل يأتيان فيرويانه بمياههما ثم يجاريهما فى هداياهما عظيم وديالى . وكل من الفراتين تجرى فيهما السفن فى أغلب قسم من منحدرهما فالسفن تجرى فى الفرات من سميساط وفى دجلة من الموصل . وعند ذوبان الثلوج ويكون ذلك فى أوائل نيسان أو أواسطه يغتاظ الفراتان فيرغوان ويزبدان ويحبلان غضبا من الربيع فيطفحان بمياههما ويطغيان على ماجاورهما من الأرضين فاعلين ما يفعل النيل فى ديار مصر ولا يعودان الى مألوف مجراهما الا فى أواخر ايار أو أوائل حزيران عند مايبتدئ الحر بكسر شوكة هذين الشقيقين المستبدين .

تكون أرض العراق

لم يكن منظر الفراتين فى كل عصر على ما نشاهده اليوم لأنهما عند خروجهما من الجبال ما كانا يرويان فى العهد السابق للتاريخ الا السهل الممتد أمامهما فقط وهو سهل ثانوى التكوين يعرف بالجزيرة . وأرضها فى غاية الخصب عند ضففهما وضفف سواعدهما وفى الأمكنة التى تنبط فيها العيون . وفى ماسوى ذلك فانها قفرة جردة . والطرف الجنوبى من السهل كان بمنزلة شاطئ البحر وكان الرافدان يدفعان فيه والواحد عن الآخر على مسافة عشرين ساعة فى خليج يحده من الشرق آخر اسناد جبال ايران ومن الغرب جبال الرمال التى تتاخم نجد بلاد العرب

والقسم الأسفل من سقى الفراتين أرض حديثة النشوء بالسبة الى غيرها مما يجاورهما من الشمال وقد أنشأها تراكم غريل الرافدين وسائر الأنهر كعظيم وديالى وكرخا (خواسپ) التى كانت تجرى على هواها حيث ماشاءت ثم ينتهى بها الأمر الى افراغ مياهها فى البحر . أما اليوم فانها أصبحت من سواعد دجلة ومن ممداته بمياهها . وفى عهدنا هذا نرى مدالث شط العرب (دجلة العوراء

سابقا) تتقدم بسرعة ويظهر جرف جديد قدره زهاء ١٥٠٠ متر كل سبعين سنة . أما فى الأعصر الخالية فكان نموه أبين مما هو اليوم ولعله كان يرتفع ١٥٠٠ متر فى كل سبعين سنة .

فى العصر الذى أقام أجداد الكلدان الأولون فى وادى الفراتين كان خليج فارس داخلا فى البر نحو مسافة أربعين ساعة عما هو عليه الآن وكان الفراتين يدفعان فى البحر متوازيين غير متحدين ولم تختلط مياههما الا بعد ذلك بالوف من السنين

مدالث النيل ونجاب

وما يقال عن الفراتين يكاد يقال عن النيل ونجاب فان النيل ينبع من أرض وراء خط الاستواء واذا جرى مسافة جاءته جميع المياه التى تجرى من البحيرات الكبرى الواقعة فى أفريقية الوسطى ودفعتها الى نحو الشمال خلال فلوات عظيمة تقطعها غابات ومستنقعات . ثم يدفع فيه من اليسرى بحر الغزال ما يطفح منه وعن يمناه مصب فيه نهر سبات والنيل الأزرق والتكزة وهى مياه تنزل كلها من جبال بلاد الحبش . ثم يصطدم بعد ذلك بنجد الصحراء الكلسى ويحفر فيه لنفسه فراشا متمعجا تقطعه خمس مرار شلالات ثم ينحدر رويدا رويدا نحو بحر الروم بدون أن يزيده ماء أحد السواعد . والقسم الشمالى من واديه بين شلال أسوان والبحر أنشأ فى كل وقت أرض مصر الشهيرة فى التاريخ وهو يطغى كما يطغى الفراتان ويكون طغيانه من الأمطار الغزيرة التى تنزل فى شباط كل سنة على أنحاء البحيرات العظام وحينئذ يعظم النيل ويخرج من مجراه . فينتشر الطغيان بسرعة من الجنوب الى الشمال وفى بضعة أشهر ينتشر فى الوادى كله . وفى نحو أواخر نيسان يصل الى بلدة الخرطوم حيث يزداد بما يمد من النيل الأزرق ثم يسير رويدا رويدا خلال بلاد النوبة ويصل ديار مصر فى أوائل حزيران فينبه عليه فى أسوان فى نحو ٨ منه وفى ١٧ من الشهر المذكور يصل الى مصر القاهرة وبعد يومين يعم المدالث كلها

ويشتد معظم السيل فى أواخر آب فى بلاد النوبة وبعد شهر فى القاهرة والمدالث . ويبقى على حاله زهاء ثمانية أيام ثم يبتدئ بالنقصان سريعا حتى اذا جاء كانون الأول رجع النيل الى موطنه المألوف

وأما سهل پنجاب فانه سهل متسع منحدر الى جهة الجنوب الغربى من هضاب كشمير وهذا السهل يسقيه نهر السند وخمسة أنهر تجتمع فيه وهى : الجيلام والچيناب والراوى والبياس والسطلج ومن ذلك سمى السهل پنجاب أى خمسة أنهر بالفارسية وهى أرض قديمة الحضارة على ما نراه فى وادبى الفراتين والنيل

العمران النهرى

قد لاحظ الباحثون من العلماء ان أول ما ابتدأت الحضارة فى بلاد المدالث (الدلتا) المعتدلة الهواء وهى مدالث (الفراتين والنيل وپنجاب) قبل أن ترتقى فى سائر البلاد وسبب ذلك أن المياه هى مادة الحياة والنماء لجميع الكائنات والبلاد التى ينقطع عنها الماء يعقبها الفناء بل العفاء . فمدالث النيل كانت سببا للعمران المصرى ومدالث پنجاب كانت علة الرقى الهندى ومدالث الفراتين ساقت الناس الى العمران العراقى الشهير فى التاريخ

ومن البديهى أن الطعام من أول ضروريات الحياة وهو لا يكثر الا حيث تتدفق المياه العذبة فاذا كثر فى بلاد احتاج أصحابه الى ارسال ما زاد أو يزيد عندهم الى الديار التى تحتاج اليه ليعتاضوا عنه بما يرغبون فى مالا يوجد عندهم منه وهذا ما دفع الناس الى اختراع وسيلة يتراسلون بها ويتفاهمون ويتكاتبون ولا سيما لتدوين ما يهم الوقوف عليه من الحوادث والأمور المهمة التى تفيد الخلف اذ حفظت ودونت فكانت هذه الحاجة ام اختراع الكتابة وهذه أصبحت أقوى أساس للعمران وأصدق وسيلة لرقى الحضارة . ثم حاول الانسان تعميم هذه الفوائد المدونة فى جميع البلاد حتى النائية منها بنفقات زهيدة فكان ذلك علة اختراع المطبعة فعمت بها المعارف والعلوم ومنذ ذلك

الحين نشطت الحضارة نشطها من عقال فاتسع نطاق العمران وانتشر الرقى فى الارض كلها جمعاء وزادت الرغبة فيه كل الزيادة

أرض شنعار أو أرض شمر وأكد

تمدنها — أنهر البلاد ومدنها

يروى لنا الكلدان فى كتبهم التى وصلتنا روايات عجيبة فى المخلوقات الأولى فقد زعموا أنها مخلوقات غريبة الصورة والهيئة خيالية الخلق ظهر فى وسطها الانسان عريانا أعزل وبعد ذلك ظهر الاله «يونس» من خليج فارس فأنس اليه الناس وأخذ يهذبهم ويمدنهم وكان جسمه جسم سمكة ورأسه وصوته رأس انسان وصوته . وكانت رجلاه البشريتان تخرجان من ذنبه السمكى البينية

ومهما يكن من هذه الرواية فان الذى ينظر أراضى هذه الديار ويقابلها بأراضى النيل يرى مشابهة عظيمة، يرى أن الانسان حاول الاندفاع الى الرقى كما حاوله ساكن وادى النيل وقد ساقه اليه غنى الأرض وثروتها أى ما على وجهها من العزيل (وهو الطين الأحمر ذاك الثوب الذى يخلعه دجلة فى الربيع على ابنته المحبوبة الأرض العراقية المباركة) فتقذف حينئذ ما فى احشائها من الكنوز أى أثمارها وحبوبها وذلك لأدنى عمل يعمله الزراع على حد ما يفعله زارع وادى النيل . على أن بين ماء النيل وماء الفراتين فرقا . فماء الرافدين يجرى على وجه غير مطرد اذ يفاجئ الزارع ويضره اضرارا بليغة بخلاف ماء النيل فانه يوافى البلاد بمواسم معلومة ومحدودة ويكون قدومه الى تلك الديار سببا لفرح الفلاح وسعادته . الفراتان يجريان بين جبال من الرمال مفتوحى الواديين لغزوات البدو المبثوثين فى غربيهما ولغزوات أهالى الجبال المنتشرين فى الجبال القائمة فى شماليهما وشرقيهما . والنيل يجرى فى أرض لا يلحقها الأذى ولهذا لم ترتق هذه البلاد الا من بعد أن تمكن أهلها من ردع جماح الطبيعة وأبنائها

الهمل بخلاف النيل فان أهله تقدموا فى الحضارة وأوغلوا فيها قبل سكان هذه الديار لخلو واديه من تلك الموانع

ومع ذلك كله اننا نرى أهالى هذه البلاد قد خطوا خطوة فى الحضارة فى نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وحفروا أنهرا عديدة وبنوا مدنا كثيرة بالطابوق (الآجر) وفى كل مدينة منها حاكم يحكمها وإله يعبد فيها خاصة ويجمع الكل حاكم عام يمتد سطوته على البلاد كلها

وأشهر المدن التى بنيت يومئذ فى العراق أى فى جنوبى الجزيرة وهى نبور (وهى المعروفة اليوم باسم نفر وكان الهها الليل يعبد فى جميع المدن) وكيش (وهى اليوم تل الأحيمر) ولجش (تلو) واورك (الوركاء) وأور (المقير) واريدو (أبو شهرين) ولارسا (سنكرة) وغيرها ومن المدن التى كانت فى شمالى العراق أوبى (أو أوبيسر وهى اليوم أبو حمشة وعند العرب الأقدمين باحمشا)

فى وادى النيل كان لجميع الأهالى لسان واحد أما هنا فى وادى الفراتين، فى الأرض التى تسميها التوراة أرض شنعار (بكسر الأول ولعل القراءة الصحيحة بفتحه) فكان فيها أقوام من سلالتين مختلفتين ولهم لغتان كل منهما تختلف عن صاحبتها. ويسمى القطر الشمالى (أكد) وسكانه أقوام ساميو الأصل أولاد عم العرب والعبريين والفنيقيين والسريان طويلو اللحى سودها ومتموجوها وقد احتل القطر أجدادهم قادمين من ديار العرب فى زمن واغل فى القدم واما القطر الجنوبى المجاور لمصب الرافدين فاسمه شمر وسكانه أقوام لارابط يربطهم بقوم من أقوام الأرض الذين نعرفهم محلوقة لحاهم وشواربهم وشعور رؤوسهم وانوفهم بارزة دقيقة الأطراف وشفاههم رقيقة حسنة. فأى الفريقين كان الاول فى هذه الديار الفراتية. فلا يمكننا الجواب عنه الآن وهذان الفريقان وان كان أحدهما يختلف كل الاختلاف عن صاحبه الا أنه من البديهى الذى لا ينكر أن كلا منهما استعار من الآخر معارف شتى. وكلاهما كان يبعث بالهدى الى آلهة البلاد مثلا الى «الليل» اله نفر

ويصور الشمريون الههم بصورة اكدية وأخذ الاكديون عن الشمريين الكتابة ذلك الاختراع الذى اخترعوه فى أرض الفراتين (كما اخترع مثله سكان النيل قبلهم ببضعة ألوف من السنين) الا أن كتابة الشمريين لا تشبه التصاوير كما تشبهها الكتابة المصرية التى يرى فيها صور أناس وحيوانات وطيور وأما خط الشمريين فهو عبارة عن مجموع خطوط ذاهبة فى الطول والعرض بهيئة مسامير أو أسافين قصيرة ومن ذلك اسمها اليوم عندنا وهو الخط المسمارى أو الاسفينى

وأهل وادى الفراتين كأهل وادى النيل ينقشون ألفاظهم على صفائح من الحجر وان كان الحجر عندهم أغلى وأندر مما هو فى وادى النيل لأن الجبال التى تقطع منها هذه الحجارة هى بعيدة عن مدن العراق بخلاف المدن التى فى وادى النيل فان مقاطع الحجارة قريبة منها

وسكان وادى النيل كانوا يستعملون فى أشغالهم المألوفة الورق المتخذ من البردى وأما سكان وادى الرافدين فكانوا يستعملون فى مثل هذا المقام الطابوق (الآجر) والشمامات والصفائح المتخذة كلها من الفخار وقد وجد من هذه الرقم الوف والوف محفور داخلها كلها أنواع الافادات والأنباء وكانت مدفونة تحت الأرض وقد حفظت كتابتها أحسن حفظ كأنها خرجت اليوم من يد عاملها وهناك الوف غيرها تنتظر أيدى الحفارين ليبرزوها الى عالم الظهور والمطالعة والاستفادة والافادة. ومن وقف على بعض ما ورد فى هذه الزبر الحجرية أو الفخارية يتحقق أن السلطة كثيرا ماانتقلت من يد الى يد ومن بيت الى بيت ومن قوم الى قوم ومن مدينة الى مدينة ومن الشمريين الى الساميين ومن الساميين الى الشمريين وذلك قبل المسيح بنحو ٢٨٠٠ سنة وبعدها. وليس هنا محل لايراد أسماء ملوك الذين ملكوا فى أرض شنعار قبل ألوف من السنين ولا سيما أن أغلب هذه الأسماء لم تألفها آذاننا ولا تنطبق على أصول لغاتنا فى هذا العهد ولا بد من ايراد بعض منها لتكون بمنزلة مثال لما هناك من هذه التراكيب السمجة التى نستغنى عن ايراد مابقى منها وهى نحو

لوجالشا جنجور . وانشا جكوشانا، ولوجاليكجو بنيدود ونحوها من الأسماء التى تصلح لأن تتخذ للطلاسم والعزائم أو لابعاد الجن والشياطين عن بنى آدم والمراد من ايرادنا بعض الامور عن شنعار وأرض النيل ان أهالى ذلك العصر كانوا قد جروا شوطا بعيدا فى الحضارة وقد ابتعدوا كثيرا عن الانسان الأول وفى ذلك العهد كانت الارض تنقسم الى قطرين : قطر قد ضربت عليه سرادق الجهل بظلماته وقطر قد غرق فى نور العلوم والمعارف وهو المعروف أصحابه بالمتمدنين فمدن القطر الذى كان واغلا فى الحضارة قد تعارض المدن الكبرى الشرقية فى عهدنا هذا بدون أن يلحقها أدنى شائبة فانك كنت ترى فى تلك المدن طرقا طويلة ضيقة ممعجة نشأت من حيطان البيوت العظيمة التى بنيت باللبن وكانت معاطاتهم ومعاملاتهم تجرى على أحسن وجه وتكتب لاحكام امورهم الوثائق والسندات والحجج والمقاولات والمبايعات والقرض الى غيرها . وكانت تختم بالخاتم على معجون الطين ثم تشوى فى النار لتحفظ من كل ضرر وكانت فائدة توقيع هذه الخواتم بمنزلة توقيع الاسماء أو الامضاءات فى عهدنا هذا . وزد على هذا كله انه انشىء فى عهد الملك حمورابى دستور أحكام ولعل هذا الملك قد سبق الى مثل هذا الدستور فلم يصل الينا أو أن مثل ذاك الدستور كان يجرى بين الناس بالمعاطاة بدون أن يكون مدونا على صفحات الصفائح وكان لاهل ذلك العهد درجات فى المقامات والمجالس على حد ماهى موجودة اليوم وكان « لابن انسان » بمقام ممتاز صرح به دستور احكام بابل وهو يختلف عن مقام « الفقراء » وكان فى ذلك العهد المماليك والعبيد كما كان يوجد رجال أحرار .

وكنت اذا خرجت من البلدة ترى طرقا واسعة والأشجار عن يمينك ويسارك وتلك الطرق تنحدر بك انحدارا وئيدا لاتشعر به تفضى بك الى المزارع أو الغابات أو غيطان نخل التى تزكو من سقى الفراتين أو من ماء الانهر لانك اذا التفت الى حيثما أردت كنت ترى الترع والجداول فى كل جانب وقد شقت لتسق تلك الأرضين التى أصبحت كلها جنات بفضل تلك المياه ولا جرم ان

الترع أو الانهار لم تشق فى وقت واحد بل هى عمل أجيال متعددة تتابعت على وجه تلك البقعة المباركة وفى بعض المواطن كانت مستنقعات عديدة عظيمة فاتخذ لها مصارف ومجار لكى لاتبقى فى موطنها وتفسد الهواء انتفعوا بها بعد أن حولوها سواقى وجداول وزرعوا ماجزر عن أرضها الماء فجاءت مزارع زكية وبساتين بهية . وكان من أهم أمور كل حاكم من حكام بلاد شنعار ومن أعظم مفاخرهم أن يحفر أحدهم ما اندفن من الترع والانهار أو أن يشق أنهارا جديدة وما كانوا يتفاخرون فى غير هذا . وحيثما كان يدخل الماء بقعة كانت تتدفق فيه الخيرات والغلات وتزكو فيه الأشجار وتكثر فيه الاثمار وقد ذكر هيرودوتس الذى طوى بساط أيامه قبل المسيح بنحو خمسمائة سنة ماهذا معربه « من جميع البلاد التى نعرفها نرى أرض العراق أزكاها تربة وأخصبها مادة للحنطة ولم تحاول هذه أن تحمل تينا أو عنبا أو زيتونا (١) لكن تزكو فيها سائر الحبوب أى زكاء . حتى انها لتعوض عما لاتنبت من تلك الاثمار والاشجار ولقد تؤتى الحبة الواحدة المزروعة مائتى ضعف وقد يزداد على ذلك بعض السنين فتفوق الأرض نفسها فتعطى بدل الحبة الواحدة ثلثمائة حبة وعرض ورق الحنطة والشعير يبلغ هناك أربع أصابع . هذا ولا أذكر شيئا عن ارتفاع سوق الذرة والسمسم لانى أظن ان الذين لم يكونوا فى ديار العراق لايصدقون أبدا ماذكرته عن زكاء حبوبها ومع كل مايقال عن ثروة أرض

(١) هذا ماقاله المؤلف فى عهده والظاهر ان أهل العراق كانوا يعنون كل العناية بزرع الحبوب والنخيل ولا يهتمون بزراعة الأشجار المعروفة اليوم عندنا باسم (التحتانى) والافان التين والزيتون ينموان ويزكوان فوق ما يتصور الانسان . وزيتون العراق من أكبر مايوجد من جنسه على وجه الأرض . وأما العنب فحدث عنه ولا حرج الا انه لما كان النخل أكثر غلة من سائر الأشجار عنوا به كل العناية وتركوا سائر الأشجار التى لاتغل الا قليلا بالنسبة الى النخل والحبوب فاعلم ذلك واحفظه

العراق فمساحة مايمكن سقيه وزرعه محدود بخلاف مايتصور عنه فلقد ذكروا ان المساحة الكبرى التى أمكن أن تحرث وتزرع وتسقى فى الزمان القديم كانت تتراوح بين ٢٠،٠٠٠ و ٣٠،٠٠٠ كيلومتر مربع والباقى وهو ٧٠،٠٠٠ كيلو متر مربع من الأرض الغير بلية كان يترك على حالته الأولى (١)

فى العهد القديم كان الشنعارى اذا سار فى أرضه فلا يقع طائر بصره الا على غابات تزدحم فيها النخيل والغرب والصفصاف ويمتد السهل بين يديه بقدر ما كان يبلغ بصره من مدى الافق .

وكان اذا أوغل فى شرقى دياره لمح جبال ايران تتتالى أمامه كانها الاغنام تأخذ بعضها برقاب بعض وبرتقى بعضها فوق بعض كانها درج توصلك الى أبعد أوج من الجو ولعل هذا المنظر هو الذى دفع أهالى هذه البلاد الى البنايه المتدرجة التى ترى فى بعض مشيداتهم وقصورهم فكان السطح يعلو السطح الآخر لتتمثل أمام عيونهم الجبال البعيدة عن أنظارهم ويغروا من منظر السهول التى قد أتعب أبصارهم هذا فضلا عن ان الحر هو الذى كان أول سائق لهم لبناية السطوح لانه اذا اشتد فى هذه الديار تعذر على الانسان سكنى الغرف فيعلو السطوح ليلا ترويحا للنفس وشما للهواء العليل وهربا من حر الهجر الذى لايطاق .

---

(١) ذهب ويلكوكس الى ان ماء الفراتين لايكفى لسقى أكثر من ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ (كذا) كيلومتر مربع وذلك اذا أريد أن يبقى فى دجلة ماء كاف لتسيير البواخر عليه والا ففى دجلة مقدار واف لسقى أرض أوسع مما ذكر وهذا لايمكن الا اذا ترك تسيير البواخر على الشط المذكور وأبدل بنقل الأموال على سكة الحديد وما كادت تحتل الدولة البريطانية بغداد الا وشرعت بمد هذه السكة وهى اليوم تعين نقل مايحمل على ظهر دجلة من الأموال والذخائر الحربية

ومما بنوه مدرجا هيا كلهم حتى اذا اعتلوها ليلا ذكرتهم صهواتها خالق تلك النيرات المنثورة فى القبة الزرقاء نثار فرائد الدرر على بساط آزرق ولما كانت الامور تقود الانسان من شئ الى شئ ساقه هذا المنظر الرائع الى رصد النجوم والكواكب فكان أهل شنعار أول من عنى برصد محاسن السماء على قواعد مطردة وفاقوا من تقدّمهم فى هذا الفن البديع . وما زالت مجموعة معارفهم فيه تزداد وتتسع جيلا بعد جيل حتى اتصلت بعدهم باليونان . وهى والحق يقال لم تكن راقية كما يتوهمه بعضهم لكن اليونان زادوا عليها زيادة تذكر وكذلك فعل الرومان . فتقوّم منها علم النجوم وعلم التنجيم معا . الا أن أساس تلك المعلومات كان مبنية على ماوضعه الكلدان وهم الذين كانوا يزعمون أن حظوظ الناس وسعودهم ونحسهم متوقفة على بروج السماء وكواكبها وعلاماتها وظواهرها وقد بلغ بهم الرصد الى أنهم عرفوا ما كان ثابتا من تلك النجوم وما كان متحيرا مع أن الاجرام النيرة التى تغشى تلك القبة الزرقاء تعدّ بالألوف والملايين ولقد تصوّروا فى تلك النيرات صورا وهمية انتقلت أسماؤها الى الخلف الى يومنا هذا كالعقرب مثلا والرامح الذى نصفه انسان ونصفه حيوان والجدى بذنب سمكة وكان للشمريين معنى خاص بالسيارة التى نسميها الى اليوم الزهرة ويشركونها بمعبودة الحب والولادة وكان مركز عبادتها فى أورك (الوركاء)

الملوك الأوّلون لشمر واكد
(سرجون أكد وخلفاؤه)

لما كان يحكم على أرض شنعار كلها أى أرض شمر واكد معا ملك واحد يرعى رعيته بصولجانه . كانت تلك الارض عبارة عن قوه متجمعة تمكن من ان ترسخ فى جميع البلاد المجاورة التى أصحابها دون شنعار قوّة وتمدّنا وحضارة . ويظهر أن تجمع هذه القوى وازدحامها فى مركز واحد هما من خصائص هذا الزمن لامن خصائص الخضوع لملك واحد فى العصور الخالية الواغلة فى القدم.

ويحق لنا أن نفكر أن الحرية الشخصية كانت أثبت فى القبائل الأولى منها فى مدن شنعار وديار مصر وكان من المتحتم على الرجل المتشوف الى أن يتقدم فى السلطة المنتظمة أن ينزع من نفسه شيأ من حريته الحاسية التى نشأ فيها وينقاد الى أخلاق ترضى الجميع. أما ملك شمرواكد فكان فى نفسه مطامع أعلى كان فى نيته أن يكون سلطانا مطلق الامر والنهى. ففى نحو سنة ٢٥٠٠ قبل المسيح على ماذكره المحققون دفع سرجون ملك أكد جيوشه الظافرة الى ماوراء تخوم شنعار شرقا وغربا شمالا وجنوبا. ففى الشرق أخضع لصولجانه العيلاميين (الذين يسميهم العرب بنى غليم. راجع القاموس مادة غلم بالغين المعجمة وابن خلدون ٢ : و١٣) فى القطر المرتفع المعروف عند العرب باسم خوزستان واليوم هو جزء من مملكة فارس فى الجنوب الغربى فى نحو طرف القسم المطمئن من الأرض الغريلية التى يجتمع فيها النهران وسكانه اليوم أقوام يتكلمون لغة خاصة بهم لا تشبه السامية ولا الشمرية وكانت حاضرته السوس المعروفة اليوم باسم ششتر. وكان أولئك القوم لايدينون بعض الأحيان للملوك الشمريين والاكديين فيقومون ويغيرون على مدن شنعار. وكانت حضارة عيلام مقتبسة فى صورتها الخارجية من شنعار: أما فى الجنوب فان سفن سرجون كانت تمخر مياه خليج فارس ليوصل جزائر البحرين بمملكته وهى الجزائر التى تتصل اليوم بدولة أخرى عظمى بواسطة بواخرها الجسيمة. وفى الشمال كانت جحافل سرجون تصعد دجلة وتدوخ قبائلها السامية فلقد وصلت على الأقل المدينة الأرمنية المعروفة اليوم بديار بكر اذ وجد فيها صفيحة شيئية (بازلتية) لابن سرجون ووارث مملكة أبيه ومدينة حران (التى يسميها بعضهم خطأ هاران) المتربعة فى سهل الجزيرة أخذت من عمران شنعار شيأ قليلا وكثيرا وهى التى أصبحت فى القرون المتتالية مركز عبادة خاصة بسين القمر الاله إله شنعار. وفى غربى الفرات دوخ سرجون بلاد قوم ساميين آخرين اسمهم العموريون وكانوا قدتوطنوا سورية الشمالية بين الفرات والبحر وبلغ سرجون بحرالجنوب الكبير وكانت سفنه تذهب لتمكن سطوته فى قبرص وهى جزيرة لاحقة بدولة

بريطانية العظمى كان البحرين بالامبراطورية المذكورة بواسطة السفن أيضا وعلى ما ترى كان سرجون قد دوخ العالم كله ذلك العالم الذى كان يعرفه الشنعاريون. أما وراءه فكانت ظلمات الهمجية تغشى مابقى من العالم الذى كان وراء فتوحاتهم. قلنا دوخ كل العالم ولعلنا بالغنا فى الكلام لأن فى ذلك العهد نفسه وفى زمن فتوحات سرجون الكثيرة كان ملوك وادى النيل اختصوا بأنفسهم فلسطين وفنيقية ولا جرم أنهم واصلوا وراسلوا ملك اكد. نعم ان سرجون أصبح يومئذ ملك أقطار الارض الأربعة وسيدها لان الشنعاريين كانوا يعتبرون البلاد الواقعة فى الأصقاع البربرية المكتنفة بالظلمات غير جديرة بأن تعد بين البلاد

ان الدولة الأكدية العظيمة دولة سرجون لم تدم طويلا فمن بعد قرنين انتقل الصولجان من جديد الى أيدى الشمريين اذ جاءت مدينة أور (المعروفة بأور الكلدانيين فى التوراة وهى المسماة اليوم المقير) وأقامت على العرش ملوكا من أبنائها. والبلاد التى دوخها سرجون خارجا عن شنعار انتقضت ثم قدم الفاتحون العيلاميون وساقوا أسيرا آخر ملك من ملوك أور والظاهر ان شنعار بعد هذا الأمر سقطت من عظمتها فتطايرت شظاياها وأصبحت كل شظية منها دويلة قائمة بنفسها. واذا نظرنا بوجه عام الى ما يمكن العثور عليه من تاريخ شنعار نرى أنه يتعذر على الشنعاريين أن يستعيدوا دولتهم الضخمة أو دولة طويلة البقاء. نعم اننا نرى من وقت الى وقت قيام بيت من الملوك الشمريين أو الاكديين يقبضون على أزمة المملكة لكن ذلك لايدوم طويلا وان كانوا يجمعون فى قبضتهم التسلط على البلاد كلها. ان تاريخ شنعار المتقطع يخالف كل المخالفة تاريخ ديار مصر لأن تاريخ هذه الديار يتسلسل تسلسلا عجيبا ان انتقل من يد ملك واحد مستقل الى يد ملك آخر مستقل مدة ٤٠٠٠ سنة تخللها فترة يسيرة. ولعل سبب ذلك التقلب فى بلاد شنعار وجود عنصرين قديمين مختلفين مع لغتين متغايرتين بخلاف بلاد وادى النيل فان أهاليها يرجعون الى عنصر واحد ويتكلمون لسانا واحدا. هذا فضلا عن ان بلاد مصر كانت

قد انحازت عن سائر البلاد بالبحر الذى يفصلها من جهة . وجبال بلاد العرب أو هضابها من الجهة الاخرى وأما بلاد شنعار فانها كانت شاغرة مفتوحة لكل من يهجم عليها ومن كل جانب منها

ان تاريخ شنعار السياسى متقطع الا أن حضارته بقيت ثابتة غير متزعزعة خلال أزمنــة الملوك الذين تداولوها والطوارئ المختلفة التى طرأت عليها فالأراضى كانت تزرع وتسق وأهاليها كانوا يبيعون و يشترون و يدونون حساباتهم و يكتبون مراسلاتهم على صفائح الفخار وكانوا يعبدون أربابهم على ما كان يفعله أجدادهم . وكان أهل الجبال وأهل السهول يزدحمون فى شنعار و يترددون الى غاباتهم و بساتينهم بدون مانع يمنعهم ويتعجبون من محاسن أرضهم بل من محاسن فردوسهم وهو أمر لم يروه خارجا عنها . كانوا يرون فى بلادهم شنعار حيطانا سميكة من الطاباق وأبراجا حسنة البناء كأنها تناغى السماء . كانوا يرون صور حيوانات و وحوش جسيمة رسمت طبقا لأصول صناعة توارثها الخلف عن السلف ولها مزايا خاصة بها لا توجد فى غيرها وهى كلها منحوتة فى الحجارة أو منقوشة على الآجر أو مصبوغة بأصباغ ملونة أحسن تلوين متلألأ فى الشمس الباهرة النور . كانوا يرون أسواقا يتزاحم فيها الناس من كل حدب وصوب ذوو ثياب واسعة طويلة تنحدر على أقدامهم الحافية أو التى فيها نعال خفيفة لا يســمع منها حس . وهم يمشون فى شوارع كثيرة التراب والعجاج . كانوا يرون بضائع وأموالا معروضة للناظرين وأقمشة نفيسة مزركشة أو مطرزة على ما كان يفعله الشنعاريون . زركشة وتطريز لم ينافسهم فيهما أحد من الأمم وقد بزوا فيها على سائر الاقوام المجاورين لهم . أو يرون فيها بضائع معروضة وقد جىء بها الى بلادهم على ظهور الجمال أو الحمير وقد نقلوها من البلاد المجاورة . الا أن الشنعاريين كانوا محرومين من شئ واحد انهم كانوا محرومين فى عهد سرجون اكد من الخيل الجياد . لأن القبائل المتجولة فى الشمال كانت قد اتخذت الحصان خادمها بل رفيقها ولم تكن تعرف الطريق المؤدية الى الجنوب لاسيما الطريق المؤدية الى بلاد شنعار نفسها . وكذلك لم يكن

الفراعنة ذلك العهد جياد لجر عجلاتهم كما لم يكن للاعراب الرحل جياد لركوبها

تأثير حضارة شنعار وديار مصر على سائر البلاد

القوة مهما كانت مادية أو أدبيــة أو عقلية لابد من أنها تؤثر أثرا عظيما على من يكون حولها أو يراجع صاحبها وهكذا كان الأمر فى حضارتى شنعار وديار مصر على سائر بلاد ذلك العهــد التى كانت تجاورهما . فان الأقوام الأجلاف كانوا يتقدمون فى الحضارة بطريقين مهمتين ملامستين للاقوام الراقية احداهما النظر الى معيشة سكان النيل والفراتين ونقل ما يرونه الى أهاليهم بعد عودتهم الى بلادهم . فانهم كانوا يرون نتاج العلوم والفنون والصنائع والاشغال المحفورة والمنقوشة والأسلحة والأقمشة الفاخرة فكانت كلها تنفث فى صدورهم أفكارا تدفعهم الى أن يحلوا أعظم الاجلال أولئك الذين كانوا يبرزون الى عالم الوجود مثل تلك المآثر . وأما ملك أكد أو ملك أور فانه رفع منار الحضارة والرقى بحيث أخذ نوره يضىء الى بعــد سحيق وغدا كل واحد من الناس يستضىء به ويفرغ ما فى امكانه ليضاهيه فى عمله . ومثل هــذا جرى بعــد ذلك بقرون عند الرومان فان رقيهم كان قد طبع فى نفوس أقوام الشمال الذين كانوا يدنون منهم حراما وإجلالا ما كانوا لينسونهما البتة . وعليه أصبح رقى أبناء الفراتين مما يحتذى ان كان له مزايا خاصة به وبصنائعه وأشغاله وأخذ يتعدى البلد بعد البلد والصقع بعــد الصقع لتحقيق حضارة تعم أقواما عديدين ومما يجدر ذكره ولا يغمط شكره انه سبق عمران سرجون عمران آخر لم يبزغ الا بجره وذلك فى سواحل البحر المتوسط وجزيرة الواقعة قريبــة منه . وقد أخرج السر آرثر ايفنس شيئا من آثاره وبقاياه من جزيرة اقريطش (كريد) ومما لا نغض عنه الطرف ان تأثير عمران شنعار وديار مصر كان يصل الى قبرص لقربها من السواحل وقد ثبت ذلك اذ رؤى فيها أن سكانها اعتاضــوا عن الأدوات الحجرية بالادوات الشبهية (البرنزية)

بزوغ شمس حضارة بابل وظهور حمورابى

ذكرنا الطريق الأولى التى اذا سار فيها الاقوام الاجلاف يرتقون فى الحضارة والعمران . أما الطريق الأخرى فهى الاندغام أو الاندماج فى أمة راقية أو الانضواء اليها . فقد كان يقع ان قبيلة من القبائل الضخمة أو القوية تنحدر من الجبال أو تطرأ من الفلوات وتأتى فتستحكم البلاد وتنشئ فيها مملكة ثم تمعن فى الحضارة التى اقتبستها عند احتلالها البلاد وتدفعها الى أقصى غاية منها وتجرى على عادات أهاليها الدينية فتبعث بهديها الى آلهة شنعار على ماهو جار فى عوائد أهل البلاد وتتخذ لغتى شمر واكد وتتخلق بأخلاق ملوك البلاد . وأحسن مثال لتأييد قولنا هذا ماوقع للأموريين فانهم جاؤا واستوطنوا البلاد المذكورة فى نحو الألف الثالث قبل المسيح ونحو المائة الخامسة بعد الملك سرجون وفى نحو ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد أقبل شيخ أمورى اسمه (سموابو) وأنشأ لنفسه مملكة فى أرض شنعار واتخذ له عاصمة جديدة وهى مدينة كانت واقعة على الفرات لم تكن ذات شأن فى مدن القطر اسمها (باب ايلو) ومعناه باب الالهة وهى التى نحت منها العبريون اسم بابل فصحفها اليونان وقالوا (بابلون) وقام من هذا البيت بعد مائة سنة ملك اسمه حمورابى وهو أكبر مشترعى بلاد شنعار فى التاريخ وبه دخلت البلاد مرة أخرى تحت جناحى ملك واحد بعد أن أصبحت كتلة واحدة عجنته يداه . فقد ذكرت تواريخ حمورابى المدونة فى عهده كيف جمع هذا الملك أفراد تلك الامة ونهض زاحفا بهم على ملك أور فافتتحها وكذلك فعل بمدينة لارسا (سنكرة الحالية) ونقل أسلابهما الى عاصمته بابل . ثم حارب العيلاميين واحتل بلادهم المتاخمة لبلاده فأوقف بذلك غاراتهم . ومد جناح سطوته وشوكته الى ماوراء شنعار الى أعالى دجلة وأدمج ديار أشور فى دياره وكانت هذه البلاد واقعة فى منحدر دجلة ناظرة الى جبال ايران وكانت تتصل من الشرق بسهول الجزيرة الخضراء

وهواؤها أطيب من هواء شنعار المشهور بشدة حرارته . وكان أهالى تلك الديار ساميين مثل الاكديين والاموريين ولسانهم قريب من لسان الاكديين وكانت أشهر حواضرهم أشور أو آثور على دجلة . ثم امتد اسم المدينة حتى عم الصقع كله فالشعب نفسه فالالهة المعبودة فيها . وكان الاشوريون قد ابتنوا مدينة أخرى قبل أن يدوخ حمورابى ديارهم اسمها نينوى وكانت واقعة أعلى منها من جهة منحدر دجله وكانت نيتهم أن يفوقوها على أشور حتى يكسف نورها نور أشور . وكان تمدن أشور كتمدن شنعار وآلهتها كآلهتها بدون فرق الا ان أخلاقهم على مايظهر كانت تميل الى الحروب والقراع أكثر مما كانت تميل اليه أخلاق الشنعاريين يبين ذلك من هذا الأمر وهو أن أشتر (أوعشترته) معبودة شنعار الكبرى كانت الالهة اللذات عندهم وكانت عند الأشوريين معبودة الحرب . وفى عهد حمورابى البابلى أصبحت بلاد أشور كلها تعتبر جزءا من مملكة شمر واكد .

ولم يكن حمورابى ملكا مغوارا أو فاتحا بل كان أيضا حارسا حريصا على ادارة بلاده . يشهد على ذلك رسائله التى أنفذها الى الضباط الملكيين وعماله الذين كانوا فى جنوبى المملكة وهى الرسائل التى اكتشفت حديثا . فيظهر منها انه حوّل كل فكره وانتباهه نحو اسقاء الارضين واروائها تلك الارضين التى يتوقف عليها حياة السكان وعمرانهم . ولقد كان يحفر مايدفن منها ويصلح مايفسد ويشق ترعا جديدة فى المواطن التى بدت فيها الحاجة . وفى هذه السنين الأخيرة اكتشف العلامة الفرنسوى المسيو دمرغان القوانين التى انشأها لبلاده وقد نقلها الى الفرنسوية لاول مرة الأب فنسان شيل الدومنيكى وقوانينه هذه من أجزل الفوائد والمقابلة بينها وبين شرائع موسى من الأمور التى تعرض لفكر الباحث بدون أن ينبه عليها . ولقد صارت مرمى ابحاث طلبة العلم منذ ان ظهرت الى عالم الوجود . وقد اتخذ واضعها طريقة ابتدائية للتمييز بين طبقات الناس فقد قال فى جملة ما سنه : (اذا أتلف واحد عين

رجل شريف تقلع عينه واذا رض عضو شريف يرض عضوه) وقال فى موطن آخر (اذا اتلف رجل عين رجل فقير أو رض عضوا من أعضائه يؤدى منا من الفضة . والقضاء فى أمور الخلق أخشن حكما وأقطع نفوذا فقد قال فى جملة ماسنه : اذا عالج طبيب شريفا لجرح بليغ بمبضع من شبه (برنز) وسبب وفاته أو اذا بزل دملة فى عين شريف بمبضع من شبه وسبب تلف عينه تقطع يد الطبيب) اذا بنى بان بيتا لرجل ولم يكن بناؤه مكينا وانهدم البيت الذى بناه وسبب وفاة صاحب البيت يقتل ذلك البانى) .

لاجرم ان شرائع حمورنى لاتمثل مطلقا أفكار رجل خصوصى . لكن أفكار التشريع والأخلاق السائدة يومئذ فى شنعار فى القرن الالف قبل الميلاد ولهذا يجب أن ينظر يه نظرنا مستند أصلى يعتمد عليه من يهمه أمر نشوء فكرة الخير والشر بين الناس .

وبعد أن ولى عهد هذه الدولة الامورية البابلية ابتلع فى الآخر العنصر السامى العنصر الشمرى . وغدت اللغة الشمرية لغة مماتة حفظت بجنب اللغة الاكدية بمنزلة لسان دينى على حدّ ما كانت اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى وأصبحت اللغة السامية منذ ذاك الحين لغة سواد الناس فى شنعار كلها .

نشأت الدولة الامورية وترعرعت ثم اكتهلت فهرمت ثم طوت بساط ايامها وانقرضت . وآخر خلف لحمورنى تشير اليه الآثار يبين كانه يعود الى النصف الاول من القرن الثامن عشر قبل المسيح . وبعد ذلك انتشر أقوام فى تلك الديار وحيثو آسية الصغرى المعروفة ببر الأناضول وهم أقوام لم نسمع بهم الى اليوم وفدوا الى بابل وأخذوا معهم صورة الاله الخاص ببابل أى مرودخ (المعروف باسم عام هو بل تخفيف بعل أى الرب أو السيد) ثم قدم الديار المذكورة قوم من الجبال القائمة بين بابل وفارس اسمهم الكاشو (أو الكشيون) فجاؤوا من الشرق وأوغلوا فى قلب البلاد وأقاموا على عرش بابل

واحدا من ملوكهم . واننا لنجد أثرا لهذه الدولة مدة قرن . ثم يكتنف البلاد ظلمات فوق ظلمات زهاء قرنين لا نرى فيها ما يفيدنا عن أخبار أرض شنعار شيئا يذكر

ابراهيم والقوافل السامية

تفيدنا التوراة أن الله خلق العالم وما فيه مع الانسان فى ستة أيام . واستراح فى اليوم السابع . وسمى الرجل الأول آدم والمرأة الأولى حوّاء وأعطاه اياها معينة له وأقامهما فى جنة لذيذة ثم طردا منها لمخالفتهما أمر الله وأكلهما من ثمرة الشجرة التى منعا عن أن يأكلا منها وهى الشجرة المعروفة باسم شجرة معرفة الخير والشر

وأخذ الناس يكثرون من صلب آدم وحوّاء ونموا نموّا بينا لكنهم أخطأوا امامه تعالى فأبادهم بطوفان هائل سلم منه نوح وأهل بيته ومن نوح عمرت الأرض من جديد فهو الأب الثانى

وبعد أن مضى على الطوفان نحو ألف سنة اختار الله ابراهيم وعقد عهدا معه ليجعله رأس أمة مصطفاة وكان الخليل قد ولد فى مدينة أور (وهى التى نسميها اليوم المقير) وكان يقيم يومئذ فى حران وهو ابن تارح فقال الله له : « اخرج من بلادك ومن أقاربك ومن بيت أبيك الى البلاد التى أريكها وأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأجعل اسمك عظيما وتكون بركة وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك وبك تتبارك جميع بيوت الارض » . فحينئذ غادر ابراهيم بلاده وذهب الى البلاد التى ذكرها له الرب

وفى ذلك العهد كانت القوافل تجرى على الوجه الذى نراها تجرى عليه الآن بدون أدنى تغير فكان أهل البيت الواحد يجتمع أناسا آخرين ويأخذون معهم خيما وزادا وأدوات طبخ وشرب ويأخذ أصحاب البيوت المترفهة خدّاما ورئيس طريق يسمونه عكاما ويكرون لهم دواب من واحد بهمته السير بين

مدينة ومدينة وقد عرف الطريق أحسن معرفة. ويكون أغلب سير القوافل فى فصول السنة الطيبة مثل الربيع والخريف وقد تكون الاسفار أيضا فى الصيف لكن المسافرين يسرون فى الليل ولا يسيرون فى النهار ويضربون خيمهم على كل حال قريبا من الماء بجانب نهر أو عين ماء أو بئر أو صهريج لضرورة الماء. ويمشون كل يوم من ٧ الى ٩ ساعات بموجب طول المراحل وقصرها

وهكذا فعل ابراهيم فانه أخذ سارة امرأته ولوطا ابن أخيه وجميع أموالهما التى اقتنياها والنفوس التى امتلكاها فى حران وخرجوا فأتوا أرض كنعان ومن بعد أن قاسى هو ومن معه شدائد الطريق وأنواع المشقات ألقى عصا ترحاله فى كنعان من بعد أن ذهب الى مصر فلم تطب فى عينيه لسوء آداب فرعون ومن معه من الرؤساء. وكان مقام ابراهيم فى كنعان فى جوار جار ثم فى حبرون وهناك جدّد الازلى عهده معه ووعده بأن البلاد كلها تكون لذريته

وأقام فى تلك الارض هو وابنه اسحق وحفيده يعقوب بأمن وسلام وولد ليعقوب اثنا عشر ولدا. وكان أحدهم يوسف يبغضه اخوته أشد البغض لأن أباه كان قد ميزه عن سائر اخوته بمحبة خاصة فباعوه لقافلة تجار كانوا يذهبون الى مصر وأقنعوا أباهم ان سبعا (١) افترسه. وفى مصر اشتراه فوطيفار أحد كبار موظفى فرعون وما عتم أن أصبح قيما على مال سيده ثم رقى حتى صار أول وزير لفرعون. وفى سنة من السنين ساقت المجاعة اخوته الى مصر فذهبوا يشترون حنطة فأظهر نفسه لهم وأخذهم الى بين يدى الملك. فقال حينئذ فرعون: « قل لاخوتك: اعملوا هذا، حملوا دوابكم واذهبوا وعودوا الى أرض كنعان وخذوا أباكم وعيالكم وارجعوا الى فأعطيكم من أحسن ما فى

(١) والذى جاء فى سورة يوسف: « قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا اذا لخاسرون ».

ديار مصر فتأكلوا شحم الأرض. فذهب اذا اسرائيل مع كل ما كان له ووضع بنو اسرائيل يعقوب أباهم وصغار أولادهم ونساءهم على مركبات بعث بها فرعون ليحملوا عليها وأخذوا معهم أيضا مواشيهم وأموالهم التى اقتنوها فى بلاد كنعان ويعقوب وكل أهل بيته معه وهبطوا مصر » فأقاموا بين شعبة من شعب النيل وبين الصحراء فى أرض جشن حيث نموا نموّا عظيما وأصبح أبناء يعقوب ويوسف اصل الأسباط الاثنى عشر وهؤلاء أولادهم: "يهوذا، وشمعون، وبنيامين، ودان، وافرائيم، ومنسى، ويساكر، وآشير، ونفتالى، وزبولون، ورؤبين، وجاد".

الخروج من مصر وأمر موسى (١)

مضت أيام وأقبلت أخرى فأقيم على عرش مصر فرعون آخر لم يكن يعرف يوسف البتة وكان عدد بنى اسرائيل يخيفه فأخذ يشدد عليهم ويعنيهم ويحملونهم اشغالا لا تطاق وامر بقتل جميع الذكور الذين يلدون. ثم ان امرأة من سبط لاوى من بعد أن ولدت وأخفت ولدها مدة ثلاثة أشهر وضعته على النيل فى قفة فى الموضع الذى كانت تستحم فيه ابنة فرعون على مألوف عادتها. فحنت عليه الأميرة وسمته موسى (أى المنشول من الماء) وربته فى قصرها وعلمته جميع علوم مصر. ولما كان موسى ابن أربعين سنة رأى مصريا يضرب عبريا فقتله غيرة وفرّ الى برية سيناء وبقى فيها منفيا نحو أربعين سنة.

ولما مات فرعون ظهر الله لموسى فى عليقة محترقة وامره بأن يعود الى مصر لينجى شعبه من الرق فذهب هو وأخوه هارون وطلب الى فرعون أن يطلق

(١) فى قصة موسى مخالفة لما ذكر فى تواريخ المسلمين فان أم موسى لما وضعته جعلته فى صندوق وألقته فى النيل ثم ان الصندوق ألقاه الماء فى ساحل قصر فرعون وان امرأة فرعون هى التى عثرت عليه لا ابنته الى غير ذلك من من التفاصيل المخالفة لما ذكر ههنا

ليقدموا قرابينهم فى البرية فلم يحصل على ماطلب الا من بعد أن أنزل فى وادى النيل عشر ضربات وأباد أبكار المصريين. وبعد أن غادروا بلاده تتبعهم فى البحر الأحمر وكانوا يعبرونه يابسا أمامهم وكانت مياهه تنطبق على المصريين لتبتلعهم فلما خرج موسى وبنو اسرائيل من البحر ترنموا بأنشودة تغنى شهرتها عن ذكرها

وفى كل أعماله أظهر موسى من الحزم والعزم وقوة الفكر وحسن الادارة ماجعله فى مصف الرجال المشترعين الكبار ولا يمكن أن ينسى أو ينكر فضله

أشوريو نينوى الصناديد وفتح مصر

بينما كانت مصر تسير فى وجهها فى طريق الحضارة والعمران، وأخذ بنو اسرائيل يتجمعون أمة تتقوى مع الزمن كانت السيادة تنتزع من أيدى شنعار لتنحصر أو تنتقل الى قوم سامى آخر يعرف بالأشوريين من أقارب الأولين وكان ذلك فى نحو السنة التى بين ١٦٠٠ و ٦٠٠ قبل المسيح وبينما كان نور شنعار يتضاءل كان نور أشور يشتد ومازال الرقى يسير بهم صعدا حتى أصبحت مملكتهم حسنة التنظيم ولها من المطامع فى الفتوحات ما لا مطمح وراءه وكانت حضارتها ودياناتها وعلومها وصناعتها وكتابتها مقتبسة كلها من شنعار؛ إلا أنها أدخلت عليها من التحسين والتجديد والاصلاح مايكسف عن روح جديد فى جميع ما تأتيه وكانت مغرمة بالغزو والفتح والتبسط فى مناكب الارض وأسنمتها. ولم تتوفق فى بادئ الأمر تحقيق أمانيها لما كان يعترضها من عزائم أعدائها شمالا وجنوبا شرقا وغربا. عن الشمال والشرق كانت جبال لايذل سكانها لأول هاجم عليهم. ومن الجنوب كان الشنعاريون أصحاب التمدن القديم وفيهم من عزة النفس مايدفعهم الى أن يدفعوا أحياء ولا يقبلوا الخنوع لأمة حديثة النشأة أمة الاشوريين وأما ايغالهم فى جهة ديار الشام وآسية الصغرى فكانت تصدهم جبال أخرى منيعة سكانها رجال أشداء لا يذلون بسهولة

وبعد أن نشأت الدولة الأشورية وظهرت للوجود وتمثلت قواها ومظاهر حياتها فى قلبها ودماغها أى فى مدينتى أشور ونينوى. عادت الى البطش والفتك بعد أن استجمعت قواها ونجحت فى انشاء دولة أوسع وأكبر دولة وجدت الى عهدها وكان يرعاها ملك واحد. وبعد أن انتابها العز والذل الرفعة والضعة النصر والدحر العثار والانعاش أخذت تمتد متبسطة فى الأرض وأول ما كان ذلك فى القرن الثانى عشر قبل المسيح. فالملك تغلث فلسر (تغلتى فلاشرا) دوخ فى الجهة الغربية المشيان والكماجنيان فى بلاد هضاب أعالى الفرات بين الجزيرة وآسية الصغرى ثم سار مظفرا نحو الشرق متوقلا جبال كردستان وواغلا فى البلاد التى نسميها اليوم أرمنية حتى الشمال وقهر الممالك الصغيرة الواقعة فى شمالى سورية واجتاز لبنان نحو الساحل الفنيقى وتمكن من رؤية البحر المتوسط. فلما سمع بدنوه ملك مصر أهداه هدايا ليدفعه عنه فعاد الى دياره واستحوذ على أرض شنعار. الا أن ملك بابل أنزل بجيوشه الأشورية أعظم النكبات وأعادها الى ديارها. وابن تغلث فلسر أخذ بثار أبيه. وفى هذا الحين سمعنا باسم بغداد للمرة الاولى بدون أن تكون مدينة عظيمة بين مدن شنعار. وبأن الاشوريين دوخوها وبعد عدة ملوك اضمحلت سلطنة اشور مدة أعصار متطاوله وهذا مايسمى بدولة أشور الاولى

وبعد أن خمد ذكرهم فى تلك المدة عاد فنبه قبل عهد النبى أشعياء. وفى سنة ٨٦٠ ق م اجتازت جيوش الاشوريين للمرة الثانية جبل لبنان وأكرهوا فنيقى ساحل البحر على أن يؤدوا دلائل الاكرام لملكهم. وقبل المسيح بنحو سبعمائه سنة عادت السطوة الاشورية الى التقدم خطوة خطوة على طول فلسطين التى أصبحت بمنزلة الجسر يصل البحر بالبر وقد اعتمد رأسه على المملكة الضخمة القائمة فى وادى النيل. وفى ذلك الحين أخذت البلاد المصرية باسترجاع قواها المتبددة ففى أعالى النيل فى المكان الذى نرى اليوم مدينة (الخرطوم) كانت مملكة تعرف «بكوش» وهى التى يسميها اليونان (اثيوبية) وكان ملوكها مصريى المحتد والحضارة. وكان صولجان الملك بيد دولة مستقلة فانحدر ملك كوش الى أرض أجداده ليفتحها فتوفق لما نوى وجمع بينها وبين

بلاده الكوشية وجعلها مملكة واحدة. وكان ينتظر أن تصطدم الحضارتان النيلية والجزرية أو الفراتية فوقع وذلك أن سنحاريب أقبل فى سنة ٧٠١ ق م بجيش جرار نحو الساحل وقد ولى وجهه شطر البلاد المصرية. فالتحم الجيشان الأشورى والمصرى فى سهل الفلسطينيين فولى المصريون الأدبار وكان النصر حليف الاشوريين وظهر كان الساعة قد حانت للاشوريين أن يوغلوا فى بلاد النيل الا أن الأمنية لم تحقق ساعتئذ لانه بينما كانت جيوشهم مرابطة على حدود الصحراء بين فلسطين ومصر فاجأها طاعون جارف وكاد يفنيها عن آخرها لولا انها اسرعت فعادت الى وطنها وكان سبب هذا الطاعون هجوم طوائف عظيمة من الجرذان على أولئك الجيوش الاشورية ففعلت بهم مالم يفعله أعداؤهم

مضت سنوات والأشوريون يحاولون فى أثنائها الزحف على مصر فلم يتوفقوا اذ حبطت خططهم كلما أرادوا تحقيقها وفى سنة ٦٧٠ ق م عبر الاشوريون (رفح) الواقعة على حافة البادية وكسروا الجيوش المصرية قريبا من التخوم فى ملحمتين أريقت فيهما الدماء وبعد أربعة أيام دخلوا منف بأبهة وعظمة والمصريون مقهورون أذلاء صاغرون واضاف اسرحدون الى ألقابه السابقة لقب «ملك مصر وكوش» شيد فى نينوى قصرا جليلا رائع الحسن والبهاء وفتح له فى صدره جادة وضع فيها تماثيل أبى الهول على ما شاهده فى ديار مصر

وبلغت دولة الاشوريين أقصى السعة والامتداد فى عهد أشور بنيبل ابن اسرحدون (٧٦٦ — ٦٢٥ ق م) فان جيوشه الظافرة صعدت أعالى النيل حتى وصلت طيبة أو طيوة عاصمة الصعيد (وفى بعض مكانها اليوم الاقصر وكرنك) فاكتسحوها وساقوا أهلها أسرى بعيدا عن بلادهم. فكان هدم هذه المدينة العظمى مدينة الاله آمون نكبة من أعظم النكبات على أبناء مصر وقد أثرت ذكراها على مخيلتهم ومخيلة جميع الشرقيين حتى انها لم تنس ولن تنسى

الكلدان وانحطاط الجزيرة فى القرن السادس قبل المسيح وتعالى سطوة الفرس وتفوقهم على الساميين

بقيت بابل صاغرة لأشورية حينا من الدهر ثم نفضت عنها غبار الذل والمسكنة فجيش بنو بلصر جيشا لهاما وزحف به عليها فأفلح فى سعيه. وكان بنو بلصر كلدانيا وكان الكلدانيون من الأمم الارمية الاصل. نزلوا الشرق قبل بضعة قرون فأسسوا فيه مملكة مستقلة لاصقة ببابل وحاضرتها واقعة على ضفة الفرات المقابلة لها

ثم أخذ الكلدانيون يتسربون رويدا رويدا الى بابل وينتشرون فى تلك الديار حتى تبسطوا فى البلاد كلها وأصبح بعد ذلك معنى « كلدية » و « بلاد بابل» شيئا واحدا. ولما قام على عرش بابل ملك كلدانى الاصل سهل حينئذ امتزاج الكلدان بالشنعاريين واقتبس كل من الشعبين ماينقصه لنفسه فاستعار الكلدان الآلهة القديمة من الشنعاريين وعبدوها بأشكالها المعروفة منذ العهد البعيد واتخذوا الكتابة المسمارية لقضاء أشغالهم وأمور معاشهم وأخذ البابليون من الكلدان علم النجوم وعلم التنجيم ومنذ ذلك الحين امتزج علم النجوم بديانة الشنعاريين حتى أنه فى العهد اليونانى الرومانى أصبح معنى «الكلدان» يفيد معنى « المنجمين »

ثم ان بنو بلصر حالف ملك ماذى ليقاوم معه ملك أشور فزوج ملك ماذى ابنته بنبوكد نصر (١) بن بنو بلصر توثيقا لعرى الولاء. وفى سنة ٦٠٨ ق م أخذ الماذيون نينوى والفاتح الآرى « هدم كل الهدم مزارات آلهة أشور وأفنى كتبهم المقدسة وأبى أن يبقى واحدا منها واكتسح مدنهم وغادرها قاعا صفصفا كانها لم تكن » وهكذا اقتسم الماذيون والكلدان او البابليون الدولة

---

(١) وهو المعبر عنه ببخت نصر

الاشورية القديمـــة فأخذ المـاذيون القسم الشمالى وأخذ الكلدان القسم الجنـــوبى

وفى عهد بنوكد نصر (سنة ٦٠٤ – ٥٦٢ ق م) عادت بابل فلبست حلة سلطة جديدة وماست بثوب مجد سَنٍ . وبعد أن مضا عليها مائتا سنة فى بدء أمرها وهى تختال عجبا وسؤددا على باقى البلاد قضت نيفا وألف سـنة وهى تابعة لدولة أخرى أو محافظة على استقلال كله صعوبات وفى الآخر جاهرت به غير هيابة فتلألأ مجـدها وسطع نور عزها لكن ذلك كان عبارة عن شمس أصيل الحضارة الشنعارية القديمة قبل أن تتوارى عن الانظار . فهذه العودة الجديدة الى المجد والفضل لم تتجاوز عمر بنوكد نصر رافع لوائها وبانى معاهدها وقد وافق وقوع هذا التجدد زمن تمخض حوادث الدهر بشـعبين آخرين قد خصـا من بين جميع الشعوب والأمم بأن يدفعا المجتمع البشرى وتصوراته وتخيلاته المستقبلة الى أبعد مدى من العقليات الدينية والدنيوية وهمـا اليهود واليونان اذ على آرائها تبنى معاهد العقائد والعلوم فتكون هى السائدة أو الباقيـة فى الأرض وما عداها يذهب هباء منثورا فى الكون

أما من جهة سعة مملكة بابل والكلدان فانها كانت دون دولة أشور القديمة فى قسمها الجنوبى فى عهد أشور بنيبل

والبائن فى نحو هذا العهد انتقلت عيلام الى يد جيل آرى يتصل بالمـاذيين نسبا وكان مركزه فى الديار الجبلية من الجهة الجنوبية الغربيـــة . وقد أسس دولة جديدة تدفع الجزية الى ملك ماذى . وكانت بلاده فيما نسميه الآن «ولاية فارس» وضمت اليها ديار عيلام التى حطمت كما حطمت دولة تلك البلاد مع ملوكها الذين هم من أبنائها فى أيام مملكة أشور الأخيرة وسوف تسـمع عنهم كثيرا فيما يأتى من مطاوى التاريخ وكانوا يسمون أنفسهم «فارسا» ومنـه اسم الفرس عند العرب الذى وصل الينا

وقد حاول بنوكد نصر أن يمدّ سطوته الى ما جاوره من البلاد ويبلغ وادى النيل لكنه مع مابذل من الهمة والسعى الحثيث لم يتمكن مما منى نفسه به الا أنه مد صولجانه الى سورية وفلسطين وهما بمنزلة الجسر للعبور الى ديار مصر ورضى باقامة ملك من صلب داود يحكم على تلك الربوع ولكن الى أجل مسمى بيد أن الدسائس التى كانت تدس بين أورشليم وبين بلاد مصر بلغت مبلغا أى مبلغ حتى ان الجيوش البابلية لما أخذت أورشليم للمرة الثانيـة اكتسحت المدينة المقدّسة وهدمت هيكل سليمان بعد أن حاول الملك صدقيا أن يتخلص من سطوة قاهره لكن سعيه ذهب أدراج الرياح وسيق اليهود أسرى الى ديار بابل ومعهم آخر ممثل للسلالة الملكية العتيقة

وقد أفرغ بنوكد نصر كنانة وسـعه لاصلاح شؤون شنعار وتجديد معالمها واحياء سعادتها فحفر الانهر ورمم الترع وبذل همه فى اسعاد العباد وتأمين البلاد . فوسع بابل وزاد فى محاسنها ومآثرها وهو لايعرف الملل ولا يصيبه الكلل . فشاد هياكلها المتهدّمة ورفع رؤوسها الى عنان السماء ونقش جلائل أعمـاله على الآجر باللسان القديم وحرفه العتيق المعروفين فى البـلاد لتشهد بأنه وجد أيضـا فى بابل ملك قدير مخلص العبادة للاله « بل » أو «بنو» وكانت مدينة بابل مبنية فى فسحة مستقيمة الزوايا تكسيرها ميلان ونصف فى ثلاثة اميال . ولهـا سوران : خارج وداخل . وكان المقبـل اليها من الخارج لايدخلها الا من بعد أن يجوز أسوارها الواسـعة الواحد بعد الآخر . وكان عرض الواحد منها بين العرض حتى أن عجلتين كانتا تسيران أو تتلاقيان على أعلاه . وبعـد الدخول تنبهر عينا المسافر مما يشاهد ويرى . وكان الفرات يشق هذه الحاضرة شقا وكانت أبنية الآجر فيها منحصرة فى القسم الموجود بين الحيطان من تلك الفسحة . وقسم منها كان عرصة للبساتين ومزرعا للحنطة حتى اذا ماضايقها العـدو فى يوم حصار تستطيع أن تطعم أبناءها . وكانت الهياكل ترتفع فوق البيوت المألوفة بهيئة أبراج بسطوح بعضها فوق بعض كما كانت تسمو صعدا مبانى بنوكد نصر الجديدة وكان أحدها بنـاية بطبقات قد ركب بعضها بعضا وتلك البنية هى قصر الملك . وكان قسم منه فى ضفة من الفرات والقسم

الا خرق الضفة الثانية أى أنه كان راكبا الفرات وكوبا . وكان يجمع بين القسمين سرب تحت النهر . والقصر وحده كان عبارة عن مدينة وكانت جدرانه مغشاة بنقوش حيوانات مرسومة على الآجر بأصباغ زاهية لا تمحى وقد خص رسمها بأهل البلاد دون غيرهم وعلى وجه غريب تناقله الخلف عن السلف . وكانت قبة القصر المذهبة تتألق ضياء عن مكان سحيق ولا سيما لان الشمس فى هذه الربوع تبقى سافرا لا يحجبها حجاب البتة فى أيام القيظ . ولا جرم أن هذا القصر الملكى كان متصلا بالجبل المصطنع ذلك الجبل الذى وصفه لنا اليونان باسم «البساتين المعلقة» وكان الذى حداه الى صنعه أن امرأته المادية كانت تذوب أسى لوجودها فى بلاد كلها سهول منبسطة فأراد زوجها أن ينقل لها تلال بلادها فابتنى لها جبلا متدرجا متفاوت السطوح يذهب صعدا فى الهواء . وقد بناه كله بالآجر قائما على عقود محكمة الشد وتلك السطوح كثيرة التراب لتتمكن الاشجار الكبيرة من أن تنمو فيه بدون أن ترى نفسها فى أرض غريبة . وكنت ترى هناك ينابيع ماء وشلالات متنوعة تروى تلك الأشجار المثمرة على تباين أشكالها كما أن هناك سراديب مظلمة لذيذة الموقع فى أيام القيظ الشديدة الحر

وقد كانت بابل حاضرة تلك الديار الغنية قلبها الحى ومركز حركتها فى أمر التدبير والسياسة والغنى . ولا جرم انها كانت كذلك حتى لما كانت خاضعة لغيرها فى أمر سياستها . فقط كانت محط رحال الاقوام ومتصل تجاراتهم ومجتمع قوافلهم اذ كانت تزدحم فيها بياعات أهل الشمال و بلاد العرب والهند وبحر الروم وسكان الغرب . وفيها ملتقى أناس من عناصر شتى ولغات مختلفة وألوان متغايرة وفيها كانوا يختلطون بعضهم ببعض فهى بابل بالحقيقة . وفى محلة من أحياء الحاضرة التى كان يخرقها من جهة الى جهة «الطريق السلطانى» كانت الشركات التجارية ومخازنها الواسعة منتسقة على طول ترعة «بيكودو» ومما يجدر ذكره أن فى ايدى طلبة الآداب المسمارية الخط فى ديار الافرنج نحو أربعة آلاف صفيحة من الآجر أو أكثر يطالعونها وهى عبارة عن دفاتر المحل التجارى الكبير لأصحابه «اجى وأولاده» فقد كانوا يتعاطون بيع غلات

بابل والنخاسة «تجارة الرقيق» ويمكننا أن نتحقق منها معاطيات تجارتهم وسعتها وثروتهم الضخمة منذ أيام بنوكد نصر الى نحو مائة سنة بعدها

ولم يكد بنوكد نصر يموت الا ومات معه هذا الملك العريض ففى مدة سبع سنوات (٥٦٢ — ٥٥٥ ق م) توالى على أريكة الامارة ثلاثة ملوك واضمحلوا فى فتن وقعت فى القصر فانقرضت تلك الأسرة وزالت كل الزوال كأنها لم تكن . وأول من توج بعد اضمحلال آل بنوكد نصر كان (بنو ناهد) وكان رجلا تقيا كثير الولع بالابنية الا أن شعبه لم يحبه وأراد أن يدفع عنه غائلة الفرس بانضمامه الى اللاوذيين والمصريين فلم ينجح اذ سقطت لوذيه (سنة ٥٤٦) ولم ينتفع من سنى سكون كورش ليحصن مملكته فلما كان الهجوم (سنة ٥٣٨) كسر شر كسره وقبض عليه ومات بعد أيام قليلة ومنذ ذاك الحين أصبحت كلدية أو دار الكلدان من توابع مملكة الفرس

والفرس جيل من الناس احتل البلاد الواقعة فى شرقى عيلام منذ أول انهيال الأقوام الآرية وهبوطهم من مواطنهم فكانت تمتد ربوعهم من مصب نهر تاب فى الغرب الى أنحاء مضيق هرمزد وهى قفار وماؤها لا يكفى لسقيها على طول الساحل . وفيها أنهر صغار لا غير مثل التاب والبندمير والكراب وكلها تدفع فى البحر . أما مابقى من سائر الانهار فلا مجرى لها بل تجتمع فى بطون الأودية فينشأ منها بحيرات يختلف امتدادها باختلاف الفصول . وكانت القبائل الفارسية قد اقتسمت تلك الارجاء وكورتها كورا منها : البارتكينة (وهى اليوم جزء من عراق العجم) والمرديانة وكلتاهما فى الجبال والتكينة وهى على طول الساحل والكرمانية نحو الغرب . وابتنوا لهم فيها بعض القرى الضخمة أشهرها اصطخر (فرسيبوليس) و بسا (فسر كاد أو معسكر الفرس) وكانوا يدينون لملوك من صلب رجل اسمه هاخمنيش كان زعيمهم فى إبان هبوطهم البلاد . ثم انتزع واحد من فرع هذا البيت كورة أنشأت من العيلاميين الذين كان أفناهم أشور بنيبل وأسس فيها امارة دبر أمورها

نسبا وكورش الاول وقنبوسيا الاول (قمباسوس) وأقروا بسيادة الماذيين عليهم مايقرب من قرن

ثم جاء كورش الثانى وهو ابن قنبوسيا ويعتبر من كبار الفاتحين الذين فتحوا الفتوحات الواسعة وفرشوا على الأرض بساط ملكهم الضخم. وحالما انتصب كورش على أريكة مملكة ماذى وتوج ملكا على الماذيين والفرس والعيلاميين أصبح مالكا لدولة أوسع من كل دولة سبقتها من جهة الوحدة والارتباط والرجوع الى الرأس الواحد . وأرصد بقية حياته ليزيد فى بسط ملكه . أما تتويجه ملكا على الماذيين والفرس فكان فى اكبتانة فى سنة ٥٥٠ ق م على الأرجح وأما سائر الدول فلما رأت أن ظل السطوة الايرانية فى امتداد دائم وأنه أوشك على أن يمتد الى ديارهم أوجست فى نفسها خيفة فتحالفت عليها والمتحالفات هى لوذية ومصر وبابل . بيد أن هذا الملك العظيم استحوذ على سرديس فأزال بذلك مملكة لوذية وظل سائرا فى وجهه ممعنا فى جوف آسية الصغرى متجها الى السواحل اليونانية على خط مستقيم . وبعد ذلك حول كورش نظره الى الشرق ومن سنة ٥٤٥ الى ٥٣٩ ق م كان يحارب ويفتح المدن فى الارض التى نسميها اليوم ولايات بخارى ومرود وفيما وراء بحر قزوين وفى أفغانستان وبلوجستان . ولما كان أهالى تلك الديار يتصلون نسبا بالاقوام الايرانية لم يخف كورش من انتقاضهم عليه فزحف على بابل وكان القابض يومئذ على أعنة الملك بنو ناهد وهو وان لم يكن من آل بنوكدنصر فى الظاهر الا أنه توفق رعاية الملك فقبض عليه كورش وأسره وصير أرض شنعار ولاية فارسية (سنة ٥٣٧ ق م) وأما مصر فقد ترك فتحها لابنه قنبوسيا اذ عقد نيته على تدويخ قلب آسية لكنه مات فى معركة خاض غمارها فى موطن قريب من احدى ضفتى سرداريا (سنة ٥٢٩ ق م)

وأتم ابنه قنبوسيا فى مدة ملكه القصير (من سنة ٥٢٩ - ٥٢١ ق م) فتح مصر ثم اتفق بأن الموبذات الماذيين أعانوا برديا أحد النصابين فاغتصب

الملك مدة وجيزة ثم انتقل الصولجان الى يد فروع أخرمن فروع الكيانيين وهو دارا (الذى يسميه بعضهم داريوس) بن يشتشب سنة (٥٢١ — ٤٨٥ ق م)

ودارا هذا من أعظم ملوك الفرس فاذا كان كورش منشئ الدولة الفارسية فدارا منظمها ومرتبها . ولقد كابد الامرين فى عدة سنوات ليقمع جماح الفتن القومية ويردع الشيوخ أو الامراء الايرانيين عن مطامح أبصارهم الى امتداد ذلك الملك الضخم الذى دخل فى حوزة ملك الملوك . فهيئة الادارة الملكية وتقسيم أراضى الدولة الى مرزبانات وتوزيع الضرائب هى كلها من أعمال دارا . وقد حاول أن يوسع ملكه فى احدى الجهات ويمعن فى أرضها فعبر البصفور ووطئ أوربة وأجبر مكدونية على أداء الجزية . ثم أوغلت جيوشه فى جهة الشمال خلال البلاد التى نسميها اليوم بلغارية ورومانية ثم خلال الطونة (الدنوب) فى سهول جنوبى روسية . لكنه أخفق فى زحفته فاضطرت الجيوش الفارسية الى العودة نحو الجنوب متكبدة خسائر الا أن دارا بقى قابضا على تراقية ومكدونية

فيتضح لك مما تقدم بسطه انه لم يكن يوجد فى ذلك العهد فى الأرض الا مملكة واحدة فى طرفها الواحد جبال البلقان وفى الطرف الآخر ضفاف نهر السند وفى أقصاها الواحد شلالات النيل وفى أقصاها الآخر سرداريا فاجتماع عدة ممالك بهذه الصورة لم يحلم به أحد فى القرون الماضية بأن يكون فى قبضة رجل واحد . ومن خاصيات هذه السيادة العظمى أن الشعوب التى كانت تطاطئ رأسها لصولجان هذا العاهل الكبير كانت آمنة على نفسها عائشة عيشتها الغريرة ومدبرة شؤونها بنفسها طالما كانت تعمل بأمره أى طالما كانت تؤدى الجزية وحصة الرجال اللازمة لجيوشه . فالحق يقال ان جمع القوى فى قلب المملكة الحديثة النشوء فى مثل تلك الأيام التى كانت تصعب فيها المواصلات اذ كانت فى بدء أمرها هو من الأمور العجيبة . ومما زاد ارتباط أجزاء مملكته بعضها ببعض انه أقام نوعا من السعاة والرسل على طول الطرق

الرئيسة فى مملكته ليضم الاطراف النائية منها الى قلبها فتجرى مجارى الحياة فى عروق هذا الجسم العظيم . والديار التى هى مثل آسية الصغرى كان قد أودع جزءا منها الى عناية حكامها الوطنيين التى فيها . والجزء الآخر الى الحكام الايرانيين الذين كان لهم قصور خاصة بهم فى الديار المذكورة وكان بيدهم الربط والحل بقدر ما يحتمله المقام الخاص بهم . وكانوا كأنهم ملوك صغار فى تلك الربوع . وكان المبدأ المألوف فى الادارة الفارسية أن لا يتدخل كبارها القابضون على زمام الأمر فى شؤون داخل الأقوام التى أخضعت لحكمهم وكان الملك راضيا عنهم طالما يحكمون باسمه حكما عادلا ويبقون مخلصين لعرشه . فالمدن اليونانية الواقعة على سواحل آسية الصغرى كانت مثلا تحت حكم ملوك يونان وقد وافق على تعيينهم الملك الفارسى . فاذا عدلوا عن محجة العدل والاخلاص أبدلهم حالا بغيرهم

ونرى مثالا آخر من نوع هذه الادارة الكثيرة التسامح ما حدث فى اليهودية فان بابل لما انتقلت الى يد كورش سمح هذا الملك لجميع الاسرى اليهود ان يعودوا الى أوطانهم اذا أحبوا وأن يبنوا لهم هيكلا جديدا ليهوه آلهتهم . فعمل بهذا الاذن جماعة منهم وشادوا الهيكل على مكانه القديم وأخذوا يكثرون وينمون حتى نشأت حوله مدينة يهودية جديدة وكان لها شيوخ خاصة بها يديرون شؤونها . ولما أنفذ الملك حاكما أو عاملا باسمه فى اليهودية انتقاه بين يهود بابل وهو نحميا

على أن الادارة مهما كانت حسنة فى حد نفسها الا أن الأمم التى كانت غريبة العنصر كانت ترى الخضوع للملك الأجنبى والانقياد لأوامره من أصعب المصاعب فكانت تحاول أن تتحرر من هذه الربقة ولا سيما لأن أمراء الملك كانوا يضربون عليهم ضرائب مختلفة من نقد أو عين أو رجال فكانوا اذا رأوا أنه يترح بأولادهم يشق عليهم الأمر أعظم المشقة اذ أكثرهم كانوا يموتون فى الحرب أو لا يعودون الى أوطانهم لعلة من العلل والأهالى الذين كانوا يبقون

فى بلادهم كانوا مكرهين على أن يحووا عندهم حامية الملك وهو أمر لا يخلو من الأضرار الأدبية والمادية

واذا انتقلنا الى وادى الفراتين نرى أن جانبا عظيما من أصحاب المعيشة القديمة كانوا باقين عليها بدون أدنى تغيير وكان أصحاب العناية منهم يدونون أشغال تجارتهم وشؤونهم الشرعية حفرا على صفائح الفخار متخذين لها القلم القديم المسمارى

وكانت معامل الأقمشة البابلية تعنى بأمورها فيشتغل فيها مئات من الأيدى وترى الهيا كل غاصة بالسدنة . والظاهر من بعض الدلائل أن هيا كل بابل انحطت بعض الانحطاط فى عهد الكيانيين . وذلك أما لان الملك كان على دين يخالف دين البابليين فكان هؤلاء يخافون أن يضع يده يوما على كنوز الآلهة وأما لان الكهنة كانوا يفكرون بعض الأحيان فى ما يعود الى أنفسهم من الأرباح أكثر مما كانوا يفكرون فى امر الآلهة . وأما الديانة نفسها فانها بقيت سائرة فى وجهها بدون أن يحل بها تغيير والدائنون بها كانوا يحافظون على معتقدهم بخصوص حكايات الآلهة الملفقة وشعائر السحر والتنجيم متناقلين كل ذلك خلفا عن سلف . وكانت بابل أيضا مركزا عظيما للتجارة فكأنها قرية نمل ونملها البشر ويتعذر وجود مثلهم فى القدر والعنصر فى غير هذا الموطن

وما عدا أن بابل كانت مملوءة تجارة وصناعة وديانة وأنسا وملذات فانها كانت أيضا نوعا ما قلب العالم . وكيف لا تكون كذلك وأرضها غريلية غنية هذا الغنى حافلة بالسكان واقعة فى بؤرة البلاد المعروفة يومئذ! أفيهون فقدان امتيازها لمجرد انتقال صولجان الملك الى أمة غير أمتها ؟ فكانت بابل المدينة حاضرة الدولة الفارسية شتاء وكان قصر الملك فيها قصر بختنصر نفسه الذى كان بجانب الجنان المعلقة وكان يقضى فيه ملك فرس أشهر الشتاء وأما اذا أقبل الربيع بمحاسنه فان الملك كان يظعن مع حشمه الى شوشن حاضرة عيلام العتيقة ثم يمعن مصعدا فى الجبال الايرانية اذا ما اشتدت حمارة القيظ فينزل

اصطخر فى اقليم فارس أو يتزل البتانة حاضرة بلاد ماذى فى قصرها الفاخر البديع قصر الأرز المنيع

الهلين أو اليونان . اسكندر الكبير أو اسكندر ذو القرنين

السلوقيون . فى الهلين أو اليونان

فى الطرف الأقصى من غربى الدولة الفارسية الضخمة . احتك الفرس باليوانة المعروفين عند العرب باليونان وعند الافرنج بالهلين . وهذا الاحتكاك كان يسبب قلقا دائما لكل من الطرفين ولا سيما لأصحاب تلك المدن الآسوية التى كانت كل منها دولة قائمة بنفسها تريد الاستقلال والتمتع بحريتها وأن لا يكون على سكانها رئيس يراقب أعمالهم ويسيطر عليهم سوى آلهتهم وشرائعهم وكان فى الجانب الآخر من بحر ايجى اناس آخرون من عنصرهم يطوون بساط أيامهم فى البلقان وهى دار أصل قوميتهم وهى «الهلاس» أى بلاد الهلين ان أطلق هذا اللفظ . وكان اليونان الذين فى آسية يشتدون همة و يزدادون رغبة فى العصيان كلما وردهم عون أو أيد من احدى تلك المدن أو من عدة مدن من المدن الواقعة وراء البحر . وقد كان تمالؤ هؤلاء أولاد الاعمام منذ البدء . ولهذا كنت ترى الايرانيين الفاتحين واليوانة الجمهوريين فى قراع ونزاع دائمين . وبعد ان فتح كورش لوذيتها وليدية ونصف العالم المعروف كان يومئذ عند قدميه جاءه ذات يوم وهو فى سردس وفد قادما من مدينة صغيرة من مدن يوانة واقعة فى غربى ايجى اسمها (اسپرطه) فلما مثل بين يديه قال له : «لا تضع يدك على مدينة من المدن اليونانية لان الاسپرطين يستنكفون من ذلك» فلما وقف كورش على قوة موفديهم لم يخشهم لكنه عزم هو وابنه خشايرشا أن يستأصلا شأفة هذا الداء حسما للقلق وقمعا لجماح أولئك المتغطرسين ليسحقاهم فى عقر دراهم . فجيش دارا جيشا عليهم لكنه لم يصل لان الاثنين قاموا عليه (سنة ٤٩٠ ق . م .) واضطروه الى العود الى السفن التى نقلته حينما نزلوا على سواحل أتيكة . فنهض ابنه خشايرشا وسار

فى جيوش رجراجة على طريق تراقية ومكدونية فلما وصل پلاتيا نكب فيها نكبة عظيمة (سنة ٤٧٩ ق م) لم ينسها الفرس اذ وطنوا أنفسهم على القعود مدة جيل أو جيلين لينسوا أوتينا سوأ كسرة خشايرشا . فلما رأى هذا الأمر اليونان أخذت مدنهم تنسلخ عن الفرس الواحدة بعد الأخرى ومدينة آثينة تمالئهم على عملهم عملا بمعاهدة بحرية عقدت عراه معهم . وبعد ان فكر الفرس فى حيلة يحتالونها على أعدائهم وجدوا وسيلة موقتة يفككون بها ما تحكم من عرى ذلك التحالف وتلك الوسيلة هى القاء بذار الفتن والتباغض والتشاحن بين المدن اليونانية واثارة الواحدة على الأخرى ! فنجحوا بفضل ما صرفوه من الأبيض الفتان والأصفر الرنان وهى طريقة عرفت فى الشرق منذ القديم ولا تزال جارية فيه الى يومنا . وتمكن ملوك الفرس فى آخر الأمر من اخضاع يونان آسية لصولجانهم مرة أخرى وا كراههم على أداء الجزية وايواء الحامية فى مدنهم ولو كانت تلك الثغور يومئذ فى مأمن من كل هجوم أو غارة . وكان اذا عرض لقواد الجيوش اليونانية أو لمرازبة الفرس العصاة حدث خروج على الحكومة الفارسية فى غربى مملكتهم فانهم كانوا يجدون دائما بين اليونان أجراء يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم ولضيق المقام لا نورد هنا الا شاهدا واحدا اثباتا لما نقول وذلك ان أخ أرتحششتا الثانى تربع على أريكة المملكة بواسطة جيش من الأجراء اليونان حتى بلغ به الى الفرات فى موضع يسامت بغداد (سنة ٣٩٩ ق م) والحق يقال كان اليوانة جذوة نار دائمة وجرثومة اضطراب وفتن فى تخوم الدولة من جهتها الغربية وكانوا أشد بلاء من الأقوام الطوارئ التى نزحت من قلب آسية فسببت تلك القلاقل والزعازع فى تخومها الشرقية . بل كانوا أسوأ مغبة من الاقوام العتاة الطغاة أقوام الهضاب مثل الكشيين الذى كان يدفع اليهم الجزية الملك الأكبر نفسه لما كان يذهب الى بابل واصطخر مارا بديارهم الجبلية

ومن الغريب ان هذه الدول الهلنية التى أقلقت كل الاقلاق وقتئذ بابل وشوشن وأضرت بالمجتمع البشرى لما كانت تسببه من الفتن والاحن صارت

بعد حين أعظم أمة نفعت أبناء آدم اللهم اذا استثنينا شرذمة الهود التى خرج منها نور العالم والا فان أولئك اليونان كانوا قد ولجوا مقاما جديدا من الافكار فى تلك المدن اليونانية مقاما نسميه اليوم : «تمدن الغرب» مع سيادته العظمى على الطبيعة المادية التى هى من نتيجته وأخذوا يحررون أفكارهم مما كان ينقل عن السلف من العوائد والعقائد تحريرا لم يسبقهم اليه سابق وكانوا يمحصون كل شئ بعد ان يعرضو على نار العقل ونوره ليعرفوا زائفه من خالصه وممن اشتهر منهم وبرز فى هذا الميدان طالس الفيلسوف أو ثالس من مليطس بالقرب من افسس على الساحل الآسوى فانه بعد أن زار ديار مصر وقسما من من آسية واقتبس كثيرا من علوم ومعارف تلك الارجاء أصبح اب العلم عند اليونان قيل وكانت ولادته سنة ٦٣٦ ق م وقيل ٦٤٠ ولا يعرف من أمره شئ على التحقيق الا أنه يعتبر منشئ الفلسفة اليونانية وأباها وله معارف جليلة فى الرياضيات والفلكيات وهو أول من علم الهندسة فى ديار اليونان وينسب اليه عدة نظريات فى هذا العلم ويقال انه هو أول من قاس سمكة الاهرام المصرية بالمقابلة بين ظلها فى الهاجرة وظل جسم آخر طبقا للسادسة من قضايا اقليدس وقد حاول أن يؤول تأويلا طبيعيا أصل العالم مخالفا فى ذلك ما اتصل اليه من تواتر الخلف عن السلف ناظرا اليه نظره الى حدث خرافة وذهب الى أن كل شئ صنع من الماء المتخثر قليلا أو كثيرا. لا جرم أن هذا التأويل تأويل أعمى لكنه كان منبثق العلم الحديث. وكان اليونان قد بدأوا أيضا فى البحث عن أمر الخير والشر الواقع بين البشر ليعرفوا سير الدول وتنظيمها وفى كل مباحثهم لايلقون الكلام على عواهنه كما فى السابق زعما أن «هذا ما نقل الينا عن آبائنا» بل رفعوا المسئلة الى قولهم « ما أحسن وجه يوجه اليه هذا الامر فى نظر العقل» فالجرى على هذا المحنى من تدبر الحقائق دفع القوم الى رقى دائم ومنذ ذاك الحين بدأ اليونان ينظرون الى الطبيعة بعين البصيرة لا بعين البصر وجدّوا فى أن يمثلوا الأشياء بصورتها الحقيقية ولا سيما هيئة الانسان بجرهم هذا الجد الى اتقان الصناعة أى اتقان حتى بلغوا فيها مبلغا

لم يصل اليه قبلهم أحد ان كان من جهة ادراك الحقيقة المنشودة وان كان من جهة شعورهم بمحاسن الجمال . فلقد أبرز اليونان فى أيام الدولة الفارسية من مآثر الآداب اللغوية العظمى ما جعله أساسا للآداب اللغوية الحالية لاسيما فى أوربة ولقد وجد نتائج عقلهم هذا معدنا فى مزاجهم الأدبى الخاص بهم ولا سيما فى مزاج أبناء الدول اليونانية ما لا غاية وراءه وكان اليونان شديدى الوطنية الضيقة الفكر كثيرى التعصب لعنصرهم حتى كانوا يكرهون كل الكراهية من يقول بأنها دويلة لا دولة وكانوا ينفثون فى صدور أبنائهم أنهم أناس أحرار وأن مقامهم فوق مقام الآسويين لأنهم كانوا يرون كأنهم خلقوا للذل والرق اذ كثيرا ماكانوا يشاهدونهم يخرون سجدا لرؤسائهم البشر ويتضاءلون بين أيديهم أمر ما كان تستنكف منه اليونان وما كانوا يريدون أن يقوموا به الا أمام صور معبوداتهم (١)

فاخلاقيات اليونان وعقلياتهم الجديدة وصناعياتهم وأدبياتهم هى ما يطلق عليها اسم «الهلنية أو الخصائص اليونانية» نسبة شاذة الى بلاد هلاس التى هى بلادهم الاصلية على ما ألمعنا اليه قبل هذا كما قالت العرب رازى فى النسبة الى رى . ويجوز لنا أن نقول : ان فى اليوم الذى مثل رسول اسپرطة بين يدى كورش فى سردس بدأت منازعة عظيمة بين هلاس وايران فى أيهما يملك غربى آسية الصغرى ودامت هذه المنازعة بين القومين أكثر من ألف سنة كان فيها الظفر للهلنية

---

(١) ان وهم اليونان هذا مبنى على مشاهدتهم تكفر الفرس لملوكهم والتكفير هو أن يخضع العلج للملك بأن يضع يده على صدره ويطأطئ رأسه ويتطامن تعظيما له ولم يعن فى بلاد الفرس أن يعبدوا ملوكهم كما لم يخطر فى فكر ملوكهم أن تعبدهم رعاياهم وانما اليونان المنحطون عن منزلتهم هم الذين أدخلوا فى آسية اليونانية أعمال تأليه الملوك

ولا جرم أن الفرس عرفوا ما لحضارة اليوانة من المنزلة والرفعة ولو بعض المعرفة يشهد على ذلك انهم كانوا قد أبقوا عندهم فى قصور ملوكهم بعض أطباء يونان لما شاهدوا فيهم من الكفاءة وسعة الاطلاع وكان أغلب الايرانيين احتكاكا باليوانة الأشراف منهم الذين كان لهم ماشية فى آسية الصغرى والذين ربطتهم بهم منفعتهم فى المعاملات اليومية أو فى الأفكار الجديدة التى أدخلها هؤلاء الناس المتنورون لكن لم يفكر الايرانيون قط بأن اليونان يكونون يوما دولة تمكنهم من السيادة فى آسية لانهم كانوا معروفين بحب الفتن والقلاقل والتخاذل والتنازع وشق العصا أما فى بلاد اليونان نفسها (أى اغريقية) فكان قد انتشر فى النصف الأول من القرن الرابع ان تخاذل اليونان هو الحائل المكين دون سيادتهم وهى وحدها تمكنهم من القبض على أعنة العالم . ولذلك قامت فيهم دعوة الى بث توحيد الكلمة ولم شعث الأمة كلها فكانت حقيقة دعوة الى الجامعة الهلنية تضافروا فيها وتعاونوا ليحملوا حملة واحدة على الايرانيين . وقد عرض إيسقراطس الهجاء ان يكون على رأس هـذه العصابة ملك مكدونية التى كان أهاليها مرتبطين باليونان نسبا وكان رؤساؤها المدبرون لشؤونها قد انحازوا الى الهلنية فى قسمها الاعظم

اسكندر ذو القرنين أو اسكندر الكبير

تحقق بين سنة ٣٣٣ و ٣٢٣ ق م أكثر مما كان يتصوره ايسقراطس وذلك فى شخص اسكندر المشهور بالكبير عند الغربيين وباسكندر ذو القرنين عند العرب . ولد هـذا القائد العظيم سنة ٣٥٦ ق م فى پلا وهو ابن فيلبس واولمپياس وتخرج على ارسطو الحكيم الشهير . وكان مغرما بهوميرس وأشعاره منذ نعومة أظفاره واحتـذى مثال آخلس فنبغ فى الرياضة البدنيـة كما نبغ فى البدائع الفكرية . وهو وحده فقط تمكن من كبح جماح حصان والده «بوقيفال» ولم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى تولى امارة المملكة فى غيبة والده وكان قد ذهب ليحاصر بوزنطية ونجى والده فى معركة مع الترِيلة وأنهى حرب خيرونية بنصر فاز به وأفنى طابور الطيويين المقـدس (٣٣٨) وتسنم

العرش وعمره ٢٠ سنة (٣٣٦) وفتح تراقية وإليرية وأخضع لأمره اغريقية التى طمعت فى غض إهابه فظنت أنها تتملص من وهق فيلبس الذى طرحه فى عنقها . وكانت أثينة وطيوة فى رأس هذه الحركة فدمر طيوة ولم يحترم منها الا منزل « فنذار » لكنه لم يتعرض لاثينة لانها طاطأت رأسها له (٣٣٥) ثم بعد ذلك شهر الحرب على الفرس حالا فعين قائدا عاما لاغريقية كلها فشخص من پلا فى سنة ٣٣٤ على رأس ٣٠,٠٠٠ من المشاة و ٥,٠٠٠ من الفرسان وبعد أن عبر الهلسپنطس (أى مضيق الدردنيل او بوغاز چناق قلعه) فل جيش دارا ملك الفرس على ضفتى الغرانيق (وهو اليوم قوجه چاى) ٣٣٤ ودوخ آسية الصغرى كلها (الأناضول) بسرعة خاطفة مع مابذل ممنون الرودسى من الهمة الشماء لمقاومته . وقطع بسيفه الجزار فى غرديوم (من أعمال فريجية) العقدة الغردية (١) فكان ذلك خير فال لتملكه على آسية . واضطر ان يرتث فى طرسوس لاستحمامه فى قدنس وجسمه يرشح عرقا فأصابه داء كاد يهلكه الا ان طبيبه الحاذق فيلبس عالجه فشفاه وقهر دارا مرة ثانية فى إسس (آياس) فى قليقية (٣٣٣) وفى هـذه المعركة قبض الاسكندر على أسرة دارا كلها لكنه اطلق سراحها حالا وعاملها معاملة كريمة . وعقب هـذا الظفر اخضاع صيدون (صيدا) فاثبت على عرشها عبد الأنيم ثم اخضاع صور التى لم يفتحها الا بعد ان حاصرها

---

(١) العـقدة الغردية تنسب الى حارث فريجى توج ملكا لانه حقق وحى المعبود الذى وعد صولجان الملك لأول من يدخل هيكل المشترى فى غرديوم فوقف ابنه ميداس المركبة التى كانت له سبب هـذا الفوز . وقد أتقن هـذا الرجل عقد النير بالوبج (أو سهم المركبة) أى اتقان حتى انه كان يخفى طرفاها على الناظر . وقد أخبر اللسـان القديم أن من يحل هذه العقدة يملك على آسية فجـاء الاسكندر وعالج حلها فلم يوفق لما حاول فقطعها بسيفه وعلى هذا الوجه أزال هذه المشكلة وقد يشير الكتاب الى هذا الحادث بقولهم « قطع العـقدة الغردية» بمعنى حل المشكلة بسرعة خاطفة

سبعة اشهر وتدويخ غزة بعد أن دافع عنها دفاع الابطال قائدها بتيس . وفى الآخر افتتح ديار مصر فبنى فيها الاسكندرية ثم أمعن فى ليبية لزيارة هيكل أمون (المشترى) (٣٣١) فلقبه السادن بابن ذلك المعبود . ولما قفل راجعا من ديار مصر انتصر على دارا فى اربل (من ديار أشوريه) النصر الاخير اذ عقبه موت دارا فغدا الاسكندر سيد ديار فارس كلها ودخل بابل بأبهة لا تضاهى واستحوذ على السوس واصطخر فأحرق قصرها فى وليمة أفرط فيها كل الافراط ثم أخذ يتعقب قاتل دارا وهو بسس المرزبان وافتتح برثية وصغديانة (الصغد) ودر بخيانة (سجستان وبعض قندهار) وبقطريانة (بلخ) . وفى ذاك الوقت لوث يده مضرجا اياه بدم كليتس وبغض نفسه بتعذيب دمنس الغيلوتابى وكلستينس وقتل پرمنيون (٣٢٩ – ٣٢٨) ، ولم يكتف بتدويخ دولة الفرس بل غزا الاشكوذين (الاسكوثيين) ففلهم فلا فى جوار يكسرتس (نهر سرداريا) ثم شمر عن ساعده لفتح الهند (٣٢٧) فانقاد له تكسيل وفل عساكر فور الهندى على ضفة هيذاسب (نهر جيلوم فى الپنجاب) وعامله معاملة ملكية ثم أوغل فى سيره حتى بلغ هيفاس (نهر ستلج) ولما أبى جنده ان يتأثروه الى ما وراء هذا النهر عاد أدراجه الى بابل وهناك نشر بساط الزهو والبذخ والابهة الشرقية وتغلب عليه متنعما متلذذا فأطلق العنان لشهوات نفسه الامارة بالسوء فهلك سنة ٣٢٣ ويظن ان انتيبا ترسمه ثم نقل رفاته الى منفس ومنها الى الاسكندرية

هذا هو ملخص ترجمة أكبر قائد وجد على هذه الارض . والظاهر من آخر أعمال الاسكندر انه عقد النية على أن يجعل دولته العظيمة خليطا من الهلنية والايرانية لما رأى فى أبناء ايران من سمو الأفكار وعلو الهمة مما يعارض ما فى نفوس الهلين . وكان يبدى التفاتا خاصا الى أشراف الايرانيين وحاول ادماج العنصرين المتنافسين بواسطة الزواج . فتزوج هو أميرة من شرقى ايران (أفغانستان) اسمها روشنك (روكسانة) وفى بعض الحفلات المشهودة لبس ثيابا فارسية وكان مع ذلك يحافظ على مألوف عاداته من تقدير علم اليونان

وصناعتهم منشطا لها . وكيف لا يكون كذلك وهو تلميذ أرسطوطاليس وخريجه وتمسكا بما فطر عليه من حبه لبلاده أقام فى المواضع الخطرة من طرق المواصلات خلال أراضى المملكة نحو سبعين مدينة جديدة على الطرز الهلنى وجعل غالب أهاليها من المكدونيين واليونان . ولعله كان فى نيته أن يبقى بابل كرسيا لتلك المملكة الهائلة العظم لان موقع أرض الفراتين الغريلية تبدو مركزا طبيعيا لها . هذه كانت نيته حينما عاد من الهند فى سنة ٣٢٣ وكان يفكر فى فتوحات جديدة والتبسط فى طول الأرض وعرضها . وحفر أحواضا جديدة لتحسين شؤون سقى أراضى بابل الخصبة وتطهير دجلة لتسهيل سير السفن عليه ومما امتاز به الاسكندر عن سائر القواد الكبار أنه بذل سعيه فى تعمير المدن أو حفظها أكثر منه من تدميره لها ودفع الحضارة دفعة الى الامام لم يسبقه اليها سابق فانه ضم أمما بعضها الى بعض . أمما كانت سابقا متباغضة متشاحنة ونشر فى الشرق أفكار اليونان كما نشر فى الغرب آراء الشرق وصنائعه وفنونه ووسع نطاق الابحار فكان قد أمر بانشاء أسطول ضخم فى ثغور فنيقية فنقلت أوصال سفنه الى بابل وهناك ركبها ليسيرها فى البحار والأنهار وبينما هو غارق فى بحار هذه الافكار الكبرى والخطط الوسعى اختصر فى بابل قريبا من الفرات فى قصر بنوكدنصر المبنى بالآجر البديع الألوان الرائع الجمال

السلوقيون

لما أشفى الاسكندر على الموت أسند ظهره الى وسادة ومد يده ليلثمها جميع الجند جريا على العادة المتبعة يومئذ فدنا منه كبراء دولته وقالوا له : من تخلف على هذه المملكة الضخمة – قال : خليفتى عليكم أجدركم برعاية الملك والصراط المستقيم . وانى لأرى وقوع الشقاق والنفاق بينكم فحذار حذار منه ثم سأله أحدهم : ومتى نحصيك فى عداد من يعظم ويكرم ؟ فقال : لا أجل الا اذا سعدتم بعدى وانتظم شملكم أحسن انتظام فكانت هذه آخر أقواله ولما توفى كان عمره ٣٢ سنة و ٨ أشهر على أصح الآراء . واتفق عظماء الدولة

الدولة على تولية أخيه ارهيدس قبل أن يولد ابنه ثم ولدت روشند بعد ذلك ولدا ذكرا سمى اسكندر ايغوس فقتله كاسفدر مع أمه سنة ٣١١ واقتسم القواد المملكة فملك كل منهم فى القسم الذى وقع له وهذه هى دولة السلوقيين وهى عبارة عن ثلاث ممالك وهى مملكة مكدونية وثراقية . ومملكة بطليموس وتشمل مصر وفلسطين ومملكة سلوقس ثم أخذت هذه المملكة بالتنازل والانحطاط مدة ثلاثة قرون متتالية حتى اضمحلت

أما الهلنية فانها لم تفقد شيأ من مزاياها بل كسبت شيأ يذكر فى عهد السلوقيين الا أنها مع ذلك كانت تتضاءل اذ كانت تنسلخ عنها الكورة بعد الكورة لتنضم الى الايرانيين أو الى ملوك تلك الربوع . وفى الوقت عينه كانت تؤسس مدن جديدة فى اسية أو كان يعاد تشييد البلدان القديمة على طرز يونانى حدث وهو الأمر الذى شرع به الاسكندر فبقى سائرا فى وجهه فكان ذلك سببا لاستفحال الهلنية وفشوها بين الآسويين المبثوثين فى السلطنة السلوقية بل فى قصور ايران نفسها التى كانت تقوم مقام الدولة السلوقية فى مواطن عديدة إذا اختلطت فيها الهلنية قليلا أو كثيرا حسب مقتضيات الأحوال

ومما يؤسف لذكره ان سلوقس أخرب حاضرة بابل تلك المدينة العتيقة الشهيرة ، وان شئت التحقيق فقل نقل تلك الحاضرة الى موطن يبعد ٦٣ ميلا عنها وأركبها شق دجلة وهى التى سميت بعد ذلك « سلوقية على دجلة » التى أصبحت فى برهة قاعدة نصف دولة الشرق وهى التى سماها بعضهم سالبق تميزا لها من عدة مدن عرفت بسلوقية كانت هذه اكبرهن وأوسعهن . وهى أقرب الى جبال ايران من انطاكية الشامية اليها . ولا جرم ان سكان بابل الاقدمين ظعنوا الى الحاضرة الجديدة ولم يبق فى تلك الخربة الا جماعات من السدنة كانوا يحافظون على شعائر دينهم القديم فى مدينة تزداد خرابا يوما بعد يوم ويقومون بما يندب اليه الدين فى الهياكل الابراج التى كانت تخرج رؤوسها الدقيقة من بين سائر الابنية وقد حكم عليها القضاء بأن تنحط شيئا فشيئا فى دركات

الخمول والوحشة بينما كانت سلوقية تتيه عجبا بكونها مدينة يونانية حديثة الغضارة والنضارة ينشق منها نور ومدنية جديدة يتدفق متصببا على أنهار وجنات أرض شنعار القديمة . وهل يبلى اسم سلوقية وهى التى ولد فيها ونبع منها ديوجينس البابلى أحد أعاظم كتاب الرواقيين ورأس مدرستهم فى أثينة (١٥٦ق م) وكثير من البابليين تلقوا فيها علومهم وآدابهم اليونانيه ومن جملتهم بيروسس الكاهن البابلى الشهير الذى وضع تاريخ بلاده باليونانية واهداه الى انطيوخس الاول بن سلوقس . ومن مشاهير علمائها أيضا سلوقس الرياضى الفلكى وكان قد ذهب قبل كوبرنك الى أن الارض وسائر السيارات تدور حول الشمس ولعله كان بابلى المولد

ولو أخذنا طريق سلوقيه بمائتى سنة قبل المسيح شاخصين الى ماذى وفارس لعثرنا بالمدينة بعد المدينة وكانها نصفهم يونان ونصفهم وطنيون ولسانهم الرسمى اليونانى وأبنيتهم على الطرز اليونانى كما كنت تشاهد فى تلك المدن مدارس ومعاهد ومسارح لهو كلها يونانية . وبين الحواضر اليونانية البابلية الدار كانت يومئذ أرطميتة وهى مدينة كانت واقعة بين الزوراء وخانقين . ومنها نبغ المؤرخ ابلودورس

على ان الهلنية وان تقدمت تقدما ذا شأن بعد الاسكندر ممتدة فى البلاد طولا وعرضا الا انها فقدت من صفتها لان حياة هذه المدن اليونانية المبثوثة بثا فى أنحاء آسية كانت ولا شك فى ذلك ظلا ضئيلا لحياة أثينة فى عهد افلاطون وفى العهد اليونانى أصل النشأة المشهورة . هذا فضلا عن ان اللغة لاتجود الا فى ارض مصدرها ولاتربع الا فيها واما فى مستنبتها أو منتقلها فلاتكون فيها الا عائشة لا نامية .

انحلال الدولة السلوقية وظهور الدولة البرثية

الدول كافراد البشر لها زمن طفولية وزمن شباب وزمن كهولة وزمن هرم وانحلال . والدول ايضا كافراد من جهة طول العمر وقصره فمن الافراد من

يعيش قليلا ومنهم من يعيش طويلا حسب القوة المودعة فى ذلك الجسم .
وهذه الدولة السلوقية لم تعمر كثيرا فانها عاشت ثلاثة قرون ثم دبت فى جسمها عوامل الانحلال فافنتها . ففى الشرق اضطر سلوقس موسس سلوقية الى ان يسلم كور الاسكندر الهندية الى الملك الهندى شندرا غبتا الذى كان بنفسه مؤسس دولة جديدة فى الهند وكانت قاعدتها بطنة على نهر الكنج التى ابتنى فيها ملكها المذكور قصرا على طرز قصور ملوك فارس على ما اظهرته لنا الحفريات الاخيرة . وانفصل عنها أبعد الاقاليم عن ايران (مثل بلخ والصغد الواقعتين فى شمالى افغانستان وامارة بخارى الحالية) وذلك فى نحو سنة ٢٥٥ ق م فى عهد ملوك يونان أصلهم من هذه البلاد . وهذه الهلنية هلنية الشرق الأبعد بقيت فى وسط ملوك أجانب أو برابرة وان كانت قد قطعت عن الجسم الهلنى الاصلى مدة تنوف على مائتى سنة والآثار الباقية من هذه الهلنية هى انواط ونقود معاصرة للتاريخ المسيحى وكانت قد أبدت سيادة موقتة على أعظم قسم من شمالى الهند اكتسب فيه اليوانة شهرة فى آداب اللغة الهندية القديمة (السنسكريتية) لا بمنزلة محاربة لليونان عاربة « سيئة » وصبأ منندر الملك اليونانى الى الدين البوذى وتبوذ (ويذكر اسمه فى الاداب البوذية المقدسة محرفا بصورة ملندة) وفى سنة ٢٤٨ أغار على أقليم برثية (خراسان الحالية) قوم أقبلوا من الفيافى ويتصل نسبهم بالايرانيين وأسس قائدهم ارشك دولة مستقلة عرفت بدولة البرثين أو البرت (١) وأخذت تمو

---

(١) من غريب تواريخ العرب انك اذا تصفحت كتب مؤلفيها الاقدمين لا ترى فيها ذكرا للبرث أو البرثيين مع أن ذكرهم فى الأخبار عظيم جدا وما عسى أن يكون السبب لهذا الاهمال أو هذا النسيان سببه أن العرب فى تعريبهم للحرف الباء المنقط بثلاثة نقط من تحت نقلوه فاء او باء موحدة تحتية اما فى هذا اللفظ فعربوه فاء ثم انهم نقلوا الثاء المثلثة سينا تبعا للغة او لتغة لهم فصارت الكلمة برث « فرس » ثم تغافل قراؤهم وكتابهم عن ضبط الفاء بالفتح فقرأوها بالضم فصارت الفرس : الفرس نخلطهم العرب بهم أى بالفرس (بالضم) وعلى هذه الصورة اهملوا ذكر البرث او الفرس (بالفتح) وهو أمر مهم

مستمده قواها من امتصاص قوى الدولة السلوقية والدولة اليونانية البلخية وكان لهذه الدولة نوع من الزرادشتية (المجوسية) وهى تظهر لشعب ايران ممثلة للمسئلة القومية ومقاومة للاوربيين لكن الفرس لم ينظروا أبدا الى الارشكيين نظرهم الى ملوك فرس حقيقيين لما فى دمهم من البداوة وفى أخلاقهم من الفظاظة والعنجهية وقد ابتلعت الدولة الآرشكية فى برثية أولا جارتها هرقانية وهى الديار الكثيرة الغابات من منحدرات شمالى جبال البرز نحو بحر قزوين (وهى المعروفة اليوم بمازندران) وفى عهد ملكها مثريدات الأول (١٧٠ — ١٣٨ ق م) ظهر على أعظم القسم من شرقى ايران آخذا اياه من يونان بلخ (بقطرية) وفى عهد الملك المذكور خرج الحكم السلوقى من بلاد ماذى . وأما بلاد بابل فقد تنازعتها الايدى مرارا عديدة لكنها كانت للسلوقيين فى سنة ١٤٤ ق م الا انه يظهر انها انتقلت الى البرث قبل سنة ٤٠ وفى تلك السنة استرجعها ملك سلوقى وبعد سنتين وجد أن صاحبها ملك اسمه أرشك على ما وجد فى رقيم كتب بالخط المسمارى القديم ثم استرجعها للمرة الثانية آخر ملوك السلوقيين وهو الملك الصنديد انطيوخس سيديتس فى سنة ١٣٠ ، بل وتتبع البرث وطردهم من غربى ايران وهناك انكسر هذا الملك وقتل فى السنة التالية فعاد البرث الى بلاد بابل وانتقموا انتقاما عظيما من مدينة سلوقية التى كانت قد تحزبت للدولة المالكة اليونانية

ومنذ ذاك الحين الى أربعة قرون . ملك البرث ايران وبلاد بابل وأصبحت دولتهم أعظم دولة فى الشرق والارجاء التى كانوا قد افتتحوها كانت مغشاة بالمدن اليونانية على ما ألمعنا اليه . وبهذا المعنى عمرت الهلنية طويلا فى عهد الحكومة (البربرية) مدة أجيال فى الاقاليم التى فقدها اليونان . ونظن ان تجارة المملكة البرثية بقيت فى أيدى اليونان وأظهر الملوك البرث الاخيرون التفاتا

عظيما للعنصر اليونانى وكانوا يلقبون أنفسهم (محبى اليونان) تقربا من رعاياهم اليونان لكن هؤلاء كانوا يخرون دائما عليهم كل فاتح أوربى .

الرومان يتممون في الشرق

نفوذ اليونان أصحاب الشرائع والنظام

ما من دولة نشأت فى العالم واتسع ملكها الاوطمح بصرها الى أرض شنعار وكان لسان حالها يقول : « انك لاتسمين عظيمة وغنية ما لم تمدى يدك الى تلك الديار وتستظهرى على أهاليها » ولهذا رأينا جميع الدول القديمة تأتى الواحدة تلو الاخرى لتغزو هذه الارجاء وتقبض على أعنتها حتى تقوم أقوى منها فترغمها وتنزعها من يدها وتطردها عنها فتحل محلها . ولقد رأينا دولة البرث قد قويت شوكتها وامتد ظلها شيئا فشيئا على البلاد المجاورة لها حتى أخذت تهدد دولة الرومان التى كان قد استفحل شأنها وقتئذ فنشأ بين الدولتين نزاع وخصام وكل منهما تحاول قهر الاخرى والاستيلاء على ديارها ومحق سطوتها من عالم الوجود لتأمن على حياتها وتوطد دعائم ملكها على أسس رصينة محكمة .

بعد أن مضى على وفاة الاسكندر نحو ٢٥٠ سنة رأى الرومان ان العناصر غير اليونانية فى آسيا الصغرى ربحت ما كان قد بذل الاسكندر لتحسينه واصلاحه أو تشييده كل مافى وسعه مدة عشر سنوات فحاولوا ايقاف تقدمهم فأنفذوا قائدا محنكا فى جيش لهام اسمه لوقيوس لوقلس فنجح فى مهمته وأفنى جيش البنطس قرب كوزيكس على بحر مرمرة (٧٣) وفى السنة التالية أخذ لوقلس ديار البنطس نفسها وألجأ مثريدات على أن يهرب الى أرض تكران ملك الارمن وفى سنة ٦٩ هجم لوقلس على تكران زاحفا بجنوده على تكرانوكرت (وهى

التى سميت آمد بعد ذلك واليوم تعرف باسم ديار بكر) فانتصر فيها نصرا مبينا على الارمن مع انهم كانوا أكثر عددا من الرومان وبعد سنتين استرجع مثريدات بلاده البنطس وفى سنة ٦٦ قلد پنپيوس قيادة الجيوش الرومانية فى الشرق فطرد مثريدات مرة ثانية من أرضه فمات شريدا طريدا وكفر تكران لپنپيوس ووضع تاج مملكته الصغيرة بيد الرومان فأذنوا له أن يقبض على صولجان تلك الدويلة التى كانت يوما بيد أرتحشيا أحد أسلافه .

ولم يكتف پنپيوس بالفتح والغزو بل اراد أن ينظم البلاد التى استحوذ عليها لانه اذا تم النظام فى دولة سارت سيرا حثيثا فى التقدم والفلاح . وأول شئ عمله هذا القائد الكبير انه كوّر البلاد كورا رومانية واقام عليها عمالا رومانيين مثل كورة « آسية » التى قامت مقام المملكة الاتاليدية (١) سنة ١٣٣ ق م وقسم آخر كالبيثينية مع جزء من غربى البنطس جعل كورة رومانية على حد سورية . وتركت أصقاع أخرى لبعض الامراء هم عمال للرومان . فكانت رومة فى آسية وارثة للاسكندر ومناضلة عن الهلنية وباثة لدعوتها . ولقد عدت رومه فى آسية وفى أبعد أصقاعها عداد سلطة يونانية أو هلنية . ولم تفكر رومة أبدا بأن تلتن (٢) صقع الشرق نعم وقع مع الوقت تغيير فى التخوم وابدال فى الاقسام المختلفة ولكن التلتين (٢) لم يكن من فكر الرومان . وكانت ممالك

---

(١) دولة كانت قاعدتها « پرغامون » وكان الرومان قد حاموا أتال الدول أحد ملوكها كل المحاماة فسعى فى توسيع مملكته بأنقاض مملكة سوريا وكان أتال هذا محبا للعلوم والآداب وقد أنشأ فى پرغامون خزانة كتب شهيرة أبقت له ذكرا مخلدا

(٢) لتنه : صيره لاتينيا

الاقطار تتساقط شيئاً فشيئاً تحت سيطرة رومة رأساً كما فعلت ذلك غلاطيـة مثلا فى سـنة ٢٥ ق م واليهودية فى سنة ٦ ب م وكپدوكية فى سنة ١٧ ب م والكماجينه فى سـنة ٧٢ ب م وخلاصـة القول : ان الهلنية المدمجة فى رومية بقيت مالكة لآسية الواقعة فى غربى الفرات ومصر وبقيت الايرانيـة مالكة ملكاً ثابتاً لبلادها المسماة بايران وظلت هذه الحالة بدون أن تتغير تغيراً جوهرياً فى الطرفين المتقابلين الى أن حدث حادث قلب العالم ظهراً لبطن هو ظهور الدولة العربية التى سنتكلم عنها فى ما يأتى من كتابنا

الدولة الساسانيـة

فى سنة ٢٢٦ ب م نهض رجل من الهضاب الواقعة فى جنوب غربى ايران وهى الهضاب التى نشأت منها الدولة الكيانية أو أرض فارس الحقيقية يطالب بعرش كورش ودارا وكان اسمـه اردشير (١) من أسرة معروفة فى التاريخ باسم جده ساسان فأنشأ دولة ثالثة متحمسة فى الوطنية حكمت على نجد ايران وشوشن ولقب نفسه بملك الملوك وكانت الاسرة الارشكية مع أصلها البدوى وقبولها للاخلاق اليونانيـة قد انقرضت أو كادت لان فرعاً منها كان قد بقى حاكماً فى بلاد أرمنية ثم انقرض هو أيضا وقام مقامه بيت فارسى صحيح النسب وكانت الدولة الساسانية أصدق وطنية من الدولة الارشكية ولم يكن أمراؤها ملبين لسيادة القياصرة الرومانيين وكانت ذات غيرة لانها كانت تعتقد بالزرادشتية القيمة وقد أعيدت جدة هـذه الديانة على ما كانت عليه من المعتقد والشعائر

---

(١) صحف العرب هذا الاسم تصحيفاً كبيراً بصورة أزدشير بزاى بعد الهمز وهو خطأ . وادّعى قوم من الافرنج ان اردشير هو تصحيف ارتخشتا وهو بعيد عندنا ولا يمكن قبوله

بهمه أبناء هذا البيت واذا كانت مبادئ الهلنية قد غرسها الاسكندر المكدونى فى جميع المستعمرات الايرانيـة فى عهد الارشكية فانهـا أخذت بالانحلال والاضمحلال فى عهد الساسانيـة

وكان الملك الجـديد الاعظم الفارسى يطالب الى سلطة الغرب أن ترد الى ايران كل آسية . وفى سـنة ٢٣٠ ب م غزت عساكره الجزيرة وأوغلت فى سورية وكپدوكية حيث لم يدخل أحد من الفرس منذ غزوة الرثيين أى قبل ٢٧٠ سنة الا أن الرومان تمكنوا من دفع الفرس الى ما وراء التخوم وأخذوا الجزيرة ولما توبع سابور الملك الساسانى الثانى على سرير الملك طرد الرومان من الجزيرة وقبض على والريانس القيصر الرومانى نفسه وكان قد هبط البلاد المذكورة للتصيد (٢٦٠ ب م) وغزا قليقية وكپدوكية ثم استرجع الجزيرة باسم الرومان أذينة بن السميدع من آل حيران ملك تدمر العربى وزوج زنوبية وفل سابور على معربة من طيسفون وقلب عن السرير مختلسى الشرق الرومانى فى حمص وهما كوياتس وبلستس وأبقى الشرق الرومانى فى الخضوع فلقبه غليانس بلقب محترم (١) (اى أوغسطس) ثم خرجت الجزيرة بعد ذلك بقليل

---

(١) كلمة «محترم» العربية مشتقة من الاحترام والاحترام مشتق من الحرمة وهى ما لا يحل انتهاكه وما وجب القيام به من حقوق الله تعالى والحرمة بعبارة أخرى « الشئ المقدس » ومثل الحرمة الحرم ومنه اشتقاق المحترم من الشهور المقدس فالمحترم فى الأصـل من الألفاظ الخاصة بمتعلقات الدين وأصحابه فهو يقابل كل المقابلة كلمة أو سطس باللاتينية وسيبستس باليونانية لكن الكتاب اسـتعملوها فى العصو ر الوسـطى بمنزلة لقب من ألقاب العامة على ما قال القلقشندى فى صبح الأعشى (٦ : ٢٦) قال : «المحترم من ألقاب العامة ممن يلقب بالصدر الأجل فيقال : الصدر الاجل الكبير المحترم» ونحو ذلك

من أيدى الرومان ثم عاد الانبراطور كاروس فاسترجعها فى سنة ٢٨٣ ب م وفى سنة ٢٩٣ رجع الفرس فانتزعوها من أيديهم وهذه المرة لم يطردهم الرومان الى خارج فقط بل ابتنوا قلعة حصينة فى آمدا (اى ديار بكر) على دجلة قريبا من منبعه وبنوا قلعة أخرى فى الموضع الذى سمى بعد ذلك تكريت وهى كلمة مقطوعة من « كستلم تكريتس » أى قلعة دجلة الحصينة (١)

ولما رسخت قدم الرومان فى بلاد الشرق الادنى بفضل ما نشروا فيه من النظام والقلاع والحصون أصبح عصرهم من أزهى الاعصار فى تلك الديار . نعم ان السلوقيين أسسوا مدنا كثيرة يونانية فى دولتهم لكن الفتن والقلاقل كثرت فى زمانهم فلم يتمكنوا من نشر لواء المدنية الهلنية فيها فالايام المجيدة لتلك المدن اليونانية فى آسية الصغرى وسورية وشمالى الجزيرة كانت فى العهد الرومانى وبقايا المبانى العظيمة قد ترى الى هذا العصر فى كل موطن من مواطن جوف آسية الصغرى وسورية والجزيرة . وأسس الهياكل والعمد والمسارح والحمامات والميادين المدفونة تحت التلول أو الاطلال الشاخصة الجليلة الشأن كما فى بعلبك وتدمر وديار بكر وتكريت تنطق بعظم تلك الابنية

---

(١) ذهب العرب فى أصل لفظة تكريت مذاهب شتى وقد ذكر معظمها ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان وكذلك ذكر أول من أسسها وسبب تأسيسها له . وكل ذلك من الخرافات التى لاحقيقة لها ولا يعتمد على رواياتها . والصحيح ماأوردناه فليحفظ ولينبذ ماخالفه نبذ النواة . ثم ان اللغويين انقسموا فريقين فى اصالة التاء الأولى وزيادتها والرأى الصحيح الذى لاغبار عليه أن التاء أصلية لانها بدل من الدال ولان الكلمة أعجمية وحروف الالفاظ الدخلية كلها أصول كما هو معروف

وهم رزانتها وبنايتها وهى كلها راجعة الى العصر الرومانى وتشهد على ثروة اصحابها ورقى حياتها التى كانت تطوى فى تلك الارجاء . نعم ليس للآداب اليونانية اللغوية الى نشأت فى الشرق الرومانى الابتكار والفصاحة اللذان كانا لها فى القرون سبقت الميلاد لكنها كانت ثمرة أعمال جماعة مهذبة حافظت على ما اتصل اليها من تلك الآداب اليونانية ان لم نقل انها زادتها . وبين أسماء المشاهير من كتاب اليونان فى العصر الرومانى طائفة صالحة منهم منسوبة الى مدن آسية الصغرى وسورية من ذلك : ديون الذهبى الغم من بروسية (وهى بروصة الحالية) فى بثينية (سنة ٤٠ — ١١٥ ب م) ولقيان السموساطى (الشمشاطى) فى أعالى الفرات وهو كاتب صاحب مبتكرات قوى العارضة فى الآداب اللغوية اليونانية (١٢٠ — ١٨٠) وكان لقيان سورى المحتد ولم يتلق اليونانية الا بعد أن بلغ أشده

ولما تنصرت الدولة الرومانية اليونانية الأفكار بقيت ربوع الشرق تنقل ما يتيسر لها من ثمرات الحضارة الهلنية النصرانية فكتاب سورية والجزيرة وضعوا مؤلفاتهم بالسريانية فراجت الافكار الدخيلة فى سوق آدابهم أى رواج وتضلعت تلك اللغة من التعابير والمصطلحات اليونانية الأصل وازدادت ألفاظا جديدة اذ اضطرتهم الحاجة اليها فبلغت مبلغا لم تبلغه قبل ذلك العصر . وأما فى آسية الصغرى (الاناضول) فلقد نبغ فيها فئة من الآباء الكتاب برزوا فى تآليفهم اليونانية كل التبريز حتى ليخال القارئ أن اليونانية لغتهم الوطنية . وهم جماعة متسلسلة متصلة الحلق منهم الكبدوكيون الثلاثة وهم غريغورس النزينزى (٣٢٩ — ٣٨٩) وباسيليوس القيصرى (٣٢٩ — ٣٧٩) وغريغورس النيصى (٣٣١ — ٣٩٦) وأما آسية الصغرى الواقعة فى غربى الفرات فقد كانت فى ذلك الأوان قسما مهما من النصرانية . والتخوم التى كانت تفصل أوربة عن آسية (بالنظر الى الحضارة) لم تكن البصفور بل دجلة والفرات . واذا

شاهدت نصرانية أوربة ماحل اليوم بتلك الربوع من الخراب والدمار والتقهقر ترى أن جزءا من أجزائها فنى واضمحل

الصنائع والفنون والريازة

(فنّ البناء قبل الاسلام فى بابل وأشورية وديار اليونان والرومان)

الصنائع والفنون على اختلاف ضروبها وانواعها تجتمع كلها فى واحدة هى الريازة أى صناعة البناء بموجب قواعد وضوابط معلومة اذا راعاها البانى أقام مايشيده على أسس متينة وحفظه من السقوط أو التداعى الوشيك بقدر مراعاته لتلك الأصول المعينة على ابقائه أو تخليده . وأهم الصنائع والفنون التى تشترك فى الريازة أو تحسنها هى النحت والحفر والنقش والرسم والتصوير . هذه هى المهمة . ثم تتفرع فروعا مختلفة وتنتقل الى غير البناء فتتجلى بمظاهر متلونة وفى مواد شتى ففى الريازة تظهر أقوم العلوم وأضبطها كالرياضيات والحساب والهندسة وعلم المناظر وكذلك علم العقائد وعلم الأخلاق وسرّ تقدّم الحضارة بفروعهن . والريازة كسائر العلوم والفنون والصنائع نشأت جنينا فحبت فدبت فترعرعت فشبت فاشتدّت حتى اكتهلت

كانت المغاور والأكواخ أول سكنى البشر واتخذت المواطن العالية وفرج الغابات من أوائل معابدهم ووضع الطين طبقات أو نضدت الحجارة ركاما فكانت أوائل هياكلهم . وقولنا هذا لايدفعنا الى أن نستنتج أن الانسان الأول كان وحشيا أو همجيا بل ان التمدن المادى القليل النشوء قد يجتمع مع حالة عقلية وأدبية بعيدة الشأو . وما ابتدعته ضرائر الحياة وسذاجة الأذواق

رقاه شيئا فشيئا الامعان فى الحضارة والشعور بالجمال وتطلب دعة العيش والتأنق فيه فجاءت المبانى بعد ذلك أصح هندسة وأرضى للذوق وأدل على ان أصحابها كانوا ذوى دراية ودربة

فى بابل أو فى بلاد الكلدان

ناوأت كلدية أو ديار بابل بلاد مصر ونافستها فى عمرانها حتى انه ليصعب على الباحث أن يبت السبق لاحدى الأمتين فى مسألة الحضارة لأن كلا منهما أوجدت ركابها فى ميدانها وحاولت غلبة صاحبتها أو طمسها لتنال قصب السبق فاذا كلتاهما بلغت الغاية فى وقت واحد فكان لكل منهما فضل صاحبتها ومن اجتماع فضلهما نشأت الحضارة القديمة وكل مايتعلق بها

ليس لنا فى العراق من المبانى القديمة مايدلنا على ما بلغت اليه الريازة من الشأو والأوج لأن الأبنية التى شيدت انما شيدت بالآجر (بالطابوق) ويتطلب صنعه وقتا طائلا ونفقات باهظة وعناية عظيمة اذا أريد اتقان إحراقه أو شيه هذا فضلا عن أنه لايصبر على طوارئ الجوّ وتغلباته صبر الحجر عليها . ولهذا اذا عنى بان بتشييد أثر جليل أو قصر فخم ثم جاء بعده رجل آخر أراد تخليد اسمه عمد الى نقض بناء من تقدّمه وانتزع منه مايصلح لاقامة أثره ورفع بنيته . وبفعله هذا يميت ذكر من تقدّمه ويحيى اسمه فيستفيد فائدتين من عمل واحد . وقد حذا الواحد حذو الآخر الى يومنا وهذا مايبين لك قلة الأبنية الجليلة أو دثورها ويمنعك من أن تحكم على مابلغت اليه هذه الديار من الرقى بالنظر الى الآثار الباقية

ولولم يلجأ العلماء الى الأرض ويبحثوا فى دفائن أحشائها ما بقى فيها من البقايا ليستنطقوها عما كان على ظهرها فى سابق الزمان لما عرفنا منها اليوم

شيئا مذكورا . وقد اتضح للافرنج أن الأقدمين من البابليين والكلدان كانوا يتخذون نفس المواد التى يتخذها اليوم العراقيون فى مبانيهم أى الآجر (الطابوق) وفى بعض الأحيان اللبن (الطابوق غير المشوى) والجص والرماد والنورة والقار ولم يعرفوا الحجر والجيار كما عرفهما المصريون فصبرت مبانيهم على نوائب الزمن الى عهدنا

وأشهر المبانى التى اكتشفت آثارها فى العراق كانت فى أرك (الوركاء) ولارسا أو لرسم (سنكرة) وأريدو (أبو شهرين) وأود (المقير) ولجش أو سرپولا (تلو) فوجدوا فيها هياكل وقصورا بناها ملوك معاصرون للفراعنة الذين شادوا الاهرام المصرية . وهى كلها مبنية على أرهاص (قواعد من طين أو لبن يرفع عليها البناء) تسمك نحو عشرين مترا فتكون كالتل المصطنع حتى تدرأ الغرق عن البناء ويبلغ سطحها أو أعلاها بمرتقى سهل المصعد للعجلات والخيل وبسلم يكاد يكون محفورا فى الارهاص لصعود الناس اليها . وكان القصر نفسه عبارة عن كتلة مربعة أو مستطيلة ولم يكن لجدرانه الشامخة الجرداء فتحات سوى باب أو عدة ابواب فى كل وجه من أوجهه الأربعة . وكانت هذه الأوجه مزينة فى الغالب بتجاويف موشورية الشكل اراحة للناظر اليها . وفى داخل القصر أفنية متداخلة و يتيه فى جنباتها المتسعة بعض السعة . وهناك غرف وعلالى ثخينة الحيطان هى طويلة أكثرها عريضة تجمعها من فوق عقود حسنة العقد تشبه فى شكلها مهد الطفل وينيرها من أعلاها كوى ضيقة وفى احدى زوايا القصر يرتفع برج هرمى الشكل يعرف عندهم بالزقورة وهى من الأبنية الخاصة بالطرز الكلدانى . ولكل زقورة سبع طباق ولكل طبقة لون يختلف عن لون أختها وموقوفة على رب من أربابهم وهى : الشمس والقمر والسيارات الخمس . وشكل كل طبقة مكعب تام متناسق الوضع وكل طبقة ترتفع عن أختها متأخرة عنها ومنقضة وعلى أعلى الطبقة الأخيرة معبد يعبد فيه الله المحل

أما زخرف القصر فكان فى نهاية السذاجة فان حيطانه كانت مغشاة بطبقة من الستوق (١) أو من غلالة جصية كانت تخفى عن الابصار منظر الآجر ويطبعون عليها نقوشا هندسية أو تصاوير بشرية أو حيوانية . وكانوا يعتاضون غالبا عن هذه الغلالة السريعة التلف بازار يتخذ من الآجر الملون يصبر على الزمان اكثر من الغلالة الجصية وكانوا يجمعون بين الألوان جمعا تشبها شبا فضلا عن أنهم ينشئون منها زخارف تعجب العين وتشرح الصدر وتبسط النفس فقد وجد من هذا الآجر شئ كثير كان مطمورا فى الارض فأخرج فاذا ألوانه أزهى ماحر مايمكن أن تكون

وأما النحت عندهم فلقد وصلنا منهم أقل مما وصلنا من منحوتات المصريين وأغلب تماثيل الكلدانية التى اكتشفت الى الآن وجدت فى لجش (تلو) وهى محفوظة فى اللقر وهى منحوتة من المستماز (نوع من الحجر البركانى يعرف بالديوريت عند الافرنج) الأزرق أو الاسود مقطوعة الرؤوس قطعها الحفارون المسلمون عند استخراجها من بطن الارض لكى لاتعبد . وفى اللقر أيضا رؤوس مقطوعة عن أجسادها وجدها صاحب الحفريات الفرنسوى المسيو دسارزيك بعد أن أتلفت أجسادها وهذه الرؤوس

(١) الستوق كلمة عربية فارسية الأصل مركبة من « سه » أى ثلاث و « تو » أى قوة ومحصل معناها : المركب من ثلاث قوى أى ثلاث مواد وهى : الكلس او النور والجص والهلام أو بدله الشب ويراد بالستوق شئ يشبه الرخام اصناعى المعروف عند المصريين بالخفى وبياض المصيص وعند غيرهم بمعجون المرمر أو معجون الرخام . والكلمة الفارسية تشهد على أن العرب أخذوا صنعه من الفرس والكلمة الافرنجية Stuc (ستوك) تشهد على أن العرب علموا صنعه لاهل الغرب

ذات منظر ثقيل جهم عريضة الاذقان مربعتها قوية الوجنات ثخينة الشفاه ذات شبق واضح فطس الانوف نجل العيون وطف الحواجب مقرونتها .
أما الاجساد فترى تارة واقفة وطورا جالسة على كرسى بدون متكإ للظهر .
أما الملبوس فهو عبارة عن رداء ضاف يمر تحت ابط الرجل الايمن و ينتقل الى كتفه الايسر ثم يقع متوسعا شيئا فشيئا الى أن يتهدل الى عقبه . أما مثانى الرداء فظاهرة قليلا وعلى وجه مصطنع ومعاربه منحوتة نحتا ثقيلا غير أنه ينطق بالصدق . وقد أبدى الناحت من ناهض الهمة فى صدق التمثيل ما يدهش كل ناظر اليه فلقد نجح فى اظهار ما فى خاطره رغما عن صلابة الحجر إذ خطط اعوجاج الاظافر وغضون الجلد بصورة عجيبة بيد انه لم يحافظ على تناسب أعضاء الجسم فان الكتفين والردفين عريضة حتى بلغت وراء المقصود بالنسبة الى علو مرتفع صدره وطول ساقيه

والا فما عدا هذه الشوائب فان تماثيل لجش هى صور حقيقية لمن تمثلهم ففيهم الملك جوديا وأمراء بيته وترى كل واحد منهم بموجب سمته الخاص به والظاهر ان الناحت فى ديار الكلدان كالناحت فى وادى النيل يبذل ما فى وسعه لتمثيل الرجل الذى ينحته مدفوعا بدافع دينى لانه يتخيل ان التمثال هو مأوى نفس ينتقل اليه بعض مزدوجها لكى لا يتألم هذا المزدوج ولهذا أراد أن يكون هذا المسكن الحجرى نسخة صحيحة من المسكن الجسدى

فى بلاد أشور

جرى الاشوريون فى أبنيتهم على آثار الكلدان فى مواد البناء وزادوا عليها الحجارة الكلسية الكثيرة الوجود فى جبال كردستان القريبة من ديارهم . فكانوا يضعون فى الأسس قطعا من هذه الحجارة بدلا من الرهص ويحكمون هندامها وفى داخل أبنيتهم كانوا يتخذون صفائح رقاقا من تلك الحجارة يؤزرون بها حيطانهم ويفرشون بها منبسط غرفهم

وكان ترتيب هياكلهم وقصورهم بوجه عام على مايرى فى آل آشور (قلعة شرقاط الحالية) وكلح (نمرود الحالية فى جوار الموصل) ونينوى (كوى أنجق) ودور شروكين (خرساباد) مطابقا للنظام الذى يشاهد فى هياكل الكلدان وقصورهم من أفنية وأروقة وغرف معقودة ودهاليز مطوقة يتحدر نورها من الكوى وزقورات ملونة الا أنه يظهر أن الزخرف فى الخارج والداخل كان أغنى وأزهى مما كان عند الكلدان وكانت الأبواب مزينة بثيران رؤوسها رؤوس بشر وتماثيل ضخمة تمثل البطل جلجامس يخنق أسد وكانت أسافل الحيطان مزينة بعض الاحيان بنطاق من حجارة وفتحات الابواب مؤطرة باطار من الآجر الملون يزيد رونقا وزهوا على رأس العقد حيث تجتمع التصاوير الرمزية وعند مدخل من مداخل حرم خرساباد كانت نخلتان من الشبه المذهب والنوافذ النادرة التى كانت تشرع فى الطبقة العليا من الابراج كانت مزينة بعمد خفيفة يقرب طرز تيجانها من الطرز اليونى وعلى النوافذ جلفق (محجل أو درابزون) من الخشب المنقوش حفرا وكانت حيطان حجرات الاستقبال مغشاة الى الحجرات برسوم محفورة فى الحجارة تمثل المعارك والملاحم وصيد الملك البانى لذلك القصر

أما النحت عندهم فكان تتمة النحت الكلدانى وتقدمه ورقيه الا أن التماثيل نادرة لانها نحتت من مواد سريعة التلف كالجص والمرمر الكلسى والحوارى والهيصمى والبلنط بخلاف المسماز الذى استعمله الكلدان . وأشهر هذه التماثيل تمثال آشور نزرهبل فانه محكم الصنع يدل على مهارة ناحته فان محل رأسه من الملامح الناطقة بسرائر الضمير واتقان التعبير مالا يرى مثيله فى رؤوس تماثيل الكلدان الا انه ذهب بمحاسنه ما يشاهد على رأسه وفى لحيته من وفرة الشعر المغضن المجعد . هذا والجسم ممشوق حسن التناسب والسمت مهيب المقتبل وان كان عليه رداء قد التف به التفافا من العنق الى الرجلين . فلا جرم ان الصانع أفرغ ما فى مجهوده لتخليص منحوته من شوائب الشناعة

والديباجة وبعكس التماثيل فان الصور المحفورة كثيرة وتدل على مهارة فى الصناعة وحرية فى العمل وأنفة فى نفس صاحبها حتى لتبلغ مبلغا عظيما فى التأثير على الناظر مع أنه لم يكن لصانعها الا وسائل فى منتهى البساطة وطرائق غير تامة . ومفعول ظهور المصورات كالاصل يبين فى طور نشوئه ولم يراع فيها تناسب الأشياء بموجب اتصالها بعضها ببعض وان شئت فقل انه روعى فيها خطورة ما يراد عرضه على الناظر فان الناس الممثلين فيها هم بطول الاشجار والذى ينظر الى العساكر المشاة عند هجومهم على القلاع والحصون يخيل له أنهم أعظم منها . ومهما تكن عيوب هذه الرسوم فان التصاوير المحفورة الاشورية تبقى فى النفس أثرا لا ينشأ الا فى من ينظر الى خلائق متحركة أو حية ، فانك تشاهد هناك اناسا يتقاتلون ويتحاربون ويتذابحون وأناسا يتصايدون ويتداعبون ويتمازحون وجميع الوقائع التى تمثل حسنة الالتحام والارتباط حتى ان الصانع الماهر فى يومنا هذا لايحتاج أن ينقح فيها شيئا كثيرا اذا أراد أن يحلها من نفس الناظر المحل الذى يناسب تقدم عصرنا فى هذا الفن ويعرضها على الناظرين معرض ألواح مصورة . ومن خصائصها انه قد رسم عليها رسما متقنا دقائق الامور بجلائلها حتى لتظهر لنا المعيشة الاشورية بمظهرها الحقيقى مع جميع تفاصيلها فهى من هذا القبيل بمنزلة شاهد تاريخى يعتمد عليه فى كتابة الوقائع فضلا عن انها تحفة من تحف الصناعة ذات فضل لاينكر .

وأما صنائع المهن عند الكلدان والاشوريين

والحفر على الخشب وحياكة الطنافس وصنع الآنية الخزفية فليس لنا منها الا الشئ النزر . الا اننا نعلم ان الاشوريين ولا سيما الكلدان نبغوا فى التطريز حتى انهم كانوا يصورون على الانسجة الصور التى نراها على جدران قصورهم لكن صروف الزمان أفنت جميع ما صورته الابرة . وكان الرومان واليونان

يقضون منها العجب العجاب . ولقد صبر على تصاريف الدهر بقايا من مهنهم المعدنية وأغلبها يشهد على حذق ولباقة . فان الاوزان المتخذة من الشبه بصورة أسد رابض تدل على براعة صانعها ولا سيما الرأس فانه يمثل الحقيقة تمثيلا لايبقى لك فيها مطمعا . ومما يعد فى المقام الاول من المهارة فى الصنع تمثيلات الارباب والمعبودات والتمائم وقطع النقوش التى تلصق على الكراسى والسرر . فان فيها من محكم الحفر على المعدن ما يأخذ بمجامع القلوب . وأبواب قصر شلمناسر فى بلوات وهى أبواب من خشب كانت مزينة بضبات من الشبه علوها ٢٦ سنتيمترا وقد نقش عليها نقشا ناتئا زحفات الملك . وأحسن طائفة منها معروضة فى أروقة دار التحف الانكليزية فى لندن . وهى نفس الامثلة التى تشاهد على صفائح الرخام الكلسى من معركة وحصار وطرد العدو واللحاق به خلال بلاد الغابات والجبال ومعابر الانهر والمقادير فيها مصغرة لكن صنعها شئ واحد ويدل على حذق أصحابها فى التصرف فى المعدن ويرى مثل هذا الاتقان والاحكام فى مصنوعات العاج النادرة الوجود التى أفلتت من يد الضياع والتلف ولاسيما فى اللوالب والخواتم المتخذة من الحجر الاصم على اختلاف أنواعه وتجمع من أخربة مدن كثيرة قديمة ونحت المصنوعات الدقيقة لم يكن أدنى اتقانا من النحت الكبير ولهذا كان للصناعة الكلدانيه الاشورية مقام فى عالم الحضارة القديم بجانب الصناعة المصرية فى مختلف عصورها .

فى ديار اليونان

كانت الريازة فى عصر أبطال اليونان فى نشوئها الاول ولم يكن فى قصورهم ومعابدهم شئ يذكر وأما بعد حرب تراودة بأربعة أو خمسة قرون فكانت تتخذ الابنية من الخشب ومنذ الاولنبياذة الاولى (أى ٧٧٦ ق م) أخذت الريازة تتقدم تقدما حثيثا فاغريقية نشيد فى كورنثس وأجينة ومغارة ودلفس وأولنبية وديلس وأثينة مبان جليلة فخمة . فهذه ثلاثة أطوار وأما الطور

الرابع وهو بين سنة ٤٧٩ و ٣٣٦ ق م فان الزيارة بلغت أبعد شأو أمكن للبشر أن يبلغوه فان اليونان تخلصوا فى ذلك العهد من الفرس فنبغ فيهم رزاة تعقد عليهم الخناصر ومن جملتهم كليكراتس وأكتينس ومناسكلس وكريبس واوپوليمس وميتاجينس وپوليكليتس وزينكلس فانهم شادوا أبنية خالصة الطرز منها هيكل أپلون الديدمى فى مليطس ومعبد ميزفة پليادة فى پريانة وزون بخا فى مغنيسية ولا سيما هيكل ثسياس والپرثينون فى اثينة فانها كلها مما يخلد الذكر لرزاتها النوابغ وحرب البيلوپونيس وان كانت طامة عظيمة على مبانى أغريقية الا انها لم توقف حركة الفن عن اتمام طريقه وفى هذا العهد قامت احسن المسارح وأبهاها أغريقية وصقلية وايطالية وآسية الصغرى ونشروا ألوية الزهو والتأنق فى تشييد المصارع أى ميادين الصراع المسماة عندهم بالسترا والمراوض أى ميادين الرياضة الجسدية المعروفة عندهم باسم الجناسيون وأفرغت قوالبهما افراغا بحيث صارت معروفة لا يتجاوز أحد حدودها ولا أحكامها . ومنذ أن تسلط المكدونيون على الاغريق (اليونان) دخلت الريازة طورها الخامس وفيه فسد الذوق وأخذ يسير الى الانحطاط اذ فشت فى البلاد الحروب الداخلية فغادرها أمهر رزاتها وشخصوا الى مصر وآسية لينحازوا الى خلفاء الاسكندر فرحب بهم بطليموس كل الترحيب وبنى قصرا وشيد السرافيون ومنارة الاسكندرية الشهيرة ودعا السلوقيون أيضا رزاة ونحاتين يونانا فحسنوا مدن أنطاكية وأفامية وسلوقية التى أسسوها وكذلك فعل أمراء پرغامون . الا أن الحروب التى خاضوا عبابها مع الرومان أوقفت سير الفن . فحاول بعض خلفاء الاسكندر تعويض الضرر الذى لحق بالهلاس فشرعوا ببناء هيكل ومسرح فخم فى تيجية وأعيد بناء هيكل المشترى الأولنپي ومراض فى أثينة وزينت ديلس بهياكل وتماثيل ثم حانت ساعة قومية اليونان الأخيرة بسبب الحروب التى ثار نقيعها بين الآخيين والايتوليين فأخربت عدة مدن وكثيرا من الآثار الجليلة فلم يبق فيلبس آخر ملوك مكدونية حجرا على حجر

فى پرغامون وهدم أكاذمية أثينة والهياكل التى كانت تحيط بها . وكلما ساد الرومان فى البلاد كانوا يعرونها من بدائعها وينقلون منها الى ايطالية شيئا كثيرا وكل ما كان يقع فى أيديهم من الطرف . ولما أخذ سلا أثينة هدم البيرة والمبانى التى كانت تجاورها ونقل الى رومة طائفة من عواميد مقدس المشترى الاولنپي لتزين بها المشترى الكاپيتولى ولم يحترم الرومان آسية الصغرى ولا اغريقية الكبرى فكان بذلك نهاية الريازة اليونانية .

وأما من جهة سائر العلوم المستظرفة فان اليونان يدّعون أنهم اخترعوها كلها ومن جملتها النحت والتصوير والنقش وهذا محض تبجح واختلاق لانا رأينا المصريين والكلدان والاشوريين واقفين على هذه الفنون بينما كان اليونان غائصين فى بحر ظلمات الجهل والهمجية . ويرجح أهل البحث والتحقيق أن المصريين علموا اليونان مبادئ صنع التماثيل . ولا جرم أن ككربس مؤسس أثينة أخذ معه من أرض الفراعنة صناعا مهرة أكفاء لبناء وتزيين هياكل ميزفة وسائر المعبودات التى أدخل عبادتها ذلك الصقع من بلاد اليونان . ومما لاريب فيه ان آثار الريازة والنحت القديمة التى أقامها اليونان بادئ بدء فى بلادهم تشاكل كل المشاكلة ما يجانسها فى ديار الفراعنة الا أن ثم فرقا مهما وهو أنه بينما كانت هذه الصنائع واقفة جامدة فى ربوع مصر كانت تسرع كل السرعة فى أرجاء اليونان حتى بلغت أبعد مدى من كمالها ورقيها .

وأول من عرف من اليونان بالنحت هو ديدال ابن حفيد أرختة ملك أثينة . وقد ذهب بعضهم الى أن ديدال هذا هو اسم شامل لجماعة من الناحتين وبعد حرب تروادة ارتقت النحاتة رقيا ظاهرا ويظن أن فريقا منهم أخذوا من آسية الصغرى الى بلاد اليونان ليقيموا هناك آثارا تخلد مآثر فاتحيهم وكانت هذه الصناعة قد خطت خطوة بعيدة هناك فى ميدان الاتقان . على أن

مصنوعات هذا الفن لم تجلب اليها الانظار جلبا صادقا الا فى القرن الثامن قبل الميلاد فرتقى صب المعادن فى ذلك العهد وكذلك الحفر عليها . وفى القرن السادس ق م طرأ انقلاب عظيم فى أفكار أهل الحذق من المصورين حتى بلغت مصنوعاتهم اتقانا لاينسى ونبغ فى كثير من المدن من مهرة الصناع رجال معدودون ولا سيما فى ساموس (سيسام) وخيو (ساقص) وسكيونا وقد فتحت فيها مدارس لتلقى أصول هذه الصناعة وأحكامها . وما زالت النحاتة فى رقى حتى كان ليسپس (المتوفى فى القرن الرابع ق م) و پرا كسيتيلس المولود سنة ٣٩٠ ق م) فبلغ الاتقان على أيديهما مبلغا أى مبلغ حتى قيل عنهما انهما أتيا المعجزات بمحاكاة الطبيعة ولم يأت بعدهما من قاربهما فى الصناعة . وقد أذن الاسكندر لليسپس أن ينحت تمثاله كما أذن لاپلس أن يصور صورته فانتهى هذان الفنان فى عصرهما ثم لما كان عهد السلوقيين تدهورت الفنون والصنائع من قللها حتى ماتت .

فى بلاد الرومان

لم يكن للرومان صنائع مستظرفة أو جميلة فى بدء دولتهم لانهم كانوا مشتغلين مدة أزمان متطاولة بالدفاع عن أنفسهم من هجمات أقوام ايطاليــة الوسطى وبالحمل عليهم حملات تنكل بهم تنكيلا وتمثل بهم تمثيلا . ولم يكن لهم ذوق للعقليات . ولم يكن لهم وقت يتفرغون لها . ولما احتكوا باليونان نهضوا يحاكونهم فى جميع أعمالهم وآدابهم ومصنوعاتهم لكنهم لم يفوقوهم البتة بل ساووهم فيها وساووهم نادرا . وقد قلنا ان الرومان كانوا يخربون مبانى اليونان البديعة فى ديارهم وينقلونها الى ربوعهم . فلما اغتنت رومية بمحاسن أغريقية وآسية حاولت أن تحصل على أبنية فخمة ضخمة واسعة كثيرة الزخرف ففضلت لهذه الغاية الطرز الكورنثى الذى كان يمتاز عن سائر ضروب الطروز بوفرة الزخرف . بيد ان الطرز الرومانى بقى معتبرا فى نظر أهل الفن طرزا يونانيا

فاسدا مع ما فيه من الجلالة والفخامة والعظمة التى لاتنكر . قال ڤتروڤس : «ان بناة اليونان كانوا واقفين على جميع العلوم التى كانت تساعدهم على اتقان صناعتهم وكانوا قبل أن يشرعون ببناء يخططون رسمه ومنظره وينقشــونه بالوان ويصورونه أيضا صورة مصغره» وكان فريق منهم كتب رسائل جليلة بخصوص الابنيــة التى شادوها . ولم تكن كتبا نظرية ككتاب ڤتروڤس بل كتبا تروى ذكر الاشغال التى تمت على أيديهم والاسباب التى حدت بهم الى اختيار ذلك البناء من غيره . لكن لم يصلنا أحد هــذه الكتب التى وصفها ڤتروڤس لسوء الطالع ومما امتازت به الريازة الرومانية عن اليونانية انهم اتخذوا العقود فى أبنيتهم أى فن وضع الحجارة المنحوتة بعضها يدعم بعضا على شــكل قوس مربع فبالعقود تسنى لهم أن يقيموا أبنية أوسع وأكثر تفننا من أبنية اليونان

وما يقال عن الريازة والنحت يقال أيضا عن سائر الفنون المستظرفة مثل التصوير والنقش والرسم فان الرومان بلغوا فى اكرامهم لنوابغ اليونان فى هــذه الفنون مبلغا كان يقرب من العبادة وهذا ما اضطر القياصرة الى جلب جماعة منهم الى رومــة ليفتحوا فيها مدارس يعلمون فيها أصول هذه الفنون ففعلوا لكن لم يفلح فيهــا الرومان كما أفلح اليونان وبقى قصب السبق بأيديهم ابدون أن ينتزعه منها أحد من غير عنصرهم .



الجزء الثانى

الجزيرة في عهد الاسلام

أ. الفتوحات الاسلامية . انبعاث الجزيرة . سطوة الأمويين. أعمال العباسيين



الفتوحات الاسلامية

قبل أن يظهر الاسلام بقليل كانت الديار الشرقية سبب الاهتراش والامتراش والقراع والنزاع بين الفرس والرومان فتارة تكون البلاد بيد قوم وطورا بيد قوم آخرين ولم تكد تفرغ من الفتن والهرج والمرج . فآن لدولة ثالثة أن تدخل بينهما ليكون لها القول الفصل فى « المسألة الشرقية » أى مسألة التملك على هذه الديار ليزول سبب الخلاف بين الدول الطامحة بابصارها اليها . وفى ذلك العهد لم يدر فى خلد أحد أن ينهض العرب من ديارهم وينفضوا عن أذيالهم الرمال التى علقت بها منذ عصور متطاولة ويشمروا عن ساعدهم ليهجموا على الديار المجاورة لهم وينتزعوها من أيدى الفرس والرومان معا . كان الفكر الغالب بين أمم ذلك العهد ان البلاد تصير الى يد الأقوى ولا تقوى اليد الا ان تزاول العلوم والفنون وتعالجها إذ القوة المادية تتلاشى امام القوة العلمية التى من شأنها أن تكيد للعدو المكايد وتسقطه فى ماتنصبه له من

الشباك والحبائل . ولذا كان الظن يحمل العقلاء على أن مصير بلاد الشرق يكون بيد اليونان اذا عادوا فقبضوا على ناصية العلوم أو الى الرومان اذا زال من بينهم الشقاق وحافظوا على ماورثوه من معارف اليونان . وأما العرب فكانوا بعيدين عن كل فكر لان رمال بلادهم كانت تثور بوجوههم اذا ما أرادوا قطع المفاوز التى كانت فى ديارهم وتحول دون كل أمنية تنشأ فى صدورهم .

فما أعظم ما كان من عجب كبار الدنيا حينما علموا ان قد قام بين العرب فى سنة ٦٢٢ ب م رجل يدعو الناس الى دين جديد هو دين الاسلام الذى امتد فى البلاد العربية بسرعة البرق الخاطف ثم أخذ ينتشر الى ما جاوره من الديار حتى ان الانبراطور هرقل ملك الروم رأى بعد بضع سنوات من تخليص سورية من أيدى الفرس انها خرجت من قبضته وانتقلت الى أبناء اسمعيل (٦٣٢—٦٣٨) وبعد سنتين (٦٣٩—٦٤٠) سقطت مصر من أيديهم ولم يبق الا ديار العجم لم تقع فى قبضتهم ، غير أن سيول المغازى الاسلامية كانت تتدفق متجهة الى جبال ايران ، ولم تضمحل الدولة الساسانية فقط (٦٤١) ، بل أخذ ظل المجوسية يتقلص شيئا فشيئا من تلك الديار حتى لم يبق فيها من أصحاب ذلك الدين الا جماعات قليلة أقامت جماعة منها فى ديارها الاصلية الفارسية محافظة على دينها القديم ، وفرت جماعات أخرى منها الى ديار الهند فتناسلوا فيها الى يومنا هذا وهم يعرفون هناك باسم « الفرس » .

نشأ الاسلام طفلا صغيرا ثم ترعرع ثم اشتد حتى انتشر فى الأرض طولا وعرضا وأصبح متسعه أعظم من ملك الاسكندر لانك تراه قد امتد من بلاد الحجاز الى ربوع الشام الى الجزيرة الى ايران الى قلب آسية الوسطى من جهة ، والى ديار مصر وعلى طول أفريقية الشمالية الى بلاد الأندلس من الجهة الأخرى .

عود الجزيرة الى النهضة

احتل الجزيرة منذ القديم أمم جاءتها من أقطار مختلفة . وكان الكلدان والآثوريون قد هبطوها قادمين اليها من ديار العرب فى فجر التاريخ . وكانت الجزيرة تنتعش كلما نزل بها قوم جديد . فاتفق لها فى عهد الخلفاء الراشدين ما اتفق لها فى سابق الأحقاب . فان أبا بكر الصديق أنفذ الى العراق خالد بن الوليد المخزومى فافتتحه فى سنة ١٢ ه (٦٣٢—٦٣٣ م) وفى عهد عمر بن الخطاب فتح عياض بن غنم الجزيرة كلها (شمالى العراق) فى سنة ١٨ و١٩ ه (٦٣٩—٦٤٠ م) على صلح الرها وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها :

انى أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم ، اذا أدوا الحق الذى عليهم ، ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا . أشهد الله وملائكته والمسلمون .

هذا مجمل ما يقال عن حالة العراق فى عصر الخلفاء الراشدين فهذه النهضة هى اليوم أشبه بالافاقة منها بالنهضة ، الا اننا أطلقنا عليها اسم النهضة بالنظر الى انها بدء ماتصير اليه فى عهد الخلفاء العباسيين الذين أيقظوها يقظة صادقة من رقدتها المتطاولة وأعادوا اليها شيئا من مجده الزاهر وعزها الداثر .

سطوة الأمويين

كان سبب ابتداء دولة بنى أمية أن الحسن بن على بن أبى طالب خلع نفسه من الخلافة وسلم أمرها الى معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية سنة ٤١ ه (٦٦١) وسمى ذلك العام الذى وقع فيه الاتفاق « عام الجماعة »

لان الأمــة اجتمعت فيه بعد الفرقة على امام واحد فبعث معاوية نوابه فى البلاد واستقر له الملك وصفت له الخلافة . وفى أيام الأمويين نفذت كلمة العرب فى ثلاث قارات وهى آسية وأفريقية وأوربة . فقد ملكوا فى آسية من قفار جبل الطور الى فلوات ما وراء النهر . ومن وادى كشمير الى منحدر الطورس على بحر الروم ووضعوا أيديهم على أنحاء آسية الصغرى (الأناضول) كقليقية وكبدوكية والبنطس وسائر ديار مملكة الأكاسرة بل ملكوا بسرعة ما عجزت عنــه الأكاسرة الساسانيــة فى مدة طويلة اذ أوفدوا قوادا فتحوا ماوراء نهرى جيحون والسند وبلاد بخارى والصغد وجعلوهما كورة واحدة . ثم كورة ماوراء النهــر ودان لهم من كان على بحر جرجان من الاهالى وهم سكان خوارزم وملكوا فى أوربة بلاد الاندلس ماعدا بعض مضايق فى أستورية واحتلوا سپتمانية (فى جنوبى بلاد غالية أى فرنســة) وجزيرة قبرص وجزائر ميورقة ومنورقة وأقريطش وردوس وملكوا فى شمالى أفريقية جميع البلاد الممتدة من مضيق جبل طارق بن زياد الى برزخ السويس وكانت حاضرة الخلفاء الامويين دمشق الشام التى بنى فيها الوليد الاول مسجدا عدّ من عجائب المصنوعات وهدمه بعــد ذلك عدو العرب الازرق تيمورلنك فى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) .

أعمال العباسيين

الخلفاء العباسيون جميعا من ولد العباس بن عبد المطلب عم النبى العربى وكان بنو العباس متحزبين لعلى بن أبى طالب فى خلافته فلما استأثر الامويون بالحكم بعد قتل ابن أبى طالب أخذوا ينتهزون الفرص لنبذ طاعتهم والقيام مقامهم . ولم يجهروا برغائبهم خشية بطش الأمويين بهم الى أن قام محمد بن على بن عبدالله بن العباس فاخذ يبث دعاته سرا فنجح بعض النجاح الا انه أدركته الوفاة سنة ١٢٦ هـ (٧٤٤ م) فعهد بنشر الدعوة الى أبنائه ابراهيم الامام ،

وأبى العباس الذى لقب بعد ذلك بالسفاح لسفكه الدماء وأبى جعفر الملقب بالمنصور فجاهر دعاة العباسيين بما تكنه صدورهم وكان على رأسهم أبو مسلم الخراسانى ودعوا لابراهيم الامام فلما سمع بذلك الخليفة الاموى استشاط غضبا وبعث من قبض عليه فأخذ سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) وحبس حتى مات لكن موت الامام لم يفد بنى أمية فائدة . اذ قام بعده اخوه أبو العباس السفاح ودعا الناس الى مبايعته وأتى الكوفة وكانت كلمة أبى مسلم الخراسانى قد علت بالدعوة لبنى العباس فاجتمع للسفاح جيش لهام فسار به لمحاربة مروان بن محمد الملقب بالحمار قاتل أخيه فكسره فى جمادى الاخرة سنة ١٣٢ هـ (كانون الثانى سنة ٧٥٠) على الزاب الاعظم لكن مروان تمكن من الفرار من الزاب حتى وصل قرية بوصير فى ديار مصر فنزل فى كنيســة للقبط هناك فلما علم بقدوم أعدائه عليه حاربهم وقتل منهم ثلثمائة رجل ثم جرح جروحا بليغة فحمل عليه رجل فقتله ثم جاء آخر فاحتز رأســه وكان من أهل البصرة ثم بعث برأسه الى دمشق فنصب على باب مسجدها وفى الآخر بعث به الى السفاح فخر ساجدا لله عند رؤيته اياه وتصدق بعشرة آلاف دينار لكن وقع فى قلب ابى العباس خوف ممن بقى من بنى أمية لئلا يثاروا بدم المقتول فصمم على استئصال شأفتهم فلما كان بعض بنى أمية مجتمعين فى الحيرة فى مجلسه وبنو هاشم دون سريره على الكراسى وبنو أمية على الوسائد أمر الخراسانية بقتلهم فاخذتهم بالكافركوبات (بالهراوات أو الدبابيس) فأهمدوا وكان أبو العباس فى أثناء ذلك دعا الغداء حين قتلوا وأمر ببساط فبسط عليهم وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته فلما فرغ من الاكل قال: ما أعلمنى أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب لنفسى منها . فلما فرغ قال جروا بأرجلهم فالقوا فى الطريق يلعنهم الناس أمواتا كما لعنوهم أحياء فكانت الكلاب تجر بارجلهم وعليهم سراويلات الوشى حتى انتنوا ثم حفرت لهم بئر فالقوا فيها هذا ما كان من أمر بعض منهم ممن كانوا فى الحيرة وأما البعض الآخر الذين كانوا فى دمشق فان الوليد بن معاوية بن مروان

ابن الحكم خليفة مروان قتل فى اجتياح المدينة وبعث يزيد بن معاوية وعبدالله بن عبدالجبار بن يزيد الى أبى العباس فقتلهما وصلبهما ثم دعى من بقى منهم على نهر أبى فطرس من فلسطين وأظهر لهم عبدالله بن على قائد جند العباس انه يريد أن يفرض لهم العطاء فلما اجتمعوا وهم نيف وثمانون أميرا خرج عليهم من فى الكمين فقتلوهم ولم يفلت من هذه المجزرة سوى عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبدالملك الذى جدد معالم الخلافة بالاندلس . ولم يشأ السفاح أن يقيم فى ديار الشام مولده بل اتخذ الانبار (اليوم أم البر عند الاعراب أو أم برا) مباءة لخلافته حتى مات فيها بالجدرى سنة ١٣٦ (٧٥٤ م) وعمره ثلاث وثلاثون سنة

المنصور

تخلفه أخوه المنصور وكان عالما بليغا وحازما جليلا فلما أنعم نظره فى من حوله رأى فى العراقيين جميعهم حزبا قويا يميلون الى العلويين ويودون أن تكون الخلافة لهم لا للعباسيين فأخذ يخاف من امرين الاول من أن يغتال والثانى من أن تنتقل الخلافة الى آل البيت فتنحصر فيهم فاخذ يضرب أخماسا لاسداس ليأمن على الامرين معا فبلوغا للامر الاول أخذ يقصى عنه العرب ويقدم عليهم الموالى والاتراك والخراسانية لانهم كانوا دعاة هذه الدولة وأنصارها الذين استعين بهم على بنى أمية فى ديار العجم وجرجان وما اليهما من البلاد . وقد وجد على العراقيين أشد مما وجد أخوه على بنى أمية حتى لو استطاع أن يقرضهم من هذه الديار لفعل والعياذ بالله وقرب أيضا منه النصارى لهذه الغاية عينها لعلمه انهم لايستطيعون أن يؤذوه اذا ما أغدق عليهم الخيرات والمبرات لابل اتخذ كثيرا منهم ندماء له على غصص من قلوب الذين يميلون فى تحقيرهم الى رفض سلامهم وكلامهم . ومما فعله أيضا لقمع العراقيين انه قلل أعطية الجند ليأمن عصيانهم واستغناءهم عنه وأجرى فواضله على من لم يكن له غرض فى السياسة ولا يعنى بأمرها ، بل غايته العلم والأدب . وكان يقلم أيضا أظفار

أمراء البلدان وعمالها بأن يتدارك عزلهم قبل أن ترسخ قدمهم فى ولايتهم ويستولى على مايصل اليه من أموالهم ويجعله فى البيت الذى سماه (بيت مال المظالم) قصدا لتحقيرهم واعجازهم عن القيام عليه بفتنة أو مخالفة لا حبا فى جمع المال وادخاره كما توهمه بعضهم ثم طمع فى هذه السياسة الى أن يأخذ التجار بالشدة فوضع على حوانيتهم ضريبة كما يفعل اليوم الافرنج فى بلادهم الا ان بين عمله وعملهم فرقا فى الغايات وهذه الضريبة مما لم يسبق له عهد فى الاسلام وزد على ذلك انه زاحمهم فى اعطاء الدين بالربا حتى يقطع عنهم باب الارتزاق والتعيش مع علمه بان التجارة من السلطان مفسدة للعمران ومدعاة الرعية الى الخسران وان الله يمحق الربا ويربى الصدقات . غير انه تجوز كل ذلك بلوغا لمآربه واستمالة للشعب الادنى اليه وهو السواد المهم فرفع عنهم الخراج ورقا على الحنطة والشعير وصيره عليهم مقاسمة فاستفاد بعمله هذا فائدتين تقريب سواد الناس منه وادخار أرزاق الجند وعلف الخيل عنده حتى لايطمع فيه طامع . ومما فعله من آخر أعماله لتأمين حياته واقصاء المغتالين عنه نقل دار الخلافة الى موضع جديد يحصنه كل التحصين لانه كان يخاف من أن أهل الكوفة يفسدون جنده ويحملونهم على ممالأة أهل البيت فجمع المنجمين ليعلم هل من خطر عليه بعد بناية بغداد . فلما أعلمه نوبخت اذا اختطها يسلم من شر العدو أخذ بعمارتها وأركبها دجلة ولما كان الخوف قد اخذ من قلبه كل مأخذ حصنها بمائة وثلاثة وستين برجا أنزلها فى سورتين بن الشوارع والطرق بحيث يمكن اقفال الدروب فى الليل واقامة الحراس عليها . ثم انه حول الاسواق الى الكرخ فى أعلى الزوراء حتى لايبقى بجواره من لايأمن منه وراح قومه يقولون ان رسول الروم أشار بذلك عليه ففعل كل ذلك لكى لايغتال

وأما مافعله ليتخلص من العلويين فانه بث العيون والارصاد ونصب لهم الشباك والحبائل ليقتلهم الواحد بعد الآخر ففى السنة التى أسس فيها بغداد

(١٤٥ هـ — ٧٦٢ م) قتل محمد بن عبدالله بن الحسن الحسين بن على بن أبى طالب وابراهيم أخاه وليس له فى ذلك فخر لان ضعف العلويين كان ناشئا من تفرق كلمتهم ومحاولة كل منهم الاستئثار بالخلافة وتشتت دعاتهم على آراء لم تجمعهم راية واحدة وانقطاع بعضهم عن بعض منفردين الى نفوسهم فيما يطلبون به من ثار شهدائهم والا لو اجتمعوا لما استطاع قتيلا . وهو لم يجرأ على قتل هذين العلويين البريئين الا من بعد أن قتل قبلهما يزيد بن عمر بن هبيرة وعمه عبدالله بن على بن عبدالله بن عباس ولا سيما أبا مسلم الخراسانى محهم ومؤيد طلبهم وفى كل ذلك لم يطالبه أحد بدمهم .

فانت ترى من هذا كله أن المنصور كان خليفة عضوضا لايراعى الا ولا عهدا وذا سياسة تشبه سياسة دهاة الافرنج فى هذا القرن وبذلك حفظ نفسه وسرير خلافته من الدمار وكانت وفاته فى سنة ١٥٨ هـ (٧٧٥ م) عن ٦٣ عاما .

المهدى

مامات المنصور الا وتنفس العراقيون عامة والبغداديون خاصة الصعداء ترويحا لانفسهم لانهم كانوا يكرهونه أشدّ الكره لما كان قد اتصف به من الخصال الذميمة والاخلاق الجبروتية وجلس ابنه المهدى على سرير الخلافة بحيلة من الربيع وذلك انه أوهم الناس عند موت المنصور بانه حى لم يمت فبايعوه على قلى من نفوسهم اذ كانوا يرهبون ظلم أبى جعفر ومع ذلك فانهم كانوا يفضلونه على أبيه وكان المهدى صاحب نسك وورع ولبس الصوف وعم الناس بالقصد العدل والمعروف واستمالهم اليه وحبب نفسه لهم وكان يسمى (راهب بنى العباس) لدينه وتقاه وهو الذى أمر بتتبع الزنادقة وافنائهم ولو كانوا من أكابر الادباء من الشعراء . فقد أمر بقتل صالح بن عبد القدوس وبشار بن برد وغيرهما . وهو أول الخلفاء فى تقريب أهل العلم والدين المبنيين على صادق الفضل والفضيلة . فهو غارس هذين النبتين فى جنة الخلافة العباسية

وكان من سبقه ممن تربع على سرير الخلافة لايلتفت اليهما مع انهما ركناه المكينان وكان يتخذ لاهل العلم والادب فى كل سنة أياما كالمواسم يعرضون فيها عليه بضاعتهم من فن أو علم أو صناعة ثم يجيزهم عليها بما طبع عليه من واسع الفضل والكرم ومما سبق به المهدى سائر الخلفاء والامراء من بنى العباس انه أدخل الصيد فى جملة ملاهيه فجمع بذلك الى رعاية الامة أبهة الملك فكان يخرج الى صيده فى العدد المزينة والمواكب العظيمة وهذا لايعاب على الملوك الا متى أفرطوا فيه وكانوا أقرب به الى البطر منهم الى النزهة والرياضة ومن أعمال المهدى بنايته جامع الرصافة والكعبة وتأسيس عيسا باذ واقامته ديوان المظالم وديوان الازمة وازالة ضرائب الخراج ورده الضياع على أصحابها وكان قد ظلمهم اياها أبو جعفر الى غيرها وبقى مثابرا على البر حتى موته وكان ذلك فى ١٢ المحرم من سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) عن ٤٣ سنة

الهادى

وجلس بعده على سرير الخلافة ابنه الهادى وكان المهدى قد خلع فى حياته عيسى بن موسى عن ولاية العهد مما دل على أن الاستئثار بالمنافع هو من طبع العباسيين وان نار الفتن فى الاسلام متأججة من اختلاف الرأى فى مبايعة الخليفة وطمع كل طائفة من الطامحين اليها بالاستئثار بالمنافع دون غيرها ولم يشتهر الهادى بشئ يذكر سوى انه تتبع الزنادقة وقتل منهم عددا غير يسير وكان يحب اللهو ويكثر من مجالسة النساء حتى قصف عمره من فرط تمتعه بهن وولعه بالطرب واللهو . ومات بعد خلافته بسنة وشهر وعمره ٢٣ سنة وذلك فى سنة ١٧٠ هـ (= ٧٨٦ م) .

هرون الرشيد وبغداد

وقام بعده أخوه هرون الرشيد وهو الذى أبقى له الذكر المخلد فى ديار العراق لانه اذا كان المنصور بانى بغداد ، فالرشيد رافع لواء مجدها ومؤسس حضارتها

الصادقة فلقد شعر بذكائه الثاقب ودهائه النادر المثال ان المملكة لاتقوم الا على أربع دعائم : العدل . والعلم . والاحسان . والمال . فمدّ بساط العدل بانه ساوى بين رعاياه وان اختلفت مذاهبهم ومشاربهم وأديانهم فانه لم يذل النصارى إذ اتخذ أطباءه منهم ولم يحتقر الصابئة إذ كان منهم تراجمته وكتّابه ولم يتعرض للمجوس بسوء ولم يؤذ الهنود البوذيين إذ كان هندى فى قصره وكان من أكبر أطبائه وعدل فيهم جميعا وأخذ بالحلم فى رعايته للناس كأنه يخالف أبا جعفر فى سياسة التحزب لقوم على قوم أو لقوم دون قوم وكان يذهب متنكرا فى الأسواق ليتسمع مايقوله الناس عنه وليصلح ما كان يراه فى نفسه من الأود والاعوجاج . وأما العلم فانه كان على جانب عظيم منه بل كان من مميزاته وكان مطلعا على دقائقه ومقربا لذويه ولما ثبت لديه ما للبرامكة من شغفهم به ووقوفهم على أنواع المعارف وما يتذرعون به من الوسائل لبثها فى البلاد وتعميمها بين العباد قربهم منه أشد القربى وبغداد لم تبلغ ذاك الشأو من الرقى البعيد والكمال الفريد الا بالبرامكة . والدليل على ذلك اننا نرى هذه الحاضرة بعد أن نكب الرشيد أولئك الوزراء العظام أخذت تتدهور من أوج عزها بدون أن تتريث فى تدهورها (١) نعم أن التدهور لم يكن سريعا فى بادئ الأمر اى فى عهد المأمون بن الرشيد لأن المأمون كان خريج البرامكة فكان يعرف من أين توكل الكتف وكيف يسير بالبلاد وأهلها أما بعد المأمون فكان التدهور سريعا . واما الاحسان فمما لايحتاج الى اثباته فان المؤرخين والاخباريين جميعهم يذكرون عنه انه كان اذا حج يحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم واذا لم يحج أحج ثلثمائة بالنفقة التامة والكسوة الفاخرة وكان يتصدق فى كل يوم من صلب ماله بألف درهم بقدر زكاته وكان لايضيع عنده احسان محسن وكان يجود بالأموال الطائلة على اهل الأدب

---

(١) الدهورة جمعك الشئ وقذفك به فى مهواة ودهورت الشئ كذلك .

والشعر ماهو أشهر من القمر وبمبالغ لاتكاد تصدّق لكثرتها ووفرتها . وأما المال فان الرشيد كان قد اتخذ لانمائه جميع الوسائل التى أولها التجارة ولا تجارة حيث لا أمان فى السبل والطرق ولهذا قام بتأمينها وابعاد الذعار واللصوص عنها حتى تمكن التجار من السفر الى البلاد القاصية ليجلبوا منها ماليس فى حاضرتهم . فحملوا من جزائر جمكوت (اليابان) أنواع الثياب الحريرية والآنية الرقيقة الحسنة الطلاء والمصنوعات الدقيقة على الخشب الفاخر ومن السيلى (شبه جزيرة كورية) أبا نخذين (نوع من العقار يستعمل فى الطب القديم) والابريسم النادر المثال ومن الصين الغريب والكمكان والندّ والستور والسروج والغضار والدار صينى والخولنجان ومن تبت المسك والعود ومن كشمير الشال والثياب المحكمة النسج ومن ترمذ الكاغد الذى لايحاكى ولا يقلد ومن الهند والسند القسط والقنا والقرنفل والفاغية والخيزران والكافور والعود والجوزبوا والفلفل والزنجفيل والكبابة والنارجيل وثياب القطن والقطيفة والفيلة ومن سرنديب (سيلان) أنواع الياقوت والحجارة الكريمة والبلور والالماس والدر والسنباذج الذى يعالج به الجواهر ومن بلاد فارس الآنية والخمر والحديد والرصاص والاسلحة والمصوغات ومن اليمن العطر والميعة والبخور والمرّ ومن البحرين ونجد الحناء واللؤلؤ ومن بلاد واق واق الذهب والآبنوس ومن كله الرصاص القلعى ومن ديار الجنوب البقم الدارى ومن بحر الروم المرجان أو البسد ومن ديار الروم المصطكى والجلود والغلمان والجوارى ومن انحاء الروس جلود الثعالب والقاقم والفنك والخز يأتى بها الروس الى بغداد عن طريق الشام أو جرجان ثم تنقل الى داخل البلاد أو الى اصبهان فيتجر بها وبما ذكرناه من البياعات .

ومما يعد من مصادر الغنى والثروة ترقية الصناعة وقد أفرغ الرشيد كنانة سعيه لاعلاء شأنها ودفعت زوجه زبيدة الناس الى أن يزاولوها ويعالجوها باتقان

وسارت فى مقدمتهم فانها صنعت بساطا من الديباج على صورة كل حيوان من جميع الضروب وصورة كل طائر من ذهب واعينها من يواقيت وجواهر وانفقت عليه نحوا من مليون دينار واتخذت الآلة من الذهب الموصع بالجوهر وأمرت بأن يصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب الذى اتخذ لها من الوشى خمسين الف دينار واتخذت القباب من الفضة والآبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسمور وأنواع الحرير واتخذت لها خفا مرصعا بالجوهر ترصيعا عجيبا . وكل ذلك كان من صنع مهرة البغداديين . ومن صنعهم أيضا انهم بنوا للخليفة المنصور قبة عظيمة عرفت بالقبة الخضراء ووضعوا عليها تمثالا تديره الريح كان على صورة فارس فى يده رمح فكان الخليفة اذا رأى ذلك الصنم قد استوى قبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها علم ان بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة فلا يطول الوقت الا وتوافيه الاخبار بان خارجيا نجم من تلك الجهة أوكما قال . وفى أيامه صنعت تلك المزولة العجيبة التى أهداها الخليفة الى شرلمان انبراطور الفرنجة وكذلك الشطرنج البديع النقش الذى صنعه أحد النصارى واسمه يوسف الباهلى كما يرى اسمه منقوشا على الاداة وكان من الطاف الخليفة الى الانبراطور المذكور . ومما يدل على ان الصناعة وسائر الفنون بلغت أقصى الشأو فى عهد الرشيد القصور التى بنيت فى عهده وكلها منجدة بافخر الفراش والرياش مما يكفينا مؤونة الاطالة فى هذا البحث .

ومن منابع الثروة التى تفيض بالاموال الطائلة (الزراعة) والظاهر انها بلغت فى عهد الرشيد مبلغا لم يقار به فى ماسبق من أزمان الخلفاء وأصدق دليل على ذلك دخل الغلال فى عهده فقد كان حاصل السواد (أعلى الجزيرة وأسفلها) ستين مليون درهم وكان فى زمن الحجاج عشرين مليون درهم لكثرة جوره وظلمه . وزيادة هذا الدخل لم يكن الا بعد شق الانهر وتنشيط الزراعة وتأمين لا د واتخاذ الآلات اللازمة لمثل هذه الامور

ومما لاينكر من موارد الثروة ترتيب جباية الاموال من خراج وضرائب وعشور فكان مجموع المحمول اليه فى كل سنة نحوا من خمسمائة مليون درهم من الفضة وعشرة آلاف مليون دينار من الذهب فحمل الناس كثرة هذا المحمول على أن يعدلوه بالوزن لا بالعدد فيقولون انه يبلغ ستة أوسبعة آلاف قنطار من الذهب الا ان هذا إعياء ينتهى بالتفريط الى المغالاة لان زنة القنطار ثلاثون الف دينار ولا يحتمل أن يكون فى العالم الفا مليون دينار فى ذلك العهد ولو فرضنا صحة وجودها آنئذ لما صح أن تحمل كلها الى بيت المال ولا يبقى منها شئ فى أيدى الناس لمعاملاتهم . فان كان زعمهم بعيدا عن الصدق فلا أقل من كونه يدل على الكثرة وان المال كان يحمل الى بغداد بالصبر لوفور الخير .

وما كان يدخل بيت المال فى عهد الرشيد لم يكن يدخل نصفه فى خزائن الأمويين والعباسيين الذين سبقوه فلا يبعد ان كان عمالهم يبقون عندهم من الاموال مالا يحملونه اليهم لاختلاف تقديرها بين ثمانية وأربعين درهما من الاغنياء وأربعة وعشرين من الصناع وأهل الحرف واثنى عشر من أهل الفاقة والاعواز دون أن يكون فى الدواوين عمل لذلك . فلما قام جعفر البرمكى بالوزارة أقر على العمال ماهو مفروض عليهم من جزية وخراج وصدقات وغير ذلك حتى أخذ يقيد الدخل فى الدواوين من قبل أن يقبضه ولذلك لم يبق للغش سبيل الا فى مايؤخذ من المكوس على البياعات والزيادة فى النفقات التى يتصرف فيها العمال وليس هو الا القليل فى جانب الكثير من دخل الدولة .

ولقد امتدت دولة الرشيد فى عهده امتدادا لم يسبق له نظير فلقد أصبحت رقعتها تنبسط من الهند وفرغانة فى الصين الى طرف المغرب الاقصى من ناحية الزقاق . كذلك كان امتدادها فى زمن أبيه لاتنقص عنه الا بما ضم اليها من الديار التى غلب عليها الروم فى غزوات متواترة اذ كان شأنه وقتالهم فى حال

دائمة كما كان شأن الخلفاء فى مناوأتهم منذ صدر الاسلام الى عهد المهدى فلما ولى هذا أخرج اليهم الرشيد وهو فتى فركب فى عدة واهبة لم يكن مثلها فى الاسلام وجاشت فى نفسه نخوة الجهاد حتى اتسم بسمة المقاتلة فى الجيش وحمل الرمح فى يده وكان يومئذ على عرش القسطنطينية ملكة اسمها (ايرينى) لم تطق مقاومته فهزم جندها وتفرق المسلمون فى البسائط يجاهدون ولا يبقون على أحد من الروم حتى اذا نزل بجوار القسطنطينية وشرع فى ضربها بالنار خافت عليها من الحريق فصالحته على كليكية وحملت اليه الجزية التى كان يحملها أسلافها الى الخلفاء .

ولما ولى الرشيد وقع فى نفس الروم أن يتخلصوا من ربقة الطاعة فى عهد نقفور ملكهم فكتب هذا اليه مانصه : من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب . أما بعد فان هذه المرأة وضعتك موضع الشاه ووضعت نفسها موضع الرخ وينبغى أن تعلم انى أنا الشاه وأنت الرخ . فأد الىّ ما كانت المرأة تؤدى اليك . فكتب اليه الرشيد على ظهر كتابه (من عبدالله هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم . أما بعد فقد فهمت كتابك والجواب ماتراه لا ماتسمعه والسلام على من اتبع الهدى (ويقال انه كتب الجواب ماتراه لاماتسمعه وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار . وعلى أثر ذلك زحف الرشيد بخيله ورجله فكانت له اليد العليا عليه واضطر الروم الى المسالمة والموادعة وأوجبوا على نفوسهم حمل الجزية ولقد غزاهم غزوات جمة ولم يخفق فى واحدة منها .

والخلاصة كان هرون الرشيد فى عهده كما كان اوغسطس قيصر ملك الرومان فى عصره وما يكون لويس الرابع عشر ملك الفرنسويين فى القرن الثامن عشر للميلاد . على ان الذى يلام عليه الرشيد الى أبد الدهر هو نكبته للبرامكة وافناؤه لهم عن آخرهم وبذلك هدم الدولة العربية وحضارتها وأهوى بها من

حالق الى أسفل سافلين . وقد ذهب الناس فى سبب هذه النكبة مذاهب شتى منها ان الرشيد نكب البرامكة لان جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى خالط العباسة اخت الرشيد وهذا لاحقيقة له فلو فرضنا ان ماينسب الى جعفر قد وقع فان الرشيد ما كان يقتل الا المذنب نفسه اذ يعلم (ان لاتزر وازرة وزر أخرى) وهل يمكن له وهو العاقل المحنك أن يقتل الاسرة كلها بذنب واحد منها فهذا الرأى اذا فطير . وذهب آخرون الى ان سبب النكبة هو امتلاء صدر الرشيد حسدا مما رآه فى جعفر من الهمة البعيدة فى تنشيط العلماء وتعريب كتب الاجانب فاراد أن يمحو ذكر البرامكة بابقاء ذكره وهذا أيضا رأى فج لان قتل الرجال لايمحو آثار الابطال بل يزيدها ذكرا ومجدا وتخليدا وذهب ابن خلدون بعد تفنيد بعض هذه الآراء الى ان سبب النكبة كان من استبدادهم بالدولة واحتجانهم أموال الجباية . وهذا أيضا ضعيف لانه لو كان الامر كما يزعم الناقد المذكور لكان اكتفى الرشيد بخلعهم من الوزارة ومصادرة مابيدهم من الأموال الطائلة وعزلهم عن كل وظيفة لاقتلهم . وذهب فريق من الناقدين الى ان سبب هذه النكبة كان التجاء الناس فى جميع أمورهم الى البرامكة دون أمير المؤمنين وهذا أيضا لايوجب القتل ولو صدق ان سواد العوام كانوا يلتجئون اليهم فى دعاويهم وظلاماتهم لكان كفى الرشيد أن ينزع منهم وظائفهم فيصبحوا من الرعايا فلا يلتفت اليهم أحد والذى نراه نحن ان سبب هذه النكبة العظمى هو سياسى وهو تحزبهم لاهل البيت . فقد قال الرشيد يوما لابى معاوية : هممت انه من يثبت خلافة على ابن أبى طالب فعلت به وفعلت به . وقد قال جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد المقرب منه : ان الرشيد تحوّل عليهم بتحامل الفضل بن الربيع الذى يتعصب على أهل البيت ويذكر له ماعلى باب البرامكة من الجيوش والغلمان والمواكب ويخوفه استفحال ملكهم فى خراسان وفارس ويوهمه تمحلهم فى ازالة الامر من يده وان مال الدولة

وجندها فى أيديهم . فلما تحقق الامر صمم على ابادتهم لانهم جميعا كانوا على هذه الفكرة يشهد على ذلك ان العلويين الذين ساروا الى المغرب نزحوا بايعاز البرامكة اذ كانوا لهم متحزبين ومتعصبين وهم الذين قلدوهم الولايات بدون أن يتعمدوا ضرر الرشيد بل تمكينا لدعائم الدولة الاسلامية فى العالم ومشاطرتهم بعض الولايات ليلهوا بها عن الطموح الى الخلافة ودس الدسائس واحداث الفتن .

ومجمل الكلام انه كان للرشيد محاسن ومساوئ وهى تكاد تتعادل ومن آثاره الجليلة انه اتخذ المصانع والآبار والبرك والقصور فى طريق مكة وبنى الثغور ومدّن المدن وحصن فيها الحصون مثل طرسوس واذنة وعمر المصيصة ومرعش وأحكم بناء حرب (على طريق حاج صنعاء) الى غيرها من دور السبيل والمواضع للرابطين . ومما أدخله الرشيد فى عالم الحضارة ثم تبعه ملوك الافرنجة على اختلاف طبقاتهم وبلادهم والیوم أخذ يتبعه جميع المتمدنين فى ديار الافرنج الالعاب الرياضية البدنية والالعاب الفكرية فالرشيد هو أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ورمى بالنشاب بالبرجاس ولعب بالكرة والطبطاب وهو اللعب الذى قد أغرم به الانكليز أشد الغرام وقرب الحذاق والمهرة فى هذه الالعاب حتى عم الناس ذلك الفعل حصولا على الجوائز التى كان يحسن بها الرشيد على المبرزين فيها وطمعا بنظر الخليفة اليهم وكان أيضا أول من لعب بالشطرنج من آل عباس وكذلك بالنرد (الطاولة) وقدم اللعاب وأجرى عليهم الارزاق فسمى الناس أيامه لنضارتها وخصبها (أيام العروس)

وكانت وفاته فى طوس سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) وكانت خلافته نيفا وثلاثا وعشرين سنة وكان عمره خمسا وأربعين سنة وشهرين و ١٦ يوما ودفن هناك بطوس .

الأمين

وقام بعده ابنه الامين فى ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ — ٢١ نيسان سنة ٨٠٨ وكان ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة وله فصاحة و بلاغة وأدب وفضيلة لكن كان سيئ التدبير كثير التبذير ضعيف الرأى أرعن لايصلح للامارة فاول مابويع بالخلافة أمر ثانى يوم ببناء ميدان جوار قصر المنصور للعب بالكرة وكان حسن له خلع أخيه المأمون من ولاية العهد وتولية ولده موسى فكاتبه يستدعيه الى بغداد فعرف السبب واستدعاءه فامتنع ونفذ عسكره صحبة طاهر بن الحسين ونفذ الأمين أيضا عسكرا فالتقوا فانكسر عسكر الأمين وغنمت أموالهم ونزل عسكر طاهر بن الحسين على بغداد محاصرا لها وكان الامين متشاغلا بلهوه ولعبه وذاك مجدّا فى القتال والحصار واستمالة العساكر والوجوه الى أن ظفر بالامين فقتله ليلة الاحد خامس المحرم سنة ١٩٨ هـ (٦ أيلول سنة ٨١٣ م) بالجانب الشرقى وقد عبر فى سفينة فأمسك وحمل رأسه الى المأمون وهو بخراسان ودفن جسده فى مقابر قريش وكانت خلافته ٤ سنين و ٤ أشهر وليس له عقب فى الخلافة والخلفاء من ولد أخيه المعتصم .

المأمون

فى السنة التى قتل فيها محمد الامين (١٩٨ هـ) ورد كتاب من المأمون بعد قتل أخيه بخلع القاسم بن هرون الرشيد وفيها بويع المأمون البيعة العامة فى ١٥ المحرم (١٦ أيلول سنة ٨١٣) والمأمون هو أعظم خليفة عباسى قام فى بغداد وان تكن الشهرة لابيه هرون فقد قال السيوطى : كان أفضل من رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما وعلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة وسوددا وسماحة وله محاسن وسيرة طويلة . أدبه اليزيدى و جمع الفقهاء من الآفاق وبرع فى الفقه والعربية وأيام الناس ولما كبر عنى بالفلسفة وعلوم الاوائل ومهر فيها فجره ذلك الى القول بخلق القرآن . ولم يل الخلافة من بنى العباس أعلم منه وكان فصيحا مفوها وكان يقال لبنى العباس فاتحة وواسطة وخاتمة . فالفاتحة

السفاح والواسطة المأمون والخاتمة المعتضد . وكان معروفا بالتشيع حتى انه خلع أخاه المؤتمن من العهد وجعل ولى العهد من بعده « على الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق » حمله على ذلك افراطه فى التشيع حتى قيل انه هم أن يخلع نفسه ويفوض الامر اليه وهو الذى لقبه لرضي وضرب الدراهم باسمه وزوجه ابنته وكتب الى الآفاق وأمر بترك السواد ولبس الخضرة فاشتد ذلك على بنى العباس وخرجوا عليه وبايعوا ابراهيم بن المهدى ولقب المبارك فجهز المأمون لقتاله وجرت أمور وحروب وسار المأمون الى نحو العراق فلم ينشب على الرضى ان مات فى سنة ثلاث وبلغ ابراهيم بن المهدى تسلل الناس من عهده فاختفى فى ذى الحجة فكانت أيامه سنتين الا أياما وبقى فى اختفائه مدة ثمانى سنين ووصل المأمون الى بغداد فى صفر سنة أربع فكلمه العباسيون وغيرهم فى العود الى لبس السواد وترك الخضرة فتوقف ثم أجاب الى ذلك . اه

وقال صاحب كتاب خلاصة الذهب المسبوك كان المأمون شهما أبى النفس أخذ من جميع العلوم بقسط وضرب فيها بسهم واستخرج كثيرا من كتب الطب وترجمت له واستخرج أقليدس وترجم له وعقد المجالس للمناظرة بين أهل العلم فى الأديان والمقالات وغزا الروم وفتح فتوحات كثيرة وكان جوادا موصوفا بالحلم وعفوه عن ابراهيم بن المهدى عمه وقد نازعه رداء الملك بعد أن بويع له بالخلافة مشهور وعفوه عن الفضل بن الربيع الذى جلب الحرب بينه وبين أخيه الامين معلوم وعن الحسين بن الضحاك وقد بالغ فى هجائه وأطنب فى تقبيح ذكره تعصبا لاخيه الامين مفهوم .

وقال القاضى صاعد بن أحمد الاندلسى : ان العرب فى صدر الاسلام لم تعن بشئ من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها ، حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس

طرا اليها . فهذه كانت حالة العرب فى الدولة الأموية . فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها وكان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور وكان مع براعته فى الفقه كلفا فى علم الفلسفة وخاصة فى علم النجوم . ثم لما أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبدالله المأمون بن هرون الرشيد تمم مابدأ به جده المنصور فاقبل على طلب العلم فى مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ماحضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها وترجمت له على غاية ما أمكن ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم فى تعليمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم علما منه بان أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس فى دقة الصنائع العملية والتباهى باخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية . اذ علموا ان البهائم تشركهم فيها وتفضلهم فى كثير منها . فمن المنجمين فى أيام المأمون حبش الحاسب المروزى الاصل البغدادى الدار وله ثلاثة أزياج . وأحمد بن كثير الفرغانى صاحب المدخل الى علم هيئة الافلاك وعبدالله بن سهل بن نوبخت كبير القدر فى علم النجوم ومحمد بن موسى الخوارزمى وماشاءالله اليهودى ويحيى بن أبى المنصور ولما عزم المأمون على رصد الكواكب تقدم اليه والى جماعة من العلماء بالرصد واصلاح آلاته ففعلوا ذلك بالشماسية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق . ومن الحكماء يوحنا ابن البطريق الترجمان مولى المأمون كان أمينا على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعانى ألكن اللسان فى العربية وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب . ومن الاطباء سهل بن سابور ويعرف بالكوسج ويوحنا بن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفورى وجبريل الكحال وغيرهم وهم كثيرون .

تو فى المأمون يوم الخميس عاشر شهر رجب ٢١٨ هـ (٢ آب ٨٣٣) بالقرب من طرسوس فحمله ابنه العباس وأخوه المعتصم اليها فدفناه فى دار خاقان خادم الرشيد وكان ذاهبا يريد غزو بلاد الروم وكان عمره سبعا وأربعين سنة وستة أشهر وعشرة أيام وخلافته عشرين سنة ولاعقب له فى الخلافة والخلفاء من ولد أخيه المعتصم .

المعتصم

والمعتصم هو ابن الرشيد ولد يوم الاثنين ١٠ شعبان من سنة ١٧٠ (١٩ ت ١ سنة ٧٩٦ م) وأراد الناس أن يبايعوا العباس بن المأمون فأبى هذا وسلم الامر الى عمه المعتصم فتوجه الى بغداد مسرعا فوافاها غرة شهر رمضان ٢١٨ هـ (٢٠ أيلول سنة ٨٣٣ م) وأقام بها سنتين ثم توجه الى موضع سر من رأى (سامراء) فبناها واتخذها دارملك له وله بسامراء الاثار الحسنة والأبنية العظيمة قيل ان مساحتها سبعة فراسخ وحفرنهر الاسحاق وعمل تل المخالى وبنى سورا للصيد وبنى الجامع الكبير وانفق عليه خمسمائة الف دينار وجعل وجوه حيطانه مرايا بحيث يرى القائم فى الصلاة من يدخل من خلفه وبنى المنارة التى يقال انها من احدى عجائب الدنيا . وهو أول خليفة أدخل الاتراك الديوان وكان يتشبه بملوك الاعاجم ويمشى مشيهم وبلغت غلمانه الاتراك ثمانية عشر الفا والبسهم أطواق الذهب والديباج وكانوا يطردون الخيل فى بغداد فضاقت بهم المدينة وتأذى منهم الناس فبنى المعتصم سر من رأى وكان غيورا على الدين فقد قتل من الخرمية ستين الفا وكان أشد من أخيه المأمون فى القول بخلق القرآن وفى سنة ٢١٩ (٨٣٤ م) أحضر المعتصم أحمد ابن حنبل وامتحنه بالقرآن فلما لم يجب بكونه مخلوقا أمر به فجلد جلدا شديدا حتى غاب عقله وتقطع جلده وقال أبو الفرج الملطى : كان ابو هرون البكاء من العلماء المنكرين لخلق القرآن يقر بكونه مجعولا لآية وردت وهى (انا جعلناه قرآنا عربيا) ويسلم ان كل مجعول مخلوق ويحجم عن النتيجة ويقول :

(لا أقول مخلوق . ولكنه مجعول) وهذا عجب عجاب . وغزا المعتصم بلاد الروم ففتح عمورية وقتل من نصاراها ثلاثين الفا وأسر ثلاثين الفا وفى سنة ٢٢٧ توفى المعتصم يوم الخميس لثمانى عشرة مضت من ربيع الاول (٧ ك ٢ سنة ٨٤١) عن ثمانية بنين وثمانى إبنات وكانت خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام حسابا هجريا ولهذا سمى المثمن وكان عمره ٤٨ سنة ودفن بسامراء

الواثق

وقام على سرير الخلافة بعده ابنه الواثق بالله وكانت أمه رومية اسمها قراطيس ولد لعشر بقين من شعبان سنة ١٩٦ هـ (٢٧ نيسان سنة ٨١٢ م) وولى الخلافة بعهد من أبيه . بويع له فى ١٩ ربيع الاول سنة ٢٢٧ – ٨ ك ٢ سنة ٨٤٢ وفى سنة ٢٢٨ استخلف على السلطنة أشناس التركى والبسه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهرا وهو أول خليفة استخلف سلطانا وكان من الخلفاء القائلين بخلق القرآن وقد ضرب بيده فى بغداد عنق أحمد بن نصر الخزاعى لقوله بالخلاف ثم صلب جثته فى سر من رأى واستمرت جثته معلقة ست سنين الى أن ولى المتوكل فانزلها ودفنها وكان يحسن الى الطالبيين حتى انه لم يمت فيهم واحد وهو فقير وكان وافر الأدب مليح الشعر وكان أعلم الخلفاء بالغناء وله أصوات والحان عملها نحو مائة صوت وكان حاذقا بضرب العود واحرقت الكرخ فى أيامه وتشاغل الاغنياء بعمارة منازلهم وعجز الفقراء عن عمارة املاكهم وانتقلوا عنها فاطلق للفقراء منهم مليون درهم معونة لهم على اصلاح دورهم . فى عهد غزا المسلمون فى البحر جزيرة صقلية وفتحوا مدينة مسينة فى عهد الملكة ثئودورة وكانت ملكة بعد ثئوفيل ملك الروم وابنها ميكائيل ابن ثئوفيل وهو صبى ومات الواثق بداء الاستسقاء يوم الاربعاء ٢٧ ذى الحجة من سنة ٢٣٢ (١٥ آب سنة ٨٤٧ م) ودفن بسامراء وكانت خلافته ٥ سنين و ٣ أشهر و ١٥ يوما .

المتوكل

هو ابن المعتصم بن الرشيد ولد سنة ٢٠٧ (٨٢٢ م) وبويع له بالخلافة فى ذى الحجة سنة ٢٣٢ (تمو سنة ٨٤٧ م) بعد الواثق فاظهر الميل الى السنة ونصر أهلها ورفع المحنة وكتب بذلك الى الآفاق وكان يظهر من سب على بن أبى طالب والاستهزاء بذكره كثيرا بخلاف ابنه المنتصر فان الاغلب عليه التشيع وحب على والمتوكل هو الذى أخمد المعتزلة وكانوا فى قوة ونماء الى أيام المتوكل ولما مرض الواثق ائتمر ايداخ ومحمد بن عبد الملك الزيات فى قتل المتوكل فى التنور وفى الماء البارد على رأى من يغلب أمره على الآخر فلما قام المتوكل بامر الخلافة عذب محمد بالتنور الذى صنعه ليعذب فيه الناس وكان من حديد وداخله مسامير غير مثنية وكان يسجر بحطب الزيتون حتى يصير كالجمر ثم يدخل الانسان فيه وعذب ايداخ بالماء البارد على ما كان يريده للمتوكل وفى سنة ٢٣٥ الزم المتوكل النصارى بلبس الغل وفى سنة ٢٣٦ أمر بهدم قبر الحسين وهدم ماحوله من الدور وأن يعمل مزارع ومنع الناس من زيارته وخرب وبقى صحراء وكان المتوكل معروفا بالتعصب فتألم المسلمون من ذلك وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد وهجاه الشعراء وكان منهمكا فى اللذات والشراب وكان له أربعة آلاف سرية عرفهن كلهن واتفق ان الترك انحرفوا عن المتوكل لامور فاتفقوا مع ابنه المنتصر على قتله فدخل عليه خمسة منهم وهو فى جوف الليل فى مجلس لهوه فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان فى ٥ شوال سنة ٢٤٠ (٢٨ شباط سنة ٨٥٥) فكانت مدة خلافته ١٤ سنة و ٩ أشهر ودفن بسر من رأى .

المنتصر

قام بامر الخلافة بعده ابنه المنتصر بويع له فى الصبيحة التى قتل فيها أبوه وخلع أخويه من البيعة التى أخذها أبوهما لهما على الناس وكانت ولادته فى سر من رأى فى شهر ربيع الاول من أمة أم ولد رومية فى سنة ٢٢٤ (ك ٢ سنة ٨٣٩ م) ولما ولى صار يسب الاتراك ويقول « هؤلاء قتلة الخلفاء » وقيل

انه جلس فى بعض الايام للهو وقد استخرج من خزائن أبيه فرشا فامر بفرشها فى المجلس فرأى فى بساط ديباج دائرة فيها فارس وعليه تاج وحوله كتابة فارسية فطلب من يقرأ ذلك فاحضر رجل فنظره فقطب فقال ماهذه : ـ قال لامعنى لها ـ فألح عليه فقال : أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز قتلت أبى فلم أتمتع بالملك الا ستة أشهر فتغير وجه المنتصر وأمر باحراق البساط وكان منسوجا بالذهب وكان الاتراك قد هموا بقتله فعجزوا عنه فتحيلوا الى أن دسوا الى طبيبه ابن طيفور ٣٠ الف دينار فى مرضه فأشار بفصده ثم فصده بريشة مسمومة فمات فى ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٩ حزيران ٨٦٢ م) عن ٢٦ سنة أو دونها فلم يتمتع بالخلافة الا أشهرا معدودة دون ستة أشهر ودفن بالجوسق فى سامراء .

المستعين

فبايع الامراء وأكابر المماليك الأتراك للمستعين بالخلافة ليلة الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخر وعمره اذ ذاك ٢٨ سنة لان ولادته كانت فى سر من رأى فى ٧ رجب ٢٢١ (٢٧ حزيران ٨٣٦ م) ولم يولوا أحدا من ولد المتوكل لئلا يطالب بدمه وكان مغرما بحب النساء واستمر فى الخلافة الى أول سنة ٢٥١ فتنكر له الاتراك لما قتل وصيفا وبغا ونفى باغر التركى الذى قتل المتوكل ولم يكن للمستعين مع (وصيف) و (بغا) الا أن يقول مايقولان ولهذا قيل فيه :

خليفة فى قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

الجئ المستعين الى خلع نفسه فى ١٣ المحرم سنة ٢٥٢ (٤ شباط ٨٦٦ م) وكانت خلافته ٣ سنين و ٨ أشهر وقتل بعد الخلع بالقادسية قرب سامراء قتله بغا التركى وأخذ رأسه فحمله الى ابن عمه المعتز ودفن بسر من رأى عن ٣٠ سنة وثلاثة أشهر ولا عقب له فى الخلافة .

المعتز

ولد المعتز فى ١٦ رشهر بيع الأول من سنة ٢٣٣ (٣١ ت ١ ٨٤٧ م) أمه رومية أم ولد اسمها قنجة ويروى قبيحة بويع له بالخلافة بعد خلع ابن عمه المستعين وبعد مبايعته بالخلافة أخرج أخاه المؤيد من الجوسق وخلع عليه خلعة الملك ثم بلغه عنه انه يريد الوثو عليه فحبسه ثم وجد بعد ذلك ميتا فى حبسه . وهو أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب وكان الخلفاء قبله يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة وكان المعتز مستضعفا مع الاتراك فبعثوا اليه يقولون له : اخرج الينا فبعث يقول : قد شربت دواء وأنا ضعيف فهجم عليه جماعة وجروا برجله وضربوه بالدبابيس فى يوم صائف وهم يلطمون وجهه ويقولون اخلع نفسك فخلعها . ثم ان الملأ أخذوه الى الحمام بعد خلعه بخمس ليال وأدخلوه اياه فلما اغتسل عطش فمنعوه الماء ثم أخرج وهو أول ميت عطشا فسقوه ماء بثلج فشربه وسقط ميتا وذلك فى شهر شعبان فى سامراء فدفن فيها فى موضع يقال له السميذع عن ٢٣ سنة وكانت مدة خلافته ٤ سنين و ٦ أشهر و ١٤ يوما.

المهتدى

— قام على سرير الخلافة يوم خلع ابن عمه المعتز بالله وكانت ولادته فى سنة ٢١٨ (٨٣٣ م) أمه أم ولد يقال لها قرب ويروى وردة قال المهتدى عن نفسه « مازلت أقول القران مخلوق صدرا من خلافة الواثق حتى أقدم علينا أحمد ابن ابى دواد شيخا من أهل اذنة فرجعت عن هذه المقالة » وكان المهتدى ورعا متعبدا عادلا قويا فى أمر الله بطلا شجاعا لكنه لم يجد ناصرا ولا معينا ووجد له سفط فيه جبة صوف وكساء كان يلبسه بالليل ويصلى فيه وكان قد اطرح الملاهى وحرم الغناء وحسم أطماع أصحاب السلطان عن الظلم وامر أن يحد شارب الخمر كائنا من كان وكان شديد الاشراف على أمر الدواوين يجلس بنفسه ويجلس الكتاب بين يديه فيعملون الحساب وكان الاتراك قد اتفقوا على خلعه لما كان نهاهم عن جميع المنكرات التى اعتادوها فحاربوه فقاتل

عن المهتدى المغاربة والفراغنة والاشروسنية وقتل من الاتراك فى يوم واحد أربعة آلاف ودام القتال الى أن هزم جيش الخليفة وأمسك هو فعصر على أنثييه فمات وذلك فى رجب سنة ٢٥٦ ودفن بدار محمد بن خاقان بسر من رأى الى جانب المعتز فكانت خلافته ١١ شهرا و ١٧ يوما وعمره ٣٧ سنة و ٤ أشهر و ١٠ أيام . وكان لما قامت الاتراك عليه ثار العوام وكتبوا رقاعا والقوها فى المساجد ومن جملة مافيها : يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العادل المضاهى لعمر بن عبدالعزيز أن ينصره الله على عدوه .

المعتمد

ثم قام بالأمر بعده ابن عمه أحمد المعتمد على الله بن المتوكل ولد سنة ٢٢٩ (٨٤٣ م) أمه أم ولد يقال لها فتان ويروى قينان رومية وبويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه المهتدى بسر من رأى وكان له اسم الخلافة ولاخيه الموفق ابن المتوكل تدبير الملك ولما مات الموفق قام بتدبير شؤون الملك بعده ابنه أحمد المعتضد بن الموفق وغلب على عمه المعتمد كما كان أبوه غالبا عليه وكان المعتمد يطلب الشئ اليسير فلا يناله ولم يكن له سوى الاسم وكان منهمكا فى اللهو واللذات يسكر ويعض يده . توفى يوم الاثنين ١٥ رجب ٢٧٩ (١٢ ت ١ سنة ٨٩٢ م) فجأة ببغداد وحمل الى سامراء ودفن بها ومدة خلافته ٢٣ سنة و ٦ أيام وعمره ٥٠ سنة .

المعتضد

المعتضد بالله هو ابن الموفق بن المتوكل ولد فى سر من رأى فى ذى القعدة سنة ٢٤٢ (كانون الثانى ٨٥٧ م) أمه ولد اسمها خفير وقيل صواب وقيل حرز وقيل ضرار وقيل ضفير لم تدرك خلافته . بويع له بالخلافة يوم الاثنين ١٢ رجب سنة ٢٧٩ (٩ ت ١ سنة ٨٩٢) وكان ذا رأى وحزم وشجاعة وعدل فى الرعية حتى انه تقدم الى كافة أصحابه وخواصه أن يلزموا الطريقة المثلى وأمرهم بأخذ أصحابهم بمثل ذلك وقرر انه من تعدى الواجب وأفسد وتناول أحدا من الرعية بأذى كان هو المؤاخذ بذلك المقابل عليه دون الجانى وشاع ذلك فى الاجناد

وانكفوا وسلكوا أحسن مسلك وحج وغزا وفضائله كثيرة وآثاره عظيمة وهو أول من سكن دار الخلافة ببغداد وانتقل من سامراء وكنا قد سبقنا فقلنا إن المعتصم هو الذى كان قد انتقل اليها من بغداد وكل من جاء بعده أى الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد سكنوا جميعا سامرا وكان سبب رجوع المعتضد الى بغداد أن قصر الحسن بن سهل انتقل الى بوران ابنته وزوجة المأمون فاستنزلها المعتضد عنه فرمته وفرشته بأجل الفرش وملأت خزائنه بما يخدم به الخلفاء وربت فيه الجوارى والخدم وما تدعو اليه الحاجة . ثم انتقلت عنه وراسلته بالانتقال فانتقل ووجد فيه ما استحسنه واستكثره . ثم انه أضاف الى القصر ما جاوره ليسع الدار بذلك وعمل عليه سورا . وكان المعتضد يسمى السفاح الثانى لانه جدد ملك بنى العباس . لكنه كان كثير إتيان النساء ومات من الافراط فيهن وذلك نهار الاثنين ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ (— ٧ نيسان سنة ٩٠٢) فى قصره المعروف بالحسنى فى بغداد ودفن ليلا فى دار محمد بن طاهر فى الجانب الغربى من الدار المعروفة بدار الرخام وكانت مدة خلافته ٦ سنين و ٦ أشهر و ٢٠ يوما وكان من آثاره الحسنة القصر المعروف بالتاج أو الحسنى المشرف على دجلة بدار الخلافة (فى بغداد) وما وراءه من القباب والمجلس .

المكتفى

المكتفى هو ابن المعتضد ولد فى غرة شهر ربيع الآخر فى سنة ٢٦٤ (— ١١ ك ١ سنة ٨٧٧ م) أمه ام ولد تركية اسمها چيچك بويع له بالخلافة بعد موت أبيه المعتضد فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (٩٠٢ م) وأخذ له أبوه البيعة فى مرض موته ولما سار الى منزله أمر بهدم المطامير التى كان قد اتخذها ابوه لاهل الجرائم وكان يميل الى حب على بن أبى طالب بارا بأولاده . مات المكتفى شابا فى ليلة الأحد ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥ (١٤ آب ٩٠٨ م)

المقتدر

المقتدر بالله هو ابن المعتضد ولد فى رمضان سنة ٢٨٢ (— ت ١ سنة ٨٩٥ م)

وامه رومية وقيل تركية أم ولد اسمها شغب وقيل غريب أدركت خلافته . بويع بالخلافة يوم مات أخوه المكتفى وهو ابن ١٣ سنة ولم يل الخلافة من قبله أصغر سنا منه . وعمل الصولى كتابا فى جواز ولايته واستدل بأن الله تعالى بعث يحيى بن زكرياء ولم يكن بالغا . وخلع مرتين وأعيد وفى احدى المرتين بويع عبدالله بن المعتز وكان ابن المعتز اكثر العباسيين فضلا وأدبا ومعرفة موسيقى واشعر الشعراء مطلقا فى التشبيهات المبتكرة الغريبة المرقصة التى لا يشق غباره فيها أحد ولما بايعوه بالخلافة سموه الغالب بالله ثم أرسل المقتدر وقبض على ابن المعتز وقتله فى حبسه واستقام له الأمر وفى المرة الثانية اجتمع القواد والجند والاكابر والأعيان والأصاغر مع يونس ونازوك وتشاوروا على خلع المقتدر فألزموه بأن يكتب رقعة بخطه بخلع نفسه ففعل وأشهد عليه بذلك ومضى ابن حمدان الى دار ابن طاهر فأحضر أخاه محمد بن المعتضد ولقب بالقاهر بالله بعد أن بايعوه وذلك فى منتصف المحرم من سنة ٣١٩ (العشر الأول من شباط سنة ٩٣١) ثم بعد يومين تغير الجند واختلفوا وقتلوا نازوك وأقاموا القاهر من مجلس الخلافة وأعيد المقتدر وجددت له البيعة وذلك بعد يومين . وفى أيامه أمر اليهود والنصارى أن لا يركبوا الا بالأكف وأن لا يستخدموا فى وظيفة . وفى عهده قتل الحسين الحلاج وفى زمنه فتح مارستان ام المقتدر وكان مبلغ النفقة فيه فى العام الواحد سبعة آلاف دينار وفى سنة ٣٠٦ صار الأمر والنهى لحرم الخليفة ولنسائه لركاكته وآل الأمر الى أن امرت أم المقتدر بثمل القهرمانة ان تجلس للمظالم وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها . وكان المقتدر جيد العقل صحيح الراى لكنه كان مؤثرا للشهوات والشراب مبذرا وكانت النساء غلبن عليه فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائسها وأعطى بعض حظاياه الدرة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل وأعطى زيدان القهرمانة سبحة جوهر لم ير مثلها وأتلف أموالا كثيرة وكان فى داره احد عشر غلام خصى غير الصقالبة

والروم والسود . قتل يوم الأربعاء ٢٧ شوال سنة ٣٢٠ (— ١ ت ٢ سنة ٩٣٢ م) بالشماسية وقد خرج لقتال مؤنس فلما التقى الجمعان رمى بربرى المقتدر بحربة فسقط الى الأرض ثم ذبحه بالسيف ورفع رأسه على رمح وسلب ما عليه وبقى مكشوف العورة حتى ستر بالحشيش ثم حفر له بالموضع ودفن وأخفى قبره وكانت خلافته منذ بويع الى أن قتل اربعا وعشرين سنة و١٥ يوما وكان عمره ٣٨ سنة .

القاهر

هو ابن المعتضد . مولده فى ٥ جمادى الأولى من سنة ٢٨٧ (— ٩ أيار ٩٠٠ م) امه ام ولد اسمها قبول ويقال فتنة . لما قتل المقتدر احضر هو ومحمد بن المكتفى فسألوا ابن المكتفى أن يتولى فقال لا حاجة لى فى ذلك وعمى هذا أحق به فكلم القاهر فأجاب فبويع ولقب القاهر بالله كما لقب فى سنة ٣١٧ هـ وأول ما فعل ان صادر آل المقتدر وعذبهم وضرب ام المقتدر حتى ماتت فى العذاب . ونسى هذا الخليفة مايفعل الله بالقتلة وما يخباه له الزمان فى مطاوى ثوبه الضافى وكأنه لم يتذكر ما مر به من العبر فى تاريخ اجداده . وممن قتلهم أيضا جماعة من أكابر الدولة وذلك انه فى سنة ٣٢١ شغب عليه الجند واتفق مؤنس وابن مقلة وآخرون على خلعه بابن المكتفى فتحيل القاهر عليهم الى أن أمسكهم وذبحهم وطين على ابن المكتفى بين حائطين واما ابن مقلة فاختفى فأحرقت داره ونهبت دور المخالفين فزيد فى القابه المنتقم من اعداء دين الله ونقش ذلك على السكة . وأمر بتحريم القيان والخمر وقبض على المغنين ونفى المخانيث وكسر آلات اللهو وأمر ببيع المغنيات من الجوارى على انهن سوادج وكان مع ذلك لا يصحو من السكر ولا يفتر من سماع الغناء وفى سنة ٣٢٢ قتل القاهر اسحاق ابن اسمعيل النوبختى الذى كان قد أشار بخلافته القاه على رأسه فى بئر وطمت . وذنبه انه زايد القاهر قبل الخلافة فى جارية واشتراها فحقد عليه . وفى السنة المذكورة تحرك الجند عليه لأن ابن مقلة فى اختفائه كان يوحشهم منه ويقول

لهم : انه بنى لكم المطامير ليحبسكم وغير ذلك فاجمعوا على الفتك به فدخلوا عليه بالسوق فهرب فادركوه وقبضوا عليه فى ٦ جمادى الآخرة (— ٢٥ أيار ٩٣٤ م) وبايعوا أبا العباس أحمد بن المقتدر ولقبوه الراضى بالله . قال محمود الاصبهانى : كان سبب خلع القاهر سوء سيرته وسفكه الدماء فامتنع من الخلع فسملوا عينيه ان كحلوه بمسمار محمى فسالتا على خديه وقال الصولى : كان اهوج سفاكا للدماء قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة مدمن الخمر ولولا جودة حاجبه سلامة لاهلك الحرث والنسل وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل بها انسانا وقال المسعودى : اخذ القاهر من مؤنس واصحابه مالا عظيما فلما خلع وسمل طولب بها فانكر فعذب بانواع العذاب فلم يقر بشئ فاخذه الراضى بالله فقربه وادناه وقال له : قد ترى مطالبة الجند بالمال وليس عندى شئ والذى عندك فليس بنافع لك فاعترف به فقال : اما اذا فعلت هذا فالمال مدفون فى البستان وكان قد انشأ بستانا فيه أصناف الشجر حملت اليه من البلاد وزخرفه وعمل فيه قصرا وكان الراضى مغرما بالبستان والقصر فقال وفى أى مكان المال منه فقال أنا مكفوف لا اهتدى الى مكان فاحفر البستان تجده فحفر الراضى البستان وأساسات القصر وقلع الشجر فلم يجد شيئا فقال له وأين المال ؟ فقال : وهل عندى مال ؟ وانما كانت حسرتى فى جلوسك فى البستان وتنعمك فاردت أن افجعك فيه فندم الراضى وحبسه . فقام الى سنة ثلاث وثلاثين ثم اطلقوه واهملوه فوقف يوما فى جامع المنصور فى بغداد بين صفوف الخلق وعليه مبطنة (جبة) عنابية وقد ذهب وجهها وبقى بعض قطن بطانتها وهو يقول : تصدقوا على ، بالامس كنت امير المؤمنين ، وأنا اليوم من فقراء المسلمين وكان ذلك فى أيام المستكفى ليشنع عليه فمنع من الخروج الى أن مات فى منزله بدار ابن طاهر بالحريم سنة ٣٣٩ فى ٣ جمادى الأولى عن ٥٣ عاما وكانت خلافته ٦ سنين و ٦ أشهر و ٧ أيام ودفن الى جانب ابيه المعتضد .

الراضى

هو ابن المقتدر : بويع له بالخلافة يوم خلع عمه القاهر وكان مولده فى

رجب سنة ٢٩٧ (آذار ٩١٠ م) بالدار بالبدرية أمه أم ولد رومية اسمها ظلوم ادركت خلافته . انتدب الامير محمد بن رائق وجعله أمير الأمراء وفوض اليه تدبير المملكة وخلع عليه وأعطاه اللواء . ومنذ ذلك اليوم بطل أمر الوزارة ببغداد ولم يبق الا اسمها والحكم للأمراء والملوك المتغلبين وكل من حصل بيده بلد ملكه ومانع عنه فتمزقت أعضاء الخلافة كل ممزق فالبصرة وواسط الأهواز فى يد عبد الله البريدى وأخويه وفارس بيد عماد الدولة بن بويه والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر فى يد بنى حمدان . ومصر والشام فى يد الأخشيد بن طغج . والمغرب وافريقية فى يد المهدى . والأندلس فى يد بنى أمية . وخراسان وما والاها فى يد نصر بن أحمد السامانى . واليمامة وهجر والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى . وطبرستان وجرجان فى يد الديلم . ولم يبق فى يد الراضى وابن رائق سوى بغداد وما والاها . فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها وعم الخراب لذلك وأصبح المسمون بأمير المؤمنين فى الدنيا ثلاثة : العباسى فى بغداد والأموى فى الأندلس والمهدى صاحب المغرب فى القيروان وفى سنة ٣٢٦ خرج (بجكم) على (ابن رائق) فظهر عليه واختفى ابن رائق فدخل (بجكم) بغداد فاكرمه الراضى ورفع منزلته ولقبه بأمير الأمراء وقلده امارة بغداد وخراسان . وفى سنة ٣٢٧ أطلق القرمطى طريق الحاج على أن يؤدى له عن كل حمل خمسة دنانير فحج الناس وهى أول سنة أخذ فيها المكس من الحجاج . وفى سنة ٣٢٩ اعتل الراضى لكثرة غشيانه للنساء وكانت علته الاستسقاء والتنحنح فتوفى ليلة السبت ١٥ ربيع الأول بعد أن قاء دما كثيرا (= ١٩ ك ١ سنة ٩٤٠) وهو ابن ٣٢ سنة وأشهر وكانت خلافته ٦ سنين وعشرة أشهر قال الخطيب : كان للراضى فضائل ، منها : أنه آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة خطب يوم الجمعة . وآخر خليفة جالس الندماء . وكانت جوائزه وأموره على ترتيب المتقدمين . وآخر خليفة سافر بزى القدماء.



المتقى

ثم قام بالأمر بعده أخوه أبو العباس ابراهيم المتقى بالله بن المقتدر بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الراضى وهو ابن أربع وثلاثين سنة وكانت ولادته فى شعبان سنة ٢٩٧ (= نيسان سنة ٩١٠ م) أمه أم ولد اسمها خلوب وقيل زهرة أدركت خلافته . وكان فيه صلاح وكثرة صيام كثير العدل بن الملوك وله صدقات جمة . وكان فيه دين وعبادة وحفظ عهد وغير مكترث لجمع المال ولا حفظه كما فعل من تقدمه ومن وفائه وحفظ عهده أنه كانت له جارية قبل خلافته فلم يتغير عليها ولا ابتاع غيرها وكان قد امتنع عن قبول الخلافة الا برضى القاهر وقال له : ياعم أنت تعلم أننى مخير فان خلعت نفسك وسلمتها جلست وكان الاسم لى فيها والمشورة اليك . فسره قوله وضمه الى صدره وقال له : يا ابن أخى ظلمنى أخوك الراضى وقد طبت نفسا بقولك . ثم خلع نفسه وأنفذ اليه مائة ألف دينار من دفائن كانت عنده وفى أيامه عمر جامع براثا (هو اليوم مسجد المنطقة على طريق الكاظمية) وصليت فيه الجمعة فى جمادى الأولى من سنة ٣٢٩ (شباط ٩٤١ م) وفى سنة ولايته سقطت القبة الخضراء فى بغداد وكانت تاج المدينة ومأثرة بنى العباس وهى من بناء المنصور ارتفاعها ثمانون ذراعا وتحتها ايوان طوله عشرون ذراعا فى عشرين ذراعا وقد مر وصف ما عليها من تمثال الفارس . فسقط رأس هذه القبة فى ليلة ذات مطر ورعد . وفى سنة ٣٣١ وصلت الروم ارزن وميافارقين ونصيبين فقتلوا وسبوا ثم طلبوا منديلا فى كنيسة الرها وهو المنديل الذى مسح به المسيح وجهه فارتسمت صورته فيه ، على أنهم يطلقون جميع من سبوا ، فأرسل اليهم وأطلقوا الأسرى . وفى هذه السنة سار توزون التركى (= طوسون) فقصد بغداد فدخلها فى رمضان فخلع عليه المتقى وولاه أمير الأمراء ثم وقعت الوحشة بين المتقى وتوزون فذهب الخليفة حتى صار فى الرقة فحضر هناك الاخشيد بعد ان بلغه مصالحة توزون فقال للخليفة : أنا عبدك وابن عبدك ، وقد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم . فالله . الله . فى نفسك سر معى الى مصر فهى لك

وتأمن على نفسك . فلم يقبل . فرجع الاخشيد الى بلاده وخرج المتقى من الرقة الى بغداد فى ٤ المحرم سنة ٣٣٣ وخرج للقائه توزون فالتقيا بين الأنبار وهيت فترجل توزون وقبل الأرض فأمره المتقى بالركوب فلم يفعل ومشى بين يديه الى المخيم كالذليل الحقير فلما نزل فيه فى السندية قبض عليه على ابن مقلة ومن معه ثم كحل الخليفة بمسمار محمى وأدخل بغداد مسمول العينين وقد أخذ منه الخاتم والبردة والقضيب وأحضر توزون عبد الله ابن المكتفى وبايعه بالخلافة ولقب المستكفى بالله ثم بايعه المتقى المسمول وأشهد على نفسه بالخلع من ذلك لعشر بقين من المحرم وقيل من صفر ولم يحل الحول على توزون (١) حتى مات واما المتقى فانه أخرج الى جزيرة مقابلة للسندية فسجن بها الى أن مات وكانت مدة سجنه ٢٥ سنة و ٥ ت وفاته فى شعبان سنة ٣٥٧ (يساوى تموز ٩٦٨ م .) وفى أيام المتقى كان ابن حمدى اللص ضمنه ابن شيرازاد لما تغلب على بغداد فى سنة ٣٣٢ اللصوصية بها بخمسة وعشرين ألف دينار فى الشهر فكان يكبس بيوت الناس علنا فى النهار وبالمشعل والشمع بالليل ويأخذ الأموال واذا قاومه المسروق قتله قتلا لساعته وكان هذا اللص رئيس جماعة حسنة التنظيم كثيرة المفاسد فكان الناس يتحارسون ليلا بالبوقات وكان ابن شيرازاد يستوفى ضمانه الشهرى من ابن حمدى بالروزات (أى قسطا يوميا جمع روزة) فعظم شره حينئذ وهذا ما لم يسمع بمثله . ثم ان أبا العباس السكورج الديلمى صاحب الشرطة ببغداد ظفر بابن حمدى و وسطه (أى شقه نصفين من الوسط) فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

وكانت مدة خلافة المتقى ٣ سنين وعمره ستين سنة وأياما ودفن فى دار إسحق بدار البطيخ من محال الجانب الغربى من بغداد .

---

(١) وردت توزون مصحفة فى الكتب التاريخية بصور مختلفة : تورون وتوروز وثورور والصواب ما أوردناه واليوم يسميه الترك طوسون .

المستكفى

هو ابن المكتفى ولد فى صفر سنة ٢٩٢ هـ (–١٧ ك ١ سنة ٩٠٤ م) بالقصر الحسنى امه ام ولد اسمها «غصن» وقيل «أملح الناس» لم تدرك خلافته . بويع له بالخلافة يوم خلع ابن عمه المتقى وعمره اذ ذاك أربعون سنة . ومن العجيب ان هؤلاء الخلفاء يرون كيف يموتون بيد الأتراك ولا يفعلون شيئا ليحتاطوا منهم لانفسهم ولا يتخذون الوسائل الفعالة لسحقهم ومحقهم ، ويعلمون أيضا ان موتهم يكون من شر الميتات ويقبلون مع ذلك الخلافة والامارة التى لم يبق لهم منهما الا الاسم فقط . وفى أيام هذا الخليفة مات توزون التركى أمير الأمراء فى بغداد . أما كاتبه أبو جعفر محمد وقيل زيرك بن شيرازاد فانه طمع فى المملكة ووافقه على مطامعه العسكر والجيوش فاستقل بتدبير الأمور فخلع عليه الخليفة خوفا من شره ثم دخل احمد بن بويه بغداد فاختفى ابن شيرازاد ودخل ابن بويه دار الخلافة فوقف بين يدى الخليفة فخلع عليه ولقبه «معز الدولة» ولقب أخاه عليا «عماد الدولة» واخاهما الحسن «ركن الدولة» والالقاب المعظمة اذا ما ظهرت فى دولة دلت على انحطاطها وقرب زوالها اذ تذهب الحقائق الصادقة ويبقى فيها الرسوم والآثار الكاذبة. ولم يكتف الخليفة بذلك بل ضرب القابهم على السكة ولقب الخليفة نفسه «امام الحق» وضرب ذلك على السكة أيضا . ثم ان معز الدولة قوى امره وحجر على الخليفة وقدر له كل يوم برسم النفقة خمسة الاف درهم فقط وهو اول من ملك العراق من الديلم واول من اظهر السعاة ببغداد وغوى المصارعين والسباحين ، فانهمك شبان بغداد بتعلم المصارعة والسباحة حتى صار السباح يسبح وعلى يده كانون وفوقه قدر فيسبح حتى ينضج اللحم . ثم ان معز الدولة تخيل من المستكفى فتحيل فى قتله . وذلك ان (علم) قهرمانة الخليفة وهى التى سعت فى خلافته صنعت دعوة دعت اليها الديلم فافترص معز الدولة هذه الفرصة للفتك بها وبخليفتها لما يعلم فيها من الذكاء والدهاء فادعى انها تريد مجاذبتهم فى نكث عهدهم فدخل جماعة من الديلم فى ٢٢ من جمادى الآخرة

سنة ٣٣٤ على المستكفى وهو على سدته فقبضوا على القهرمانة وقطعوا لسانها بعد أن تقدم اثنان من الديلم الى الخليفة فمد يده اليهما ظنا انهما يريدان تقبيلها فجذباه من السرير حتى طرحاه الى الأرض وجراه بعمامته وهجم الديلم على دار الخلافة الى الحرم ونهبوها فلم يبق فيها شئ ومضى معز الدولة الى منزله وساقوا الخليفة ماشيا اليه فخلع وسملت عيناه فضمه معز الدولة الى المتقى بالله والقاهر بالله فصاروا ثلاث أثافى العمى ثم احضروا الفضل بن المقتدر واجبروا المستكفى على مبايعة المطيع لله فسلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع ثم سجن الى أن مات يوم الخميس ١٦ من شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٨ ودفن بالرصافة وكانت مدة خلافته الى أن خلع سنة وأربعة أشهر وعمره ٤٦ سنة وشهرين وكان يتظاهر بالتشيع . والتشيع لم يكن يومئذ الا مسألة سياسية لا دينية .

المطيع

المطيع لله هو ابن المقتدر بن المعتضد وأمه أم ولد اسمها شملة وقيل شعلة وقيل شغلة . ولد سنة ٣٠١ فى ٢٤ المحرم (— ٣١ آب ٩١٣) بالقصر الحسنى . بويع له بالخلافة فى ١٢ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ (٢٠ كانون الثانى ٩٤٦) وكان عمره يومئذ ٣٤ سنة وكان تدبير المملكة بيد معز الدولة بن بويه وفى أيام المطيع توفى المعز وقام بعده ولده بختيار وقلده المطيع موضع والده وخلع عليه واستقل بالامور وفى أيامه انقطعت الخطبة فى مصر عن بنى العباس وفى سنة ٣٥٠ (— ٩٦١ م) بنى معز الدولة ببغداد دارا هائلة عظيمة أساسها فى الأرض ست وثلاثون ذراعا . وفى سنة اثنين وخمسين يوم عاشوراء (— ٤ شباط سنة ٩٦٣ م) الزم معز الدولة الناس باغلاق الاسواق ومنع الطباخين من الطبخ ونصبوا القباب فى الأسواق وعلقوا عليها المسوح وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن فى الشوارع ويقمن المأتم على الحسين وهذا أول يوم نيح عليه فى بغداد واستمرت هذه العادة سنين وفى ربيع الآخر سنة ٣٥٩ (— شباط ٩٧٠ م) شرع فى بناء الجامع الازهر فى مصر

وهو أشهر جامع فى الاسلام فى يومنا هذا . وفى سنة ٣٦٢ صادر السلطان بختيار الخليفة المطيع فقال المطيع : انا ليس لى غير الخطبة فان أحببتم اعتزلت فشدد عليه حتى باع قماشه وحمل اليه ٤٠٠ الف درهم وشاع أن الخليفة صودر وفى سنة ٣٦٣ (٩٧٣ م) قلد المطيع القضاء أبا الحسن محمد بن أم شيبان الهاشمى بعد أن تمنع فصار فى البلد الواحد أربعة مشتركون كل منهم يلقب قاضى القضاة ولعل أحد نواب أولئك كان فى حكمه أضعاف ما كان فى حكم الواحد من قضاة القضاة الآن ولقد كان قاضى القضاة اذ ذاك أوسع حكما من سلاطين هذا الزمان . وفى السنة المذكورة حصل للمطيع فالج وكان سبكتكين التركى اكبر حجاب معز الدولة عظيم المنزلة عند سيده حتى بلغت أقصاها وخاف الخليفة منه على نفسه فخلع نفسه طوعا لا كرها وسلم الأمر الى ولده الطائع لله فى يوم الأربعاء ٢٣ ذى القعدة من سنة ٣٦٣ (— ١٦ آب ٩٧٤ م) فكانت مدة خلافته ٢٩ سنة وأشهرا وصار بعد خلعه يسمى الشيخ الفاضل . قال الذهبى : وكان المطيع وابنه مستضعفين مع بنى بويه ولم يزل أمر الخلفاء فى ضعف الى أن استخلف المقتفى لله فانصلح أمر الخلافة قليلا وكان دست الخلافة لبنى عبيد بمصر أميز وكلمتهم أنفذ ومملكتهم تناطح مملكة العباسيين فى وقتهم وخرج المطيع الى واسط مع ولده وتوفى فى دير العاقول الذى بين مدائن كسرى والنعمانية على بعد ١٥ فرسخا من بغداد بالقرب من دير قنى المشهور وكانت وفاته فى المحرم سنة ٣٦٤ (— ايلول ٩٧٤ م) ودفن بالرصافة فى تربة عملها لنفسه عن ٦٣ سنة وكان بين خلعه وموته شهران لا غير

الطائع

هو ابن المطيع على ما مرت الاشارة اليه وكان مولده فى سنة ٣١٧ أمه ام ولد اسمها عتب ويروى عنب ويقال بل كان اسمها هزار ادركت خلافته وكان عمره لما تولى الخلافة ٤٨ سنة ولم يل الخلافة قبله اسن منه وفوض امور المملكة الى عضد الدولة فلما خرج هذا من النوبة انفذ الى

الطائع هدية على ٥٠٠ حمال من جملتها ٥٠ الف دينار فى عشرة اكياس ديباج
أسود والف الف درهم فى مائتى كيس و٥٠٠ ثوب انواعا و٣٠ صينية مذهبة
فيها العنبر والمسك والكافور والعود الهندى والند الى غيرها من الثياب والدواب
لكن ما هذه كلها وأضعاف أضعافها بالآلاف بجنب الخسارة العظمى التى
خسرها الخليفة ببيع قوته وسطوته لواحد من الأعجام لكن الطائع كان صاحب
نعم وما كان يهمه أمر الخلافة اذ كان يطلب الراحة لنفسه والتلذذ بنسائه فكان
قد جمع بين بنت عضد الدولة وبنت عز الدولة بختيار وأصدق كل واحدة
منهما مائة ألف ساد (نوع من ثياب الكتان). وعضد الدولة أول من خوطب
بالاسلام بالملك شاهنشاه من ألقاب القدماء الفرس. وأول من خطب له على
المنابر مع الخلفاء وأول من ضرب الطبل أو الدبداب على بابه أوقات الصلوات
الثلاث. وفى أيامه عمرت بغداد لانها كانت خربت بانفجار البثوق فأمره الطائع
فتولى بنفسه سد بثوق النهروان فسدها فى سنة ٣٦٧ (٩٧٧ م) وأثر عضد
الدولة فى أيام الطائع آثارا جميلة وعمارات كثيرة وغرس الاشجار وأخر
الخراج ورفعت الجباية عن قوافل الحجيج وكثر در الانوات والرسوم
والصلات للفقهاء والعلماء والفقراء والادباء ورغب الناس فى الاشتغال
بالعلوم لكثرة الهبات والعطاء ولهذا لم يجمع فى زمن من الازمان كما اجتمع
فى الدولة البويهية من سائر أرباب العلوم والفنون والصنائع وكانت فى أيامه
الارتفاعات جمة والأموال وافرة ومن آثاره التى تحدث بها البيمارستان العضدى
بالجانب الغربى من بغداد فى خراب دار ابن حمدان وكان (بجكم) قبله حاول
ذلك فلم يقدر عليه وعمل قنطرتى الصراة وسور مدينة يثرب . وعمل غير هذا
من المصانع والآثار الخالدة وفى سنة ٣٦٧ التقى عز الدولة وعضد الدولة فظفر
عضد الدولة وأخذ عز الدولة أسيرا وقتله بعد ذلك فخلع الطائع على القاتل
خلع السلطنة كأنه يشجعه على ارتكاب المنكرات ولا يعلم أنه بهذه الخلع بعد
القتل تجرئ عضد الدولة أو تجرئ ابنه نصرا الملقب ببهاء الدولة على خلعه يوما

كما سنراه ولم يكتف بأن خلع عليه خلع السلطنة بل توجه بتاج مجوهر
وطوقه وسوره على ما جرت العادة عليه فى ذلك العصر وقلده سيفا
وعقد له لواءين بيده أحدهما مفضض على رسم الامراء والآخر مذهب على
رسم ولاة العهود ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغيره قبله وكتب له عهدا وقرئ
بحضرته ولم يبق أحدا الا تعجب ولم تجر العادة بذلك انما كان يدفع العهد
الى الولاة بحضرة أمير المؤمنين فاذا أخذه قال أمير المؤمنين: « هذا عهدى
اليك فاعمل به » . وفى سنة ٣٧٥ هـ (- ٩٨٥ م) هم صمصام الدولة بن عضد
الدولة الذى ولى الملك وولاية العهد بعد وفاة أبيه فى سنة ٣٧٢ أن يجعل
المكس على ثياب الحرير والقطن مما ينسج ببغداد ونواحيها ووقع له فى ضمان
ذلك مليون درهم فى السنة مما يدل على أن صناعة الانسجة أو الحياكة كانت
قد بلغت مبلغا عظيما فى دار السلام . لكن اجتمع الناس فى جامع المنصور على
صورة ما نسميه اليوم « بالمظاهرة او المعالنة الوطنية » وعزموا على المنع من
صلاة الجمعة وكاد البلد يفتتن فاعفاهم من ضمان ذلك . وفى سنة ٣٧٦ قصد
شرف الدولة أخاه صمصام الدولة فانتصر عليه وكحله ومال العسكر الى شرف
الدولة فقدم بغداد وركب الطائع اليه يهنئه بالبلاد وعهد اليه بالسلطنة
وتوجه وقرئ عهده والطائع. الى هذه الدرجة وصل ضعف الخليفة أنه يكافىء
أعظم مكافأة فى الأرض لمن يجترح اثما هو كالقتل بل أشنع وفى سنة ٣٧٨ هـ
(٩٨٨ م) أمر شرف الدولة برصد الكواكب السبعة فى سيرها كما فعل المأمون
وفى سنة ٣٧٩ هـ مات شرف الدولة وعهد الى أخيه « أبى نصر » فجاءه الطائع
الى دار المملكة يعزيه فقبل الأرض أبو نصر غير مرة ثم ركب الى الخليفة
وحضر الأعيان فخلع الطائع على أبى نصر سبع خلع اعلاها سوداء وعمامة سوداء
وفى عنقه طوق كبير وفى يده سواران ومشى الحجاب بين يديه بالسيوف المشهورة
ثم قبل الأرض بين يدى الطائع وجلس على كرسى وقرئ عهده ولقبه الطائع

« بهاء الدولة وضياء الملة » وبعد سنتين قام بهاء الدولة على الطائع كما هو المنتظر من كل زنيم لئيم رفع قدره وخلعه وتحرير الخبر أن الخليفة حبس رجلا من خواص بهاء الدولة فجاء هذا وقد جلس الطائع فى الرواق متقلدا سيفا . فلما قرب بهاء الدولة قبل الأرض دهاء ورياء وخبثا ونكرا ثم جلس على كرسى . فتقدم أصحاب بهاء الدولة فجذبوا الطائع من سريره وتكاثر عليه الديلم فلفوه فى كساء وأصعد الى دار السلطنة وارتج البلد ورجع بهاء الدولة وكتب على الطائع ايمانا بخلع نفسه وانه سلم الأمر الى القادر بالله وأشهد عليه الأكابر والأشراف وذلك فى ١٩ شهر شعبان ٣٨١ هـ (١ ت ٢ سنة ٩٩١ م) وأنفذ الى القادر بالله ليحضر وكان بالبطيحة واستمر الطائع فى دار القادر بالله الى أن مات ليلة عيد الفطر سنة ٣٩٣ هـ (٣٠ ايلول ١٠٠٣ م) ودفن فى تربة بالرصافة وكان شديد الانحراف على آل ابى طالب وسقطت الهيبة فى أيامه جدا حتى هجاه الشعراء وكانت خلافته ١٧ سنة و٩ أشهر وعمره ٧٨ سنة .

القادر

وقام بعده أبو العباس أحمد ابن الأمير اسحق بن جعفر المقتدر مولده فى سنة ٣٣٦ هـ (يساوى ٩٤٧ م) أمه أم ولد اسمها يمن وقيل تمنى وقيل دمنة مولاة عبد الواحد بن المقتدر وكانت من أهل الدين والصلاح بويع له بالخلافة بعد خلع الطائع وكان فى البطيحة فقدم بغداد فى ١١ رمضان ٣٨١ هـ (يساوى ٢٢ ت ٢ سنة ٩٩١ م) وكان رجلا دينا كثير التهجد والصدقات حسن الطريقة وقد صنف كتابا فى الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن وكان ذلك الكتاب يقرأ فى كل جمعة فى حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى وبحضرة الناس وله شعر أيضا وفى سنة ٣٨٢ (يساوى ٩٩٢ م) ابتاع الوزير أبو نصر سابور أردشير دارا بالكرخ فى محلة « بين السورين » ومن أحسن محالها وأعمرها وسماها « دار العلم » ووقفها على العلماء ووقف بها كتبا كثيرة لم تكن فى الدنيا أحسن كتبا منها كانت كلها

بخطوط الأئمة المعتبرين وأصولهم المحررة وهى التى أحرقت بعد ذلك فى ما أحرق من محال الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ (يساوى ١٠٥٥ م) . توفى القادر فى ١١ ذى الحجة من سنة ٤٢٢ (يساوى ١٩ ت ٢ ١٠٣١ م) عن ٨٧ سنة ومدة خلافته ٤١ سنة و٣ اشهر ودفن بدار الخلافة الى أن نقل تابوته الى تربة الرصافة التى عليها شغب أم المقتدر وهو أول خليفة دفن فيها .

القائم

هو ابن الخليفة المتوفى ولد يوم الجمعة ١٧ ذى القعدة سنة ٣٩١ (يساوى ١٠ ت ١ سنة ١٠٠١ م) أمه أم ولد أرمنية اسمها « بدر الدجى » وقيل : « قطر الندى » أدركت خلافته وولى الخلافة عند موت أبيه وكان ولى عهده فى الحياة وهو الذى لقبه بالقائم بأمر الله وخطب له سنة ٤٢١ (يساوى ١٠٣٠ م) بدار الشجرة من دار الخلافة وكان القائم ورعا دينا زاهدا عالما قوى اليقين بالله كثير الصدقة والصبر كثير العبادة متهجدا لاينام الا مغلوبا عليه ونقل عنه انه ما نام على فراش ولا تدثر بدثار مذ ولى الخلافة فعوتب فى ذلك فقال سمعت الدعاة يقولون بالصوام القوام فاستحيت من الله أن أوصف بصفة ليست فى . وكان لمحبة أرباب الدين يغرز يه ويحضر مجالس أبى الحسن القزوينى فى محلة الحربية ويكثر غشيانه وكانت له عناية بالأدب ولم يكن يرتضى اكثرما ينشأ بالديوان حتى يصلح فيه أشياء . وفى أيامه قدم أبو طالب محمد بن ميكال السلجوقى المعروف بطغرلبك بغداد استدعاه القائم من خراسان وذلك عند ضعف بهاء الدولة أى نصر بن عضد الدولة عن مصالح الدول القائمة وهو آخر من كان من ملوك الديلم كما ان طغرلبك هو أول من دخل بغداد من ملوك السلجوقية وكان السبب فى ذلك ان أرسلان التركى البساسيرى أمير الجيوش كان قد عظم أمره لعدم نظرائه وتهيبته أمراء العرب والعجم ودعى له على المنابر وجبى الأموال وخرب القرى ولم يكن القائم يقطع أمرا دونه . ثم صح

عنده سوء عقيدته وبلغه انه عزم على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة فكاتب الخليفة ابا طالب محمد بن ميكال سلطان ترك الغز المعروف بطغرلبك وهو بالري يستنهضه في القدوم فقدم في سنة ٤٤٧ فذهب البساسيري الى الرحبة وتلاحق به خلق من الأتراك وكاتب صاحب مصر فأمده بالاموال استعان بها على الجمع والتجنيد فاجتمع له أوباش الناس وزحف البساسيري من الموصل وقد انضم اليه كل قاطع طريق وراغب في النهب والغارة فقدم بغداد في سنة ٤٥٠ (١٠٥٨ م) ومعه أتباعه وكان قد قصدها من ناحية الانبار وملك الجانب الغربي ونزل على دجلة مقابل باب الطاق وعقد جسرا وعبر الى الجانب الشرقي ونزل بالزاهر ثم زحف بمن معه ودخل البلد فخاصم عامة البلد وضعفوا عنه فأضرم النيران في الأسواق ونهب وانتهى الى دار الخلافة فنهب منها ماقدر عليه وخرج الامام القائم بأمر الله في نفر من خدمه فحماه قريش بن بدران أمير الموصل وكان مع البساسيري وعبر في خدمته الى الجانب الغربي وسيره محروسا الى عانة وأنزله على عم له هو مهارش بن مجلي فقام بخدمته مدة مقامه عنده وذلك سنة كاملة . ثم أن طغرلبك فرغ من قتال أخيه ينال حتى ظفر به وقتله وبلغه ماجرى في بغداد فتوجه اليها بعساكره وأنفذ الى القائم من أعاده الى بغداد وكان لما عرف البساسيري قرب طغرلبك من بغداد خرج عنها هاربا نحو واسط فأتبعه طغرلبك عسكرا ظفروا به وأحضروا رأسه ودخل الخليفة يوم الاثنين ٢٥ ذي القعدة سنة ٤٥١ (٣ ك ٢ سنة ١٠٦٠ م) ولما وصل القائم الى باب النوبي نزل طغرلبك عن دابته وأخذ بلجام بغلة القائم ومشى بين يديه حتى نزل بباب الحجرة وخدم وعاد وأعاد الله القائم بأمره الى مستقر عزه وذلك بعد سنة كاملة وأقيمت الخطبة في غيبته للمصريين في كل الجوامع إلا جامع الخليفة وزيد في الأذان « حي على خير العمل » وبقيت عامة بغداد تضرب البساسيري مثلا في تفخيم الأمر فيقولون « كأنه قد جاء برأس البساسيري » وإذا أكرهوا

أمرا من ظلم أو عسف قالوا : « الخليفة اذا في عانة حتى يفعل كذا » وفي سنة ٤٥٤ (١٠٦٣ م) زوج الخليفة بنته لطغرلبك بعد أن دافع بكل ممكن وانزعج واستعفى ثم لان لذلك برغم منه وهذا امر لم ينله أحد من ملوك بني بويه مع قهرهم الخلفاء وتحكمهم فيهم . وقدم طغرلبك في سنة خمس فدخل بابنة الخليفة وأعاد المواريث والمكوس وضمن بغداد بمائة وخمسين ألف دينار ثم رجع الى الري فمات بها في رمضان وأقيم في السلطنة بعده ابن أخيه عضد الدولة الب صاحب خراسان وبعث اليه القائم بالخلع والتقليد وهو أول من ذكر بالسلطان على منابر بغداد وبلغ ما لم يبلغه أحد من الملوك وافتتح بلادا كثيرة من ديار النصارى واستوزر نظام الملك فأبطل ما كان عليه الوزير قبله عميد الملك من سب الاشعرية وانتصر للشافعية واكرم امام الحرمين وأبا القاسم القشيري وبنى النظامية وهي أول مدرسة بنيت في بغداد للفقهاء . وفي سنة ٤٦٥ (١٠٧٢ م) قتل السلطان الب أرسلان وقام في الملك بعده ولده ملكشاه ولقب جلال الدولة وورد تدبير الملك الى نظام الملك ولقبه الاتابك وهو أول من لقب ومعناه « الامير الوالد » . وفي سنة ٤٦٦ (١٠٧٣ م) كان الغرق العظيم ببغداد وزادت دجلة ثلاثين ذراعا ولم يقع مثل ذلك قط وهلكت الاموال والانفس والدواب وركبت الناس في السفن واقيمت الجمعة في الطيار (ضرب من السفن كانت سابقا في دجلة) على وجه الماء مرتين وأقام الخليفة يتضرع الى الله وانهدم مائة ألف دار أو أكثر وفي سنة ٤٦٧ (١٠٧٥ م) مات الخليفة ليلة الخميس ١٣ شعبان (٤ نيسان) وذلك أنه افتصد ونام فانحل موضع الفصد وخرج منه دم عبيط كثير فاستيقظ وقد انحلت قوته فطلب حفيده ولي العهد عبد الله بن محمد ووصاه ثم توفي ودفن في حجرة كانت برسم جلوسه بدار الخلافة ثم نقل الى تربة الرصافة وقبره كان يزار يومئذ ويتبرك به وكانت مدة خلافته ٤٤ سنة و ٨ أشهر ولم يبلغ هذه المدة خليفة قبله وكان

عمره ٧٥ سنة و٩ اشهر ومدة خلافته وخلافة ابيه القادر بقدر مدة جميع خلفاء بنى امية لأنها خمس وثمانون سنة وكانوا أربعة عشر من معاوية الى محمد ابن مروان فان ايام الدول لاتطول الا بالعدل ولاتحفظ الا بازالة الظلم .

وفى عهده انقرضت دولة بنى بويه وقامت دولة السلجوقيين فلا بد من ان نذكر شيئا عن كل منهما

دولة بنى بويه او دولة الديلم

نشأت هذه الدولة الشيعية فى بلاد فارس لانتشار دعوة المطالبين بالخلافة للعلويين بعد أن ثبت لهم ان العباسين لايريدون أن يشاركوا فيها أحدا من غير بيتهم . وكان قد قام عدة دعاة يطالبون بالخلافة فقاتلهم بنو العباس حتى افنوهم . ثم نهضت شرذمة فى بلاد فارس وجرجان وطبرستان وخرجت على العباسيين حتى كانت لها جيوش وقواد واغلب هذه الجيوش والقواد من الديلم وهم جيل من الفرس . فلما انقرضت دولة أولئك العلويين الخارجين على بنى العباس بقى منها القواد الذين كانوا على رؤوس الجيوش ولهم حول وطول وشوكة يستولون بها على كثير من البلاد والممالك . ومن أولئك القواد اسفار ابن شيرويه وماكان بن كالى ومرداويج بن زياد وليلى بن النعمان وكان بنو بويه قوادا من اتباع اولئك القواد فكانوا فى أمرهم مع ماكان ابن كالى ثم انفصلوا عنه وانضموا الى مرداويج . فلما رأوا نجاحهم وان الاقدار معهم والسعد يخدمهم فارقوه على أن يحاربوا لأنفسهم لتمكين سلطتهم فى البلاد فنجحوا حتى تغلبوا على ممالك اولئك القواد بعد محاربات جمة كان الفوز فيها أليفهم فطمعوا حينئذ فيما هو وراء هذا النصر حتى تغلبوا على الخلفاء فكان لهم الأمر والنهى والتصرف فى الخيانة والمكوس وتجييش الجيوش وابقوا للخلفاء الاسم والدعاء على المنابر والتعليم عل المناشير وكتابة أسمائهم

على سكة الدراهم والدنانير بل انتهت بهم القحة الى تقدير الراتب للخليفة ومنعه عن التدخل بأمور المملكة أو السلطنة فكان الخلفاء فى مدة ملكهم كرات تتقاذفها صوالجهم على ماشاءت أهواؤهم أو هجس فى خواطرهم فكانوا يعزلون ويسملون ويقتلون ويعذبون من أرادوا من الخلفاء وينصبون على سرير الخلافة من أحبوا . ولما كانوا فى أوج عزهم انتحلوا لهم نسبا حتى رقوه الى بهرام جور من الملوك الأكاسرة وقد وافقهم على رأيهم بعض المصانعين المملقين تزلفا منهم فوضع أبو اسحاق الصابئ كتابا سماه التاجى ولاعجب من هذا الأمر فان انتحال الحديثى النعمة شرف الرفيع لأنفسهم وموافقة الناس لهم على رأيهم امر قديم فى الشرق منذ عهد البابليين والأشوريين وهو راسخ الاصول الى يومنا هذا يعم الرفيع والوضيع . على أن المرجح هو أن أبا شجاع بويه بن فناخسرو يتصل نسبه بهرنرسى وزير بهرام جور الأول ولم يتأثل ملك هذه الدولة الا بسعى أولاد أبى شجاع المذكور الثلاثة أى فى سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) ولم ينقرض الا سنة ٤٤٧ هـ (٩٥٨ م) فتكون دولتهم قد دامت ١٢٦ سنة قمرية أما أولاد أبى شجاع فهم أبو الحسن على بن بويه الذى لقب عماد الدولة وأبو على الحسن بن بويه الملقب بركن الدولة وأبو الحسين أحمد بن بويه الملقب بعز الدولة وقد بسطنا فى ما سبق من الكلام ما كان لهؤلاء الاخوة من النفوذ فى وقتهم ومن الاعمال التى أتوها حتى ملكوا العراقين والاهواز وطبرستان وجرجان وماكان من السيطرة على العباسيين حتى اشتهر أمرهم ولما دخل معز الدولة بغداد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) وخلع المستكفى بالله أراد أن ينزع الخلافة من العباسيين ويقلدها العلويين ولما أوشك أن يبايع واحدا من اهل البيت قال له بعض خواص أصحابه ليس هذا برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو

أمرهم بقتلك لفعلوه فأعرض عن ذلك وأقام المطيع خليفة بدل المستكفي المخلوع .

ومما ساعد البويهيين في سعدهم ورفع منار عزمهم عثور كبيرهم عماد الدولة على اموال طائلة كانت منها في سقف البيت الذى كان فيه عماد الدولة نفسه ومنها وديعة ١٢ صندوقا وجدها عند خياط اطروش ومنها كنز ساخت فيه قوائم فرسه . ثم ان هؤلاء الملوك أرادوا أن يعارضوا دولة بنى العباس فى فخامتها وجلالتها ومكانتها وحاولوا أن يتبسطوا في الحضارة والعمران والبذخ والزهو . والملوك اذا أرادوا هذه الأمور أو أن يمعنوا في العزة والعظمة عالجوها باستنطاق المستقبل ليعرفوا ما يخبأه لهم الزمان فى مطاوى لياليه من مكنونات الأسرار أو ليقفوا على مدة أعمارهم فى هذه الدنيا ثم يتطاولون الى البحث عما وراء هذا الكون ليشرفوا على ما في هوّته من مذخر غوامضه وهذا كله لا يحققه لهم الا العلم والتنقير عن مستورات الطبيعة ومحتجباتها ولهذا أخذوا ينشرون الوية المعارف والصنائع فى البلاد ويبثون فى الامة روح السعى الكمال والمحمدة فنشطوا العلماء والادباء والحكماء والشعراء فكان عصرهم من ابهى العصور اذ نبغ فيه أعظم المشاهير حتى ان القارئ ليسأل نفسه اذا ما وقف على أسماء اولئك النوابغ : أى عصر كان أنفع للحضارة والعلم والعمران، أعصر الرشيد والمأمون أم عصر بنى بويه ؟ — على ان المطالع لا يستطيع أن يحكم فى هذه المسألة الا اذا وقف على اسماء بعض اولئك العبقريين الدواهى الذين منهم :

الخرقى شيخ الحنابلة ، وأبو بكر الشبلى الصوفى وابن القاضى امام الشافعية وأبو بكر الصولى . والهيثم بن كليب الشاشى . وأبو جعفر النحاس . وأبو نصر الفارابى وابو اسحق المروزى امام الشافعيـة وأبو القاسم الزجاجى النحوى والدينورى صاحب المجالسة والمسعودى صاحب مروج الذهب وابن

درستويه وأبو على الطبرى أول من جرد الخلاف والفاكهى صاحب تاريخ مكة والمتنبي وابن حبان صاحب الصحيح وأبو على القالى وأبو الفرج صاحب الاغانى والسيرافى النحوى وابن خالويه والأزهرى امام اللغة وابن العميد والفارابى صاحب ديوان الأدب والرفاء الشاعر وأبو على الفارسى النحوى . وكان أيضاً فى العصر البويهى : رأس الوزراء الصاحب بن عباد . ورأس الاشعرية أبو اسحق الاسفرائيني . ورأس المعتزلة القاضى عبد الجبار . ورأس الشيعة الشيخ المفيد . ورأس الكرامية محمد بن الهيصم . ورأس القراء أبو الحسن الحمامى ورأس المحدثين الحافظ عبد الغنى بن سعيد . ورأس الصوفية أبو عبد الرحمن السلمى . ورأس الشعراء أبو عمر بن دراج . ورأس المجودين ابن البواب . ورأس الملوك محمود بن سبكتكين . وراس الزنادقة الحاكم بأمر الله ورأس اللغويين الجوهرى . ورأس النحاة ابن جنى . وراس البلغاء بديع الزمان الهمذانى . ورأس الخطباء ابن نباتة و رأس المفسرين أبو القاسم بن حبيب النيسابورى . ورأس الخلفاء القادر بالله فانه من أعلامهم تفقه وصنف .

ثم جاء بعد هذه الطبقة طبقة لا تقل عنها شأنا ولا علما منها أبو الفضل الفلكى . والقدورى شيخ الحنفية وابن سينا شيخ الفلاسفة ومهيار الشاعر الذى لا يجارى والبراذعى المالكى صاحب التهذيب والثعلبى المفسر والماوردى وابن حزم الظاهرى وابن سيده صاحب المحكم والخطيب البغدادى وابن رشيق صاحب العمدة وعبد القاهر الجرجانى والأعلم النحوى ولو أردنا سرد أسماء فطاحل ذلك العصر لطال بنا الكلام وخرجنا عن حدود الاعتدال وما ذكرنا كفاية . ومما يدل على ان بنى بويه أرادوا أن يضارعوا كبار العباسيين فى أعمالهم ان شرف الدولة امر برصد الكواكب السبعة كما فعل المأمون على ما المعنا اليه وكان ذلك فى عهد الطائع لله فى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) وهى همة عالية تتقاصر دونها همم كبار الرجال وفحول الاجيال .

الا أن مع هذه المحاسن كلها التى كانت فى بنى بويه فان الظلم كان يتراءى خلال أعمالهم ولهذا لم تطل مدة دولتهم لأن تعمير الدول قرين العدل والظلم من العوامل الفعالة فى ازالتها ومحوها من عالم الوجود .

دولة السلاجقة

دان كبيرهم سلجوق بن دقاق بالاسلام منذ ان فارق بيغوخان ملك الترك واحتل دار المسلمين فى القرن العاشر للميلاد . وكان من هؤلاء الترك كثير فى قصور الخلفاء العباسيين وبقوا خاضعين لخمس دول نشأت فى فارس وكرمان والشام وحلب وبلاد الروم وأعظم من اشتهر منهم فى الحروب والغزوات والفتوح طغرلبك والب ارسلان . الا انه لم يقم فيهم من نشط العلم والعلماء اذ أن عنصر الترك مخرب ومدمر لا مشيد ومعمر وهو عار من الخصال الحميدة مشهور بالخصال الذميمة . غير انه نهض فى عهد السلطان الب ارسلان وابنه ملكشاه وزير كبير خطير فارسى المحتد . طوسى المولد . دهقانى الدم . هو خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك ابى على الحسن بن على بن اسحق رضى قرين أيامهم بما أبقاه من الآثار الجليلة التى تطيب ذكره فكان يلاطف الجميع ويعاملهم أحسن معاملة . حتى مشى فى ركابه سلطان العرب مسلم بن قريش وكان ملوك الأطراف يقبلون كتفه اجلالا له ويتشرفون بلبس خلعه . وبقى فى صدر الوزارة ثلاثين سنة . وفى أيامه كان الآباء يعنون بتربية أبنائهم ليحضروهم فى مجلسه لانه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له بمقدار ما يرى فيه من الفضل والكمال . ومن وجده فى بلدة قد امتاز بعلمه وأدبه بنى له مدرسة ووقف عليها وقفا وأنشأ فيها دار كتب . والمدرسة التى طبقت شهرته فى الخافقين هى النظامية فى بغداد على ما أشرنا اليها وعلى مثالها انشأ الخلفاء بعده مدارسهم . وظهر من تدبيره فى سياسة الممالك ما بعث سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموى الى ان يقول عن الأعاجم كلامه المشهور الذى يعاد عند ذكر كل نابغة

من نوابغهم : « عجبت لهؤلاء الاعاجم . ملكوا الف سنة فلم يحتاجوا الينا ساعة . وملكنا مائة سنة فلم نستغن عنهم ساعة » . وفى زمن نظام الملك نشأت طبقات الكتاب المجيدين مثل : ابن الصباغ صاحب الشامل وأبو الوليد الباجى والشيخ أبو اسحاق الشيرازى والمتولى وامام الحرمين والدامغانى الحنفى وابن فضالة المجاشعى والبزدوى شيخ الحنفية والكيا الهراسى والشاشى والابيوردى اللغوى وأبو نعيم صاحب الحلية وابو زيد الدبوسى وأبو الحسين البصرى المعتزلى ومكى صاحب الاعراب والشيخ أبو محمد الجوينى والمهدوى صاحب التفسير والاقليلى والثمانينى وأبو عمرو الدوانى والخليل صاحب الارشاد وسليم الرازى وابو عثمان الصابونى وابن بطال شارح البخارى والقاضى ابو الطيب الطبرى وابن شيطى المقرئ وابن بابشاذ والقضاعى صاحب الشهاب وابن برهان النحوى والبيهقى والهذلى صاحب الكامل فى القراءات وغيرهم ولم يزل باب الوزير مجمع الفضلاء وملجأ العلماء حتى قتل . اعترضه يوما فى طريقه صبى بهيئة صوفى معه قصة فدعاه وسأله وتناولها فمد يده ليأخذها فضربه بسكين فى فؤاده فحمل الى قصره فمات وقتل القاتل فى الحال وقيل ان السلطان هو الذى دس عليه من قتله فانه سئم طول حياته واستكثر ما بيده من الاقطاعات .

وامتدت رقعة السلطنة السلجوقية فى نحو أواخر القرن الحادى عشر للميلاد من بحر قزوين الى بحر الروم ومن بلاد كاشغر الى ديار اليمن وكان فيها من الامصار : اصبهان ونيسابور وبلخ وهراة وبغداد والموصل . وأخذ الاختلال يدب فى هذه المملكة العريضة الواسعة الارجاء فى عهد ملكشاه . وبعد وفاة سنجر (فى القرن الثانى عشر للميلاد) وهو آخر ابناء ملكشاه قسمت المملكة بين الأمراء الغورية والخوارزمية والأتابكية . ومما عجل فى انتقاضها المعارك الداخلية ومحاربات الصليبيين وغزوات المغول (فى عصرى جنكيزخان وهلاكو) حتى قضت على مملكة السلاجقة فى بلاد الروم فانقرضت دولتهم فى سنة ١٣٠٧

مع علاء الدين الثالث فتجزأت حتى صارت نحو عشرة اجزاء استقل كل منها بنفسه ثم اضمحل الكل فى المائة الرابعة عشرة للميلاد .

المقتدى

المقتدى هو أبو القاسم عبدالله ابن الأمير محمد الذخيرة بن القائم بأمر الله . مولده يوم الأربعاء ١٨ جمادى الأولى من سنة ٤٧٠ هـ (٨ ك ١ سنة ١٠٧٧ م) أمه ام ولد أرمنية اسمها « ارجوان » وتدعى « قرة العين » ادركت خلافته وخلافة ولده المستظهر وخلافة ولد ولده المسترشد بالله وكانت صالحة. بويع له فى صبيحة الليلة التى توفى فيها جدّه القائم وعمره ١٩ سنة وجلس بدار الشجرة من دار الخلافة بقميص أبيض وعمامة بيضاء وطرحة بيضاء فبايعه وجوه الأشراف والفقهاء . وفى أيامه بنى جامع المدينة وما شاء الله من القناطر والمصانع فى طريق مكة وحفر الأنهار التى كانت قد خربت كنهر شيلى والخالص ونهر « بين » والاسحاق وهو الذى بنى منارة القرون فى السبيعة بقرب الواقصة من قرون الظباء وحوافر الحمر الوحشية على مثال مافعل سابور بن أردشير بانى منارة الحوافر فى قرية أسفجين فى رستاق همذان ويقال إن صاحب هذه الآثار كلها السلطان جلال الدولة ملكشاه بن الب ارسلان . ومن محاسنه انه نفى المغنيات والخواطئ من بغداد وأمر أن لايدخل أحد الحمام الا بمئزر وخرب أبراج الحمام فى بيوت الناس صيانة لحرم الغير . وفى سنة خلافته جمع نظام الملك المنجمين وجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل وكان قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت وصار مافعله النظام مبدأ التقاويم وفى سنة ٤٧٦ ولى الخليفة أبا شجاع محمد بن الحسين الوزارة ولقبه ظهير الدين وكان أول حدوث التلقيب بالاضافة الى الدين . وفى سنة ٤٨٣ (١٠٩٠ م) أنشئت ببغداد مدرسة لتاج الملك مستوفى الدولة بباب ابرز ودرس بها ابو بكر الشاشى . وهى المدرسة التى اشتهرت بعد ذلك

باسم المدرسة التاجية . وفى سنة ٤٨٤ قدم السلطان ملكشاه بغداد وأمر بعمل جامع كبير بها واتخذ الأمراء حوله دورا ينزلونها . توفى المقتدى ليلة السبت ١٥ المحرم من سنة ٤٨٧ (٥ شباط ١٠٩٤ م) بغتة فقيل إن جاريته « شمس النهار » سمته فكتم موته ثلاثة أيام وبويع لولده المستظهر ولى عهده ودفن بدار الخلافة ثم نقل الى تربة الرصافة فدفن بها وكانت خلافته ١٩ سنة و ٨ أشهر و ٩ أيام .

المستظهر

هو ابو العباس احمد ولد ليلة السبت ١٨ شوال سنة ٤٧٠ (٦ نيسان سنة ١٠٧٨) امه ام ولد اسمها « كلبهار » وبويع بعد وفاة أبيه وعمره ١٦ سنة ولم تصف له الخلافة بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب وكان لين الجانب كريم الأخلاق يسارع فى أعمال البر حسن الخط جيد التوقيعات لايقارنه فيها أحد وكان ذا فضل غزير وعلم واسع سمحا جوادا محبا للعلماء والصلحاء وفى سنة ٤٩٤ (١١٠١ م) كثر أمر الباطنية العراق وقتلهم الناس واشتد الطلب بهم حتى كان الأمراء يلبسون الدروع تحت ثيابهم وقتلوا خلائق جمة. وكانت وفاة المستظهر فى يوم الأربعاء ٢٣ من شهر ربيع الأول من سنة ٥١٢ هـ (١٥ تموز ١١١٨ م) عن ٤١ سنة و ٣ أشهر و ١١ يوما ودفن بدار الخلافة ثم نقل الى الرصافة فدفن بها .

المسترشد

ولد يوم الاربعاء ١٤ ر ع الاول سنة ٤٨٥ هـ (٢٥ نيسان ١٠٩٢ م) أمه أم ولد اسمها « لبابة » بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه . كان ذا همة عالية وشهامة زائدة واقدام ورأى وهيبة شديدة ضبط امور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب وأحيا رسم الخلافة وشيد أركانها وباشر الحروب بنفسه وخرج عدة

مرار الى الحلة والموصل وطريق خراسان الى أن خرج المرة الاخيرة وكسر جيشه بقرب همذان وأخذ أسيرا الى أذربيجان وكان مليح الخط ما كتب أحد من الخلفاء قبله مثله يستدرك على كتابه ويصلح أغاليط فى كتبهم وفى أيامه خطب لمسعود بالسلطنة فى بغداد . ومن بعده لداود وخلع الخليفة عليهما ثم وقعت الوحشة بين الخليفة ومسعود فخرج لقتاله فالتقى الجمعان وغدر بالخليفة أكثر جنده فظفر به مسعود وأسره مع خواصه فلما بلغ الخبر أهل بغداد حثوا التراب على رؤوسهم فى الأسواق وبكوا وضجوا وخرجت النساء حاسرات يندبن الخليفة فامتنعت الصلاة والخطبة . ثم هجم سبعة عشر رجلا من الباطنية حيث كان الخليفة فقتلوه فى خيمته مع جماعة من اصحابه فما شعر بهم الجند الا وقد فرغوا من شغلهم فأخذوهم وقتلوهم . وجاء الخبر الى بغداد فاشتد وقعه على الناس وخرجوا حفاة مخرقى الثياب والنساء ناشرات الشعور يلطمن وينشدن المراثى لأن المستشهد كان محببا فيهم ببره وحسن أخلاقه وآدابه ونقلت جثته من سرادقه الى باب مراغة ودفن فيها . وكانت مدة خلافته ١٧ سنة و٨ أشهر وأياما وعمره ٤٥ سنة

الراشد

ولد سنة ٥٠٢ (١١٠٨ م) امه ام ولد اسمها « جلنار » بويع بالخلافة يوم وصل نعى والده أى يوم الاثنين ٧ ذى القعدة من سنة ٥٢٩ (٢٠ آب ١١٣٥ م) وكان فصيحا أديبا شاعرا شجاعا جوادا حسن السيرة يوثر العدل ويكره الشر خلع بعد دخول السلطان مسعود بغداد وخروج الخليفة الى الموصل وكان خلعه يوم الاثنين ١٦ ذى القعدة سنة ٥٣٠ (١٧ آب ١١٣٦ م) وبايعوا عمه محمد بن المستظهر ولقب المقتفى لأمر الله . ومرض الراشد بظاهر اصبهان مرضا شديدا فدخل عليه جماعة من العجم كانوا فراشين له فقتلوه بالسكاكين ثم قتلوا كلهم وذلك فى ١٦ رمضان سنة

٥٣٢ (٢٩ أيار ١١٣٨ م) ولم تؤخذ البردة والقضيب من الراشد حتى قتل فأحضرا بعد قتله الى المقتفى فلما وصل نعيه الى بغداد قعد له فى العزاء يوم واحد .

المقتفى

ولد فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٤٨٩ (٢٨ آذار ١٠٩٦ م) امه ام ولد اسمها « نزهة » حبشية ادركت خلافته بويع له بعد خلع الراشد . وكانت أيامه نضرة بالعدل وانتشار العلوم وكان على قدم من العبادة قبل افضاء الامر اليه وبعده ولم ير بعد المعتصم خليفة فى شجاعته وصرامته مع لين جانب ورافة فى لطافة . وفى سنة ٥٤١ (١١٤ م) جلس ابن العبادى الواعظ فحضر السلطان مسعود وكان قد جاء بغداد تلك السنة وتعرض ابن العبادى بذكر مكس البيع وما جرى على الناس ثم قال «ياسلطان العالم . انت تهب فى ليلة لمطرب بقدر هذا الذى يؤخذ من المسلمين فاحسبنى ذلك المطرب وهبه لى واجعله شكرا لله بما أنعم عليك . فأجاب ونودى فى البلد باسقاطه . وطيف بالألواح التى نقش عليها ترك المكوس وبين يديه الدبادب (الطبول) والبوقات وسموت ولم تزل الى أن أمر الناصر لدين الله بقلع الألواح وقال : «مالنا حاجة بآثار العجم . وهنا نلاحظ أن نشر امور السلاطين على الألواح كما يرى اليوم نشرها على الجرائد والصاقها على الحيطان مما قد عرفه العرب فى عهد العباسيين . وقد جدد المقتفى بابا للكعبة واتخذ من العقيق تابوتا لدفنه . وفى أيامه عادت بغداد والعراق الى يد الخلفاء ولم يبق لهما منازع وقبل ذلك منذ دولة المقتدر الى وقته كان الحكم للتغلبين من الملوك وليس للخليفة معهم الا اسم الخلافة توفى ليلة الأحد ١٢ ربيع الأول من سنة ٥٥٥ عن ٦٦ سنة (٢٣ آذار ١١٦٠ م) الا اياما وكانت خلافته ٢٤ سنة و٣ أشهر و ١٤ يوما ودفن فى دار الخلافة ثم نقل الى تربة الرصافة .

المستنجد

المستنجد بالله هو أبو المظفر يوسف بن المقتفى ولد فى شهر ربيع الأول من سنة ٥١٨ (نيسان ١١٢٤ م) امه ام ولد رومية وقيل كرجية اسمها طاووس ادركت خلافته . خطب له أبوه بولاية العهد سنة ٥٤٧ وبويع له يوم موت أبيه وكان عمره ٣٣ سنة وكان موصوفا بالعدل والرفق . اطلق من المكوس شيئا كثيرا بحيث لم يترك فى العراق مكسا وكان شديدا على المفسدين : سجن رجلا كان يسعى بالناس مدة فحضره رجل وبذل فيه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ودلنى على آخر مثله لاحبسه وأكف شره عن الناس . قال ابن الجوزى : وكان المستنجد موصوفا بالفهم الثاقب والرأى الصائب والذكاء الغالب والفضل الباهر . له نظم بديع ونثر بليغ ومعرفة بعمل آلات الفلك والاسطرلاب وغير ذلك . وكان آخر من عمل فى أيامه بقواعد الخلفاء الماضين وجلوس وزيره بالديوان لرفع المظالم ولم ينتبه اليه امر الا ازاله ولم يذعر رجلا من رعاياه ذاعر وقد صفت له أيام خلافته وأظهرت له الأرض مافيها من الذخائر واجتمعت له أموال كثيرة . توفى فى ٩ ربيع الاول ٥٦٦ ودفن بدار الخلافة عن ٤٨ سنة ثم نقل الى تربة الرصافة وخلافته ١١ سنة وشهر وأيام .

المستضيء بالله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله . وكان مولده فى ٦ شعبان من سنة ٥٣٦ (٧ آذار ١١٤٢ م) أمه أم ولد اسمها غضة أرمنية لم تدرك خلافته بويع له بالخلافة يوم توفى والده وعمره اذ ذاك ٣٠ سنة وفى يوم المبايعة أمر بقتل الوزير ابن البلدى ورد المظالم وأفرج عن المحبوسين وأسقط ضرائب والمكوس ورسوم البيع وسياقات الاعمال ماشاع واشتهر وكان سخيا جوادا حسن السيرة لم تصل قصة يسأل فيها حاجة الا وردها بقضاء حاجة صاحبها وفى أيامه مد

جسر على دجلة مضاف الى الجسر العتيق ونصب من الدواليب بباب الغربة الى الرقة وذلك سنة ٥٧٠ (١١٧٤ م) وبنى فخر الدولة الحسن بن المطلب جامعا بقصر ابن المأمون على دجلة واستؤذن باقامة الجمعة فيه فأذن له . واحتجب الخليفة عن أكثر الناس فلم يركب الا مع الخدم ولا يدخل عليه غيرهم . وفى خلافته انقضت دولة بنى عبيد وخطب له بمصر وضربت السكة باسمه وجاء البشير بذلك فأغلقت الأسواق ببغداد وعقدت القباب قلنا : وهى التى تعرف اليوم عند الافرنج بما نقله المعربون العصريون : عقد النصر أو قوس الظفر مما يدل على أن العرب سبقوا الافرنج أيضا الى هذا العمل . وأرسل الخليفة فى جواب البشارة الخلع والتشريفات لنور الدين وصلاح الدين واعلاما وبنودا للخطباء وفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) أراد جماعة من محبي العبيديين فى مصر اقامة الدعوة وردها الى آل العاضد آخر خلفائهم فيها ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين فاطلع هذا على نيتهم فصلبهم جميعا بين القصرين . توفى المستضيء عشية السبت ٦ شوال سنة ٥٧٥ هـ (٥ آذار سنة ١١٨٠ م) ودفن بدار الخلافة ثم نقل الى تربة بالجانب الغربى على شاطئ دجلة بقصر المأمون

الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بالله . مولده يوم الثلاثاء ١٠ رجب من سنة ٥٥٣ هـ (٨ آب ١١٥٨ م) أمه أم ولد تركية اسمها « زمرد خاتون » أدركت خلافته . وكانت من أرغب النساء فى فعل الخير وأكثرهن له فعلا ولها بر وافضال فضلت به أمثالها فى الصدقات الجارية وعمارة المساجد والمشاهد والاربطة والمدارس وغيرها . بويع له بالخلافة فى صبيحة يوم الأحد غرة ذى القعدة من سنة ٥٧٥ هـ (٢٩ آذار ١١٨٠ م) وكان الناس قبل بيعته فى ضيق من الجدب وغلاء الأسعار وقلة الأمطار وكثرة الامراض وتفشى الوباء فجاءت الأمطار وهبطت الأسعار وعظم الرخص وأخذ الناس يهنيء

بعضهم بعضا بما عمهم من البركات. ثم حمى حريم الدولة باهتمامه وكثرة جنوده وله آثار جميلة من عمارة المساجد والربط والمشاهد على ما كانت تفعل امه. وقد صنف كتابا فى الحديث سماه «روح العارفين» ثم أجاز لجماعة من أهل العلم وأصحاب الحديث وقرئ كتابه بجوامع مدينة بغداد وغيرها من البلاد ثم جدد عزيمة فى ازالة السلاطين السلجوقية الذين اهتضموا حقوق الخلفاء والرعية واتخذ الوسائل الناجعة لقطع دابرهم من العراق. ثم ملك بلاد خراسان بجيش أرسله الى هناك وكذلك دقوقا وقلعة تكريت وقلعة الحديثة ثم ملك همذان وأسقط ما كان بها من الملوك وقتل السلطان طغرلبك السلجوقى بتدبير وزيره محمد بن القصاب وبعث برأسه الى بغداد ثم أنشأ دور الضيافات فى سائر محال بغداد لفطور الفقراء فى شهر رمضان. وعمر دارا لوفد الحاج والغرباء وغيرهم وانفق عليهما أموالا طائلة ووقف خزائن كتب محتوية على جميع العلوم النافعة وجعلها وقفا على المسلمين ولم يبلغ أحد ممن قبله ما استجد من الأبنية التى يبقى ذكرها ويضوع نشرها وفى أيامه انتزع بيت المقدس من أيدى الافرنج على يد صلاح الدين الأيوبى ومما انشأه رباط الخلاطية بمشرع الكرخ مجاور مشهد عون ومعين وتربة الى جنب هذا الرباط ودفن فيها جثة التى وقف الرباط عليها وهى «سلجوق خاتون» بنت السلطان قلج ارسلان مسعود ملك الروم وكذلك رباط الحريم ورباط المرزبانية. وهذا الرباط بناه وعزم أن يقطع ويترك الخلافة زهدا فى الدنيا وأنشأ فى ذلك كتابا بليغا ليقرأ على الناس ثم بدا له غير ذلك. وقد وقف على هذه الأماكن وقوفا متوفرة الحاصل يبقى ذكرها ويحصل له أجرها وله مناقب كثيرة وفضائل جمة ذكرها بن الساعى الشنجا فى كتاب فى خمسة مجلدات سماه كتاب «الروض الناضر فى أخبار الامام الناصر» وكان الناصر ذا تفنن فى تجسس الأخبار والوقوف على أسرار الناس. من ذلك ما نقل عما جرى لصاحب مازندران حينما قدم بغداد فانه كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل فى الليل فصار يبالغ فى التكتم والورقة تأتيه بذلك فاختلى ليلة بامرأة

دخلت من باب السر فصبحته الورقة بذلك وفيها كان عليكم دواج فيه صورة الفيلة فتحير وخرج من بغداد وهو لا يشك أن الخليفة يعلم الغيب لأن الامامية يعتقدون أن الامام المعصوم يعلم ما فى بطن الحامل وما وراء الجدار. وقال ابن واصل: كان الخليفة مع ذلك ردئ السيرة فى الرعية مائلا الى الظلم والعسف ففارق أهل البلاد بلادهم وأخذ أموالهم وأملاكهم وكان يفعل افعالا متضادة وكان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية. وقال ابن الأثير. وكان يفعل الشئ وضده فكان يرمى بالبندق ويحوى الطيور المناسيب وعنى بسراويلات الفتوة فى البلاد جميعها الامن يلبس منه سراويل يدعى اليه. ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الا من ينتمى اليه فاجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور وكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا من انه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم. وقال المؤرخون: قل بصر الناصر فى آخر عمره وقيل ذهب كله ولم يشعر بذلك أحد من الرعية حتى الوزير وأهل الدار وكان له جارية علمها الخط بنفسه فكانت تكتب مثل خطه فتكتب على التواقيع وكان الماء الذى يشربه الناصر تأتى به الدواب من فوق بغداد بسبعة فراسخ ويغلى سبع غلوات كل يوم غلوة ثم يحبس فى الأوعية سبعة أيام ثم يشرب منه. ومع هذا مامات حتى سقى المرقد مرارا وشقت آلته وأخرج منها الحصى ومات منه. توفى ليلة الأحد سلخ شهر رمضان من سنة ٦٢٢ (٥ ت ١ سنة ١٢٢٥ م) ودفن بدار الخلافة ثم نقل الى تربة الرصافة فدفن فى جانب جده المستنجد بالله

الظاهر

ولد الظاهر بأمر الله بن الناصر فى المحرم سنة ٥٧١هـ (تموز ١١٧٥م)

أمه أم ولد تركية اسمها «بقجه» لم تدرك خلافته . وقد عتق خمسين جارية صرن اليه عن والده ممن كن يصلحن للتسرى تورعا وأعطى لكل واحدة منهن خمسمائة سادسوى ما كان لها. وأنشأ جسرا نصبه على دجلة فصار لها جسران قال ابن الاثير : وقد أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنة العمرين . فلوقيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا فانه أعاد من الاموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله شيئا كثيرا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ماجدده أبوه وكان كثيرا لايحصى فمن ذلك أن قرية بعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار فلما تولى الناصر كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون ألف دينار فحضر أهلها واستغاثوا وذكروا أن أملاكهم أخذت حتى صار يحصل منها هذا المبلغ فأمر أن يؤخذ الخراج الاول وهو ١٠ آلاف دينار فقيل له إن هذا المبلغ يصل الى المخزن فمن أين يكون العوض فاقام لهم العوض من جهات أخرى فاذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين ألف دينار فما الظن بباقى البلاد ؟ ومن أخلاقه الطيبة أن العادة كانت ببغداد أن لحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الاصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ماسوى ذلك من صغير وكبير فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى هذا الخليفة أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال: أى غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد الينا الا مايتعلق بمصالح دولتنا فقيل له : ان العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال: نحن ندعو الله فى أن يصلحهم . كانت وفاته يوم الجمعة ١٣ رجب من سنة ٦٢٣ هـ (١١ تموز ١٢٢٦ م) فكانت خلافته ٩ أشهر و ١٤ يوما ودفن بدار الخلافة ثم نقل الى تربة الرصافة فدفن الى جانب والده .

المستنصر بالله

المستنصر بالله هو أبو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله الخليفة السابق كان مولده يوم الاربعاء ١٣ صفر من سنة ٥٨٨ (١١ اذار سنة ١١٩٢ م) أمه أم ولد تركية اسمها «أخشق» وقيل «زهرة» لم تدرك خلافته. بويع له بالخلافة يوم توفى والده وكان يعظم أهل الدين وينفق على أربابه ويحب أهل الأدب وتنبهت الهمم فى أيامه وازداد المشتغلون بالعلوم رغبة واشتغالا ووسعهم بعطاياه العميمة وكان منعكفا على نقل الكتب حسن الخط صحيح الضبط ومن محبته للعلوم أنشأ خزانة الكتب بحضرته وجمع فيها من أنواع العلوم على اختلافها وتباينها وائتلافها بالاصول المضبوطة والخطوط المنسوبة ماجاوز حد الكثرة ثم أنشأ المدرسة التى سميت باسمه ودونك وصفها على ماذكرها أخباريو زمانه :

وصف المدرسة المستنصرية الموجود بعض أبنيتها الى يومنا هذا وكانت فى عهد الترك كمركا (ممكسا)

أنشأ المستنصر هذه المدرسة على شاطئ دجله الايسر أو الشرقى وجعلها وقفا على المذاهب الاربعة فجاءت محكمة البناء. راسخة فى الماء. فسيحة الفناء. رتب فيها الرواتب الحسنة لاهل العلم وكان يدرس فيها من العلوم علم الاصول والفروع وأحاديث الرسول والقواعد العربية وعلم القوافى ومعرفة الحلال والحرام وقسمة الفرائض والتركات وعلم الحساب والمساحة وعلم الطب ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتقويم البلدان وفرشت غرفها بافخر فراش وكسيت باحسن الملابس ورتب لها البوابين والفراشين والخدم والطباخين وأسكن لكل مذهب ٦٢ من الفقهاء وجعل لهم مدرسين وأربعة معيدين واجريت لهم المشاهرات الوافرة وما يحتاجون اليه من الخبز واللحم والحلوى والفواكه والزيت والصابون والورق والحبر وغير ذلك واتخذ فيها مارستانا وجعل فيه طبيبا ماهرا واثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه فى علم الطب وجعل لهم الاكحال

السائلة وبنيت لهم صفة فاخرة مقابله للمدرسة يجلس فيها فيقصده المرضى فيداويهم . ورتب فى المدرسة مطبخا للفقهاء ومزملة لماء البارد ورتب لبيت الفقراء الحصر والبسط وما يحتاجون اليه ورتب للطلبة ومن اليهم حماما وهو امر لم يسبق الى مثله وبنى فى حائط الصفة دائرة عجيبة وصورتها صورة الفلك وجعل فيها طاقات صغارا لها ابواب كلما سقطت بندقة انفتح باب من ابواب الطاقات وهو مذهب فصار مفضضا ومضت ساعة من الزمان والبندقتان من شبه (برنز) يقعان من فمى بازين من ذهب فى طاستين من ذهب ويذهبان الى مواضعهما وتطلع شموس من ذهب فى سماء زرقاء فى ذلك الفلك ومع طلوع الشمس تدور مع دورانها وتغيب مع غيابها . فاذا غابت الشمس وجاء الليل فهناك اقمار طالعة من ضوء خلفها كلما مضت ساعة تكامل الضوء فى دائرة القمر ثم تبدو بالدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس .

ثم جعل فى هذه المدرسة خزانة كتب نقل اليها شيئا كثيرا من الربعات والكتب النفيسة والاصول المضبوطة المحتوية على جميع العلوم مائتين وتسعين حملا سوى مانقل اليها بعد ذلك وشرط ان يشتغل فى هذه الخزانة عشرة ممن يعنون بعلم الحديث ويكون لهم شغلان يشغلون الطلبة ايضا بعلم الحديث النبوى ورتب عندهم شيخا على الاستاذ يقرأ عليه الحديث . ثم الى جانب هذه المدرسة دار برسم تلقين القرآن يتبنى بها ثلثون صبيا ايتاما يتلقنون القران من شيخ ملقن ويكون لهم معيدا بحفظهم التلاقين وشرط للجميع من الخبز والمشاهرة والوظائف ماتضمنه شرط الواقف . وقد ارتفع مبلغ وقوف المستنصرية فى العام نيفا وسبعين الف مثقال . ثم شرط ايضا ان يكون فيهامن ويشتغل بعلم العربية وكذا من يشتغل بعلم الحساب والفرائض وكان عدد فقهائها مائتين ثمانية واربعين فقيها من المذاهب الاربعة ماعدا سائر المعلمين والشيوخ وقد وقف

عليها ما لا يعبر عنه من عدد القرى والضياع . وكان ابتداء عمارتها فى سنة ٦٢٥ هجرية (١٢٢٨ م) وتمت فى سنة ٦٣١ وفتحت يوم الخميس فى رجب (اذار ١٢٣٥ م) وحضر القضاة والمدرسون والاعيان وسائر وجهاء الدولة وكان يوما مشهودا .

وانشأ غيرها من المدارس والمشاهد والمساجد والربط والمغاور والقناطر ووسع الطرقات الى غير ذلك من الصدقات فى كل الايام واعطى الثياب والخلع والجرايات فى شهر رمضان والرواتب فى سوى ذلك وعموم هذه الاسباب العلماء والعباسيين والعلويين والضعفاء والمساكين وتزويج الايامى والحنو على اليتامى.

واستخدم عساكر عظيمة لم يستخدم مثلها أبوه ولا جده حتى ان جريدة جيشه بلغت نحو مائة الف فارس استعدادا لحرب التتار وكان ذا همة عالية وشجاعة عجيبة واقدام عظيم وكان التتار قصدت البلاد فلقيهم عسكره فهزموهم شر هزيمة وكان له أخ يقال له الخفاجى فيه شهامة زائدة كان يقول : لئن وليت لاعبرن بالعسكر نهر جيحون وآخذ البلاد من أيدى التتار وأستأصلهم فلما مات المستنصر لم ير الدويدار ولا الشرابى تقليد الخفاجى خوفا منه وأقاما ابنه أبا أحمد للينه وضعف رأيه ليكون لهما الامر ليقضى الله أمرا كان مفعولا من تغلب التتار على بغداد وتخريبها فانا لله وانا اليه راجعون.

ومن مآثر المستنصر انه أمر فى سنة ٦٣٢ ھ (١٢٣٥ م) أن تضرب الدراهم الفضية ليتعامل بها بدلا من الدراهم المتخذة من قراضة الذهب بمجلس الوزير وأحضر الولاة والتجار والصيارفة وفرشت الانطاع وأفرغ عليها الدراهم وقال الوزير : «قد رسم مولانا أمير المؤمنين لمعاملتكم بهذه الدراهم عوضا عن قراضة الذهب رفقا بكم وانقاذا لكم من التعامل بالحرام من الصرف الربوى» فأعلنوا بالدعاء ثم أديرت بالعراق وسعرت كل عشرة بدينار . وكان قد خطب له بالاندلس وبعض بلاد المغرب . وكانت وفاته بكرة نهار يوم الجمعة ١٠ جمادى

الآخرة سنة ٦٤٠ (٦ ت ٢ سنة ١٢٤٢ م) وكتم موته الى أن بويع لولده الاكبر أبي أحمد عبد الله ثم خطب له على منابر بغداد وهو ميت ثم أشيع نعيه بعد ذلك ودفن فى الدار المثمنة على دجلة ثم نقل تابوته الى تربة الرصافة فدفن تحت قبة كان قد اتخذها لنفسه مدفنا . وكان عمره ٥٢ سنة و٦ أشهر و١٧ يوما ومدة خلافته ١٦ سنة و١٠ أشهر و٢٨ يوما .

المستعصم بالله

المستعصم بالله هو ابن المستنصر ولد فى ٢١ شوال سنة ٦٠٩ هـ (١٧ آذار ١٢١٣ م) أمه أم ولد اسمها « هاجر » أدركت خلافته . بويع له بالخلافة صحوة نهار الجمعة ١٠ جمادى الآخرة من سنة ٦٤٠ كما ذكرنا واستدعى من مسكنه (بالتاج) سرا من باب يفضى الى داره . وجلس فى قبة المبايعة يوم السبت ١١ جمادى المذكورة فحضر جميع الاكابر وجلس الوزير فى المحفة التى حضر فيها محمولا بحجرة على أرفع درج المنبر ووقف أستاذ الدار دونه بمرقاة يلقن الناس لفظ المبايعة ولم يحضر الحفلة أعمامه وعم أبيه فأغلق عليهم باب الفردوس الذى يحتوى على دورهم بحيث لايدخل عليهم طعام ولا غيره فبقوا على ذلك ثلاثة أيام فسألوا المبايعة وأحضروا فبايعوا . وكان سهل الاخلاق سليم الصدر طاهر النفس عفيف الازار ظاهر الحياء لين الكلام لم يشرب مسكرا قط لكنه لم ينزه سمعه عن سماع المحرم فانه كان مغرما بلعب الحمام وبسماع الملاهى محبا للهو واللعب يبلغه أن مغنية أو صاحب طرب فى بلد من البلاد فيراسل سلطان ذلك البلد فى طلبه فكان شغفه بهذه الأمور الزائلة أشغلته عن القيام بأمور الخلافة واعتمد فيها على اناس غير اكفاء بل أعداء له ولسدة الخلافة العباسية وكان ابن العلقمى وزيره يصانعه ويظاهره فى الخارج وينافقه فى الباطن وكان قد عقد النية على اخراج الخلافة من العباسيين وجعلها فى العلويين فأخذ الوزير يضرب أخماسا لأسداس بلوغا لأمنيته وأول شئ أشار به على الخليفة أن يسرح

أكثر الجند لعدم الحاجة الى هذا القدر العظيم الذى جمعه أبوه . وأقنع الخليفة أيضا بمصانعة التتر ومهادنتهم لانتشارهم فى الأرض وتقدمهم السريع فى فتوحاتهم وأن نيتهم القدوم الى بغداد واجتياحها فان لم يستعد لمصانعتهم عظم عليه الفتق وتعسر الربط والضبط وكان ابن العلقمى فى تلك الأثناء يساعد الأعداء فى ما يؤملون ويكاتبهم بمايجرى فى البلاد وكيف يعملون على اضعاف قوى الخلافة ورجالها المتعلقين بها وكانت الرسل بينه وبين التتر والمستعصم غائص فى لذاته لا يطلع على الامور ولا له غرض فى المصلحة وكان اذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة ويطالع التتر بأخبار مولاه فأطمعهم فى البلاد وسهل عليهم الأمر وطلب أن يكون نائبهم فوعدوه خيرا فدلهم على عورات الأمصار وصورة أخذ دار السلام وضعف الخليفة وانحلال العسكر فزحف هولاكو بجيش جرار الى بغداد والمستعصم ومن معه فى غفلة عنه لاخفاء ابن العلقمى سائر الاخبار الى ان وصل العراق واستأصل من بها قتلا واسرا ولما دخلت سنة ٦٥٦ هـ (- ١٢٥٨ م) وصل التتر بغداد وهم مائتا الف فى مقدمتهم هولاكو فخرج اليهم عسكر الخليفة وعددهم أربعون الف مقاتل فانهزموا أمام العدو وبعد أن قاتلوه من اقبال الفجر الى ادبار النهار عجزوا عن الاصطبار وولوا الأدبار بالادبار فتعقبهم التتر فوضعوا السيف فيهم وكان دخولهم بغداد يوم عاشوراء وبينما الامور تجرى على هذا الوجه الشنيع أشار ابن العلقمى على الخليفة أن يصانعهم وقال: اخرج أنا اليهم فى تقرير الصلح فخرج وتوثق لنفسه منهم وعاد الى الخليفة يقول : ان الملك قد رغب أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر ويبقيك فى منصب الخلافة كما كان يفعل بنو بويه وبنو سلجوق فى من كان فى عهدهم ويستأثر بالسلطنة وينصرف عنك بجيوشه فليجب مولانا الى هذا فان فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك ان تفعل ماتريد والرأى ان تخرج اليه فعمل الخليفة بما قال له وزيره وخرج الى هولاكو فى جمع من الأعيان فانزل فى خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد

خرجوا من بغداد فضربت أعناقهم وكانت تخرج الطائفة بعد الطائفة منهم فتضرب أعناقهم حتى قتل جميع من هناك من العلماء والامراء والحجاب والكبار ثم مدّ الجسر وبذل السيف فى المدينة فقتل من المسلمين فى ثلاثة أيام ماينوف على ٣٧٠٫٠٠٠ نسمة لكن القتل دام نحو اربعين يوما فبلغ القتلى أكثر من مليون نسمة ولم يسلم الا من اختفى فى بئر أو قناة وقتل الخليفة رفسا بالأرجل ولم يسمع بأنه دفن وقتل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأسر بعضهم وسبى آخرون والقيت كتب الخزائن فى دجلة فكانت لكثرتها جسرا يمرون عليه ركبانا ومشاة فكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الاسلام ولم يتم للوزير ما أراد اذ لم يستحسنوا أن يقيموا خليفة علويا حسبما طلب بل أخذوه معهم فصار فى صورة بعض الغلمان ومات كمدا . وكان قتل الخليفة المستعصم ليلة الأربعاء ١٤ صفر من سنة ٦٥٦ (الموافق ٢١ شباط ١٢٥٨ م) فكانت مدة خلافته ١٦ سنة و٧ أشهر و٤ أيام وعمره ٤٦ سنة وكانت مدة ملك بنى العباس منذ انتقلت اليهم الخلافة من بنى أمية الى أن انقرض ملكهم ٥٢٦ سنة عن ٣٧ خليفة أولهم السفاح وآخرهم المستعصم .

حفظ العرب لعلوم اليونان وعودتها الى الغرب

قد تكلمنا على الدولة العباسية منذ نشأتها الى اضمحلالها فى العراق فكان لنا أن ننظر الى ما أدّى خلفاؤها من الخدم الى الحضارة والعلم والرقى . وقبل أن نخوض عباب هذا البحث لابد أن نعرف حالة العلم عند العرب فى بداوتهم وجاهليتهم لنعرف وبقدر ماصاروا اليه من التقدم بعد تلك الخلافة فنقول : ان بداوة العرب أمر غير منكر والعلوم التى كانوا يعرفونها فى حالتهم تلك لاتتطلب عناء عظيما ولا القبض على القلم بل تتطلب ذاكرة رائقة وملاحظة دقيقة ومشاعر متنبهة وشواعر متيقظة ولذلك لم يكن لهم من العلوم يومئذ الا علم الأنساب وقرض الشعر والبلاغة ورواية الاخبار والنظر الى القبة الزرقاء وعلم الانواء وعلم نزول

الأمطار والقيافة والعيافة والريافة والفراسة والكهانة والعرافة والطب والضرب فى الفلوات والرماية والملاحة وركوب الخيل واصول الحساب ومبادئ تقويم بلدان جزيرتهم الى ما ضاهاها من العلوم التى توخذ بظواهر الحواس والتى لايبذل فى معرفتها من قوة الفكر شئ يذكر . ثم جاء الاسلام فكان معظم عناية الخلفاء الراشدين بنشر الدين وتمكين أسسه فى البلاد وكبح جماح المرتدين ثم مالبث أن ظهر الأمويون فلما أقاموا فى ديار الشام وكانت سابقا مقر حضارات عديدة جليلة القدر أخذوا يتنقلون من البداوة الى الحضارة فأصبحوا فى حالة لا هى بدوية محضة ولا حضرية بحتة فكانت بين بين ولم تأت نفع الحضارة العصرية ثم دالت الدولة فظهر العباسيون فى ميدان العمل فكان جل همهم توسيع ملكهم وتوثيق دعائمه وتأييد سلالتهم على عرش الخلافة بحيث لاينزعها أحد من أيديهم ولا يطمح اليها طامح . وتحققوا أنهم لايتوصلون الى بغيتهم هذه الا بالعلم . اذ بالعلم ينال المرء كل مايسعى اليه فى هذه الدنيا من قوة ورئاسة ومال وجاه وشهرة وصحة وراحة وطول عمر . وأول من عنى منهم بالعلوم هو الخليفة المنصور بانى بغداد فانه كان أول خليفة قرب المنجمين وكان أصحاب التنجيم من أقرب المقربين من الملوك فى ذلك العهد . وكان المنصور أيضا أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية ككتاب كليلة ودمنة وكتاب اقليدس وكتب اليونان فنظر الناس فيها وتعلقوا بها . فلما رأى ذلك محمد بن اسحق جمع المغازى والسير ودونها . فكانت هذه المؤلفات امهات المصنفات التى أنشئت بعدها وأصبحت مثلا يحتذى عليها ووسائل نشطت همم من أراد التقرب من الخليفة وأولاده فنشأت فى قلوب رعيته محبة العلم وأربابه ثم جاء الرشيد فتمكن ذلك الحب فى الصدور فازداد فى عهده عشاقه والمعاونون له . وما جاء المأمون الا وكان العلم قد أمر أثمارا بلغت أطايبها وكان هو بنفسه مثالا للجد والجهل والعلم الصادق . بيد انه كثر فى زمانه الزنادقة والملاحدة فنسب الناس تكاثرهم وتبجحهم بالكفر الى مطالعة الكتب

الحديثة والتوغل فيها . فكان هذا الأمر سببا لحط العلم وعشاقه الى دركات منعت كثيرين من المسلمين عن الاشتغال به اذ رأوا أن الذين زاولوه حادوا عن سواء السبيل الى ما لا تحمد عقباه . ولاسيما بعد أن نظروا فى الكتب التى كان قد صنفها مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنفه فى ذلك الوقت ابن أبى العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس تأييدا للمانوية والديصانية والمرقيونية فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس وافسدت كثيرين فى آرائهم وعقائدهم حتى اشتهر هذا المثل « من تمنطق تزندق » وأصبح معنى الفلسفة عند أهل ذلك العصر وما بعده مرادفا للكفر والزندقة والالحاد . على ان الأذكياء رأوا أن العلم الصحيح برئ من تهمة الكفر ، إذ قد وجد الالحاد ، أوقل التظاهر به ، فى الجهلة كما وجد فى الأدباء مع انه قد ثبت أن العلم غير مناف للدين ، ولو تنافيا لما وجدا مجتمعين فى امرئ قط ونحن نعلم أنهما قد اجتمعا فى اناس كثيرين وقد اشتهروا بهما معا . ومع ذلك فقد صنف الجدليون من أهل البحث من المتكلمين أسفارا جليلة فى رد الجاحدين والزنادقة ومن لف لفهم فأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فاوضحوا الحق للشاكين ، فأخذ النفور يزول من صدور أولئك الذين كانوا قد استنكفوا من درس المنطق والفلسفة وأنواع العلوم الطبيعية وغيرها فعادوا اليها قريرى العين . وقد ظهرت نتيجة هذا الاشتغال فى عهد بنى بويه فنبغ من العلماء والنحاة واللغويين والمؤرخين والشعراء والادباء ووصاف البلدان مايكسف نورهم نور شمس من كانوا فى عهد الرشيد والمأمون وبلغ هذا معظمه فى عهد المستنصر اذ وصلت العلوم نهايتها ويشهد على صدق دعوانا تلك المدرسة التى شيدها ذلك الخليفة الكبير وزينها بالعلماء الأعلام على اختلاف طبقاتهم ومعارفهم . بيدانه لم تظهر ثمارها للعيون لأن هولاكو وابناءه هبطوا « ام العراق » وعاثوا عيث الذئاب فى الغنم و تمادوا فى القتل والفتك فكانت

سمس تلك الحضارة شمس الأصيل كما وقع مثل هذا الحادث فى آخر الدولة الساسانية وآخر دولة الأشوريين العظيمة . هذا وحصل من اشتغال العرب بعلوم الأوائل حضارة خاصة بهم إلا ان اسسها ودعائمها بقيت يونانية . نعم ان أهالى ارض الرافدين أتقنوا لغة مواليهم العربية واعتاضوا بها عن لسانهم الارمى الذى كانوا يتكلمون به بصورة من الصور منذ عهد بنوكد نصر والأسفار الجليلة التى كانوا قد نقلوها الى الارمية فى عهد الدولة الرومانية النصرانية وفى مواضيع مختلفة كالرياضيات والفلكيات والبلدان والحيوان والنبات والجماد والكيمياء والمنطق وما وراء الطبيعة . نقلوها أيضا الى العربية فى عهد العباسيين فأخذ العرب يجلون ارسطوطا ليس الفيلسوف الذى لايصدق هذا الاسم الا عليه . واكبوا على دراسته فى ديارهم كلها من آسية الوسطى الى الاوقيانوس الاتلنتيكى . ولعلهم فهموه فى بلخ وسمرقند احسن مما فهمه دارسوه فى أوربة فى ذلك العهد . والخواطر التى ابدت لهم من مطالعة المصنفات اليونانية انتجت آدابا علمية وفلسفية عربية فاقت كل آداب سواها كانت تعرف يومئذ فى الغرب . واغلب هذه الآداب لم تكن نتاج أناس عربيي النجار والعنصر . بل نتاج أفكار السريان اوافكار المنتسبين الى العنصر الفارسى القديم المعروف فى هذه الديار . وقد اصبح لسانهم عربيا بعد الفتوحات الاسلامية . ويدعم رأينا هذا مشاهير ذلك العصر . ففى القرن الحادى عشر مثلا كان ابن سينا يوغل فى ابحاثه العلمية فى خزائن كتب بخارى وكان البيرونى ينعم النظر فى ثقل المعادن النوعى وهو فى خيوق (خيوا) . فالفكر الفلسفى الذى جاء به اليونان الى عالم العلم أثر كل التأثير على فلسفة العرب وعلمائهم على اختلاف عناصرهم وديارهم ونزعاتهم .

فترى مما تقدم بسطه ان الناطقين بالضاد انتحلوا بسهولة معارف الأقدمين ووسعوها لكنهم — والحق يقال — لم يزيدوا عليها علما جديدا جديرا بالذكر ومع ذلك فلهم أعظم فضل على العلم والعالم لأنهم حفظوا وديعة نور العقل فى عهد كانت

العقل فى عهد كانت دول الغرب مرتبكة بامورها الداخلية وغزوات الاقوام الهمجية لهم فكان انتقال معظم تلك المعارف الى تلك الديار الغربية بواسطتهم . فمنها ما وصلتهم عن طريق الحروب الصليبية التى وقعت بين القبيلين ومنها عن طريق المدارس التى انشئت فى الاندلس ولا سيما فى اشبيلية وقرطبة وطليطلة . يدلنا على ذلك الالفاظ التى دخلت لغاتهم فى مواضيع مختلفة كالكيمياء والفلك وعلم المواليد وغيرها عند ترجمة كتبهم العربية الى السنتهم الاعجمية .

ومما أخذه أهل الغرب عن العرب بعض الاعمال المتعلقة بالصنائع كعمل الكاغد والبارود والخزف والسكر وتركيب الادوية وتقطير الارواح والمشروبات وتعلموا منهم أيضا نسج ضروب مختلفة من الثياب وأدخلوا بلادهم أيضا دود القز بعد ان تعلموا منهم تربيته وأخذوا منهم بذر كثير من الحبوب كالارز وغرس كثير من متنوع الأشجار كقصب السكر والزعفران والقطن والاسبانخ والرمان والتين وتعلموا منهم دباغة الاديم وتجفيفه ودلكه وتلوينه الى غير ذلك مما يطول سرده ولا يحصى تعداده .

فى أن المغول آفة الحضارة وفى ذكر ما أوقعوه فيها

وانحطاط العلوم بانحطاط السلطة والثروة

كما أن للاجسام أمراضا قد تقضى عليها فى بعض الأحيان وكما أن بين النباتات نباتات أخرى مضرة لا كلها بل سامة له ، كذلك للحضارة أقواما مضرة بها بل متلفة لها فى بعض الأحوال فالمغول أو المغل هم من هذا القبيل أى انهم متلفون للعمران مهلكون للمجتمع البشرى كما شاهدناهم عند هبوطهم بغداد ، ففعلوا من الافاعيل ما يرتعد لها فرائص الانسانية من قتل ونهب وافساد واحراق ومنكرات ليس للقلم امكان أن يدونها أو يصفها . وأعمالهم

هذه لم تكن أعمال أمس أو فى هذه الأمصار الشرقية فقط . بل كانت كذلك منذ الأعصر الواغلة فى القدم . الا أن التاريخ لم يعرف من أمرهم شيئا مثبتا الا منذ عهد تموجين الذى سمى نفسه « جنكيز خان » فلما هلك اقتسم مملكته أبناؤه الأربعة وهم چوچى وجغطاى وتولاى وأوكداى وكانت الكلمة النافذة والسطوة العاملة لاوكداى وهو الذى فتح الصين فى سنة ١٢٣٤ م وأرهب وأرعب خلقا جما ومن الصين ذهب الى كوه قاف (قوقاس أو قفقاسية) . وغزا « باطو » ابن أخيه چوچى بلاد روسية وأخذ موسكو فى سنة ١٢٣٧ م وأوغل فى ديار المجر ثم عاد ادراجه الى بلاده المغولية عند وفاة أوكداى فى سنة ١٢٤١ م وقام بعده كويوك ثم منكو بن تولاى سنة ١٢٥٠ م فأمعن منكو فى هند الصين . بينما كان أخوه هولاكو ياخذ ام العراق بغداد . وخلف منكو قبلاى (١٢٥٩ — ١٢٩٤) وقلب دولة «سنغ» الصينية وأنشأ دولة «يوين» المغولية فى سنة ١٢٧٩ م . فامتدت رقعته من بلاد الروس الى ديار اليابان ومن المحيط الشمالى الى هند الصين . ولما طرد اليوينيون من پكين حاضرة الصين لكثرة من قام عليهم من الثوار احتل عرشهم آل « منغ » سنة ١٣٦٨ — ١٣٨٨ وحينئذ أصبح لكل طائفة منهم تاريخ مستقل خاص بها . وفى هذا التاريخ لا نرى من الحسنات شيئا بل تراه مكتوبا بأحرف من دم على صحف سوداء سودتها فظائعهم ومظالمهم وشنائعهم التى تقشعر لذكرها الابدان فالذى أنزلوه من البلايا والرزايا فى ديار النهرين أنزلوا مثله فى سائر الأمصار العامرة فصيروها غامرة .

وأنت تعلم أن البلاد التى لا يتسنى لها الراحة لا يتسنى لها المعاملة والمتاجرة . ولا المبايعة والمقايضة ولا الزراعة والصناعة فتغدوا فقيرة بحكم الحال . واذا افتقرت البلاد قام أهلها يغزو بعضهم بعضا ليعيشوا ، فيأخذ القوى ما يجده لحاجته عند الضعيف . وعلى هذه الصورة تنحط البلاد وتذل سكانها ويقلون

ان لم ينقرضوا وماذلك الا آفة الجهل وما آفة الجهل الا الاقوام المنحطة التى لا تريد الرقى كما لا تريد أن تدين لسيد عاقل حكيم كما تظهر هذه الحقيقة لادنى تأمل .

في صنائع الاسلام الراقية وفى الريازة (علم البناء)

كان العرب قبل الاسلام يعرفون التصوير والتمثيل . يشهد على ذلك ما جاء فى الحديث النبوى : « رأيت الجنة والنار ممثلتين فى قبلة الجدار » أى مصورتين أو مثالها . ويشهد عليه الاصنام والأوثان التى كانت فى الكعبة وعددها يفوق الثلثمائة . فلما جاء الاسلام حرّم التصوير والتمثيل . فكسرت الأصنام ومزقت الصور اينما كانت وفقا لهذا الحديث : « لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة » . وفى حديث آخر : « لاتمثلوا بنامية الله » أى لاتشبهوا بخلقه وتصوروا مثل تصويره . وقيل هو من المثلة والاشهر الأول وعليه المعول . فلما أخذ المسلمون بالتوغل فى العمران وأرادوا أن يزينوا بيوتهم وجورهم وقصورهم بضروب التصاوير عدلوا عنها واختاروا لهم زخارف اشتهرت عند الافرنج باسم « النقوش العربية » لا لانهم اخترعوها ، بل لانهم اكثروا من استعمالهم لها ولان أهل الغرب تلقوها عنهم . وهى نقوش هندسية يزينون بها الآيات أو الأحاديث والحكم التى يكتبونها أو يحفرونها على تلك المعاهد . وتمثل تلك الزخارف رسوما هندسية أو أنواعا من الأزهار والاثمار والأوراق هى الى الخيال أقرب منها الى الحقيقة ، اذ لم يقصدوا بها الا مجرد الزينة ليحسنوا بها الكتابة فتزداد بها حسنا ورواء . ومن احسن ما عنوا به من هذا القبيل ما زينوا به القصور التى شيدت فى الاندلس فى عهد الخلفاء الامويين .

على أن الشيعة لم يحرموا التصوير والتمثيل لأنهم لم يروا فى القرآن آية تدل على تحريمهما الا أنهم حرموا صنع التماثيل لقربها من هيئة الأصنام والأوثان . ولهذا نرى كثيرا من الكتب المصورة وفيها مثل الانسان والحيوان والنبات

وهذا لم يتخذوه قبل يوم أو يومين . بل جاء ذ . عندهم منذ سابق العهد . فقد كان المتوكل قد بنى قصرا بسامرا سماه المختار « وكانت فيه صورة عجيبة من جملتها صورة بيعة فيها رهبان وأحسنها صورة شهار البيعة وقد قال الواثق واصفا القصر والصورة :

ما رأينا كبهجة المختار　　لاولا مثل صور الشهار

(هذا الكلام مأخوذ عن معجم البلدان ليقوت الحموى فى مادة المختار) والظاهر ان المتوكل بنى هذا القصر قبل أن يلى الخلافة لأن الواثق أخاه وليها قبله فيكون قد ذهب اليه بعد بناء المتوكل له وفى عهد خلافة أخيه الواثق ومن الغريب ان المتوكل كان سنيا صرفا وعدوا أزرق للشيعة فلا نعلم كيف رضى بأن تصور تصاوير فى قصره . وعلى كل حال فان الدكتور هرتسفلد اكتشف فى سامرا عدة تصاوير فى قصور العباسيين قبل نحو ثمانى سنوات مما حمل العلماء المستشرقين على القول أن العباسيين كانوا قد تساهلوا فى هذا الباب . وكان الخلفاء قبل ذلك العهد مخالفين لهذا التسامح والتجوز .

الزخارف العربية

أما أصل هذه الزخارف المشهورة بالزخارف العربية فهو الهند . فقد قال هيرودوتس وسترابون واريانس وجماعة من قدماء المؤرخين ان الهنود كانوا يصنعون منذ عهد عهيد ثيابا يطبعون عليها تصاوير زاهية الألوان لا تنفض (لا تجرب) . وتلك التصاوير تمثل أزهارا وأنبتة وحيوانات ونقوشا مختلفة . وكانت تلك الثياب (الاقمشة) تباع فى الديار المصرية واليونانية قبل أن يفتح الاسكندر الكبير فتوحاته الشهيرة فتنقل الى اليونان اسرار صنعها . ومن البطالسة اقاموا فى الاسكندرية معامل كان فيها مهرة العملة من اليونان يرشدون المصريين الى تقليد تلك الثياب الهندية وكانوا ينقشون عليها على م

قال كلوديانس : « وحوشا مختلفة الأشكال وسلاحف طائرة ونسورا ذات قرون وصور بشر متصلة بصدف الحلزون » وقد أخذ المصريون أيضا فى ذلك العهد عن الفرس والبابليين صنع الطنافس والبسط التى كان قد أغرم بها اليونان فى زمن ارسطوطاليس الذى قال عنه انها كانت مرغوبة لحسن ألوانها الزاهية وغرابة نقشها واتقان صنعها . ولعل رؤية الثياب الشرقية هى التى هدت اليونان الى معرفة الزخارف العربية من شماريخ وتعاريج وأوراق زينوا بها بعض أبنيتهم ومن جملتها رأس البناء المعروف عندهم بما معناه : « مصباح ديمستينس » لكنه لا ينكر أن الرومان لم يأخذوا ذوق هذه الرسوم الا من ديار مصر حتى بلغت عندهم (اى عند الرومان) الشأو الأبعد ولقد أشار فتروفس (١) الى هذه الرسوم كأنها حديثة فى عهده . ومع ما كتب هذا الناقد من الكلام اللاذع بشأن اولئك الذين احدثوا أمورا فى الريازة الرومانية ، بقى معاصروه محافظين على ما أدخلوه فى بلادهم من تلك النقوش والتزيينات وظلوا يزخرفون بها مصانعهم ومعاهدهم بل ومدافنهم نفسها . لا ترى ثم الا تصاوير ومنحوتات تمثل لك مناظرا بنية خيالية ونقوشا تشتبك فيها الأبنية الوهمية الحيوانات الوحشية وأطفالا تلعب بضروب من عنقاء مغرب وغيرها كالسباع التى لا حقيقية لها . وترى بينها أيضا أثمارا وحيوانات صيد وأزهارا أو ادوات لهو وتخاريم لى غيرها . وأغلب هذه المرسومات تشف عن تقليد مأخوذ عن الشرق مثل النباتات والحيوانات المقدسة المصرية والهندية وبجانبها مصانع بناؤها فارسى الطرز او بابليه . أما الرموز التى تشير اليها تلك المصورات فان الرومان ما كانوا يفقهون لها فكانوا يتخذون « الطرز المصرى » طرزا صناعيا

(١) فتروفس راز رومانى طوى بساط أيامه فى المائة السابقة للميلاد . وقد ألف كتابا فى فى الريازة فى نحو سنة ٨٨ ق م . وأهداه الى اوغسطس قيصر .

لا غير . كما يقلد اليوم الافرنج « الطرز الصينى واليابانى » وهم لا يفهمون ما تنطوى عليه من المغازى والمعانى والاشارات الدقيقة . ولقد اكتشف الباحثون منذ نحو قرنين كثيرا من هذه التصاوير العربية فى پنپئى وهركلانم وقد رسمت قبل الاسلام بنحو خمسمائة وخمسين سنة فوجودها قبل الحضارة العربية دليل واضح على أن أبناء يعرب لم يخترعوا تلك النقوش بل أخذوها عن المصريين وانا نود كما تقدمت اليه الاشارة وبهذا القدر كفاية فى هذا الصدد .

النقش

أما النقش أى التصوير بالألوان فان العرب كانوا يعرفونه أيضا قبل الاسلام على ما أورده ابن الكلبى فى تاريخ مكه . وأصفا ما كان فى الكعبة من النقوش المختلفة . وأما بعد الاسلام فقد حرم كما حرم كل تصوير وتمثيل (١) وقد ذكر العلامة مرادجا دصون انه كان منقوشا على أبواب جامع عبد الملك فى القدس صورة النبى القرشى وكان داخل ذلك الجامع مزينا بنقوش تمثل الجنة والنار ولا جرم أن ناقشى تلك الصور كانوا الروم الا انه اشتهر بين العرب أيضا نقاشون عديدون صوروا الأنبياء والخلفاء وكبار القواد ومشاهير الرجال والشعراء النوابغ حتى ان معامل القلمون بجوار دمشق ومعامل دابق بجوار حلب ومعامل البهنسى فى الصعيد الأدنى كانت تصور تلك النقوش على الثياب التى كانت تنسج فيها . ومن جملة ما كانوا يصورونه على تلك الثياب الحفلات والأعياد والتصيد وقد نبغ فى القرن العاشر للمسيح (أى القرن الرابع للهجرة) نقاشون تعقد عليهم الخناصر من جملتهم : عبد العزيز البصرى . وقصير العراقى وأبو بكر محمد بن حسن ومحمد بن المبارك الصورى ومحمد وغيرهم كثيرون . وفى ذلك العهد أيضا كان فريق من العرب يزوقون ويحلون نفائس الكتب بنقوش

(١) النقش ليس بمحرم اذا لم يكن صورة حيوان

زاهية الألوان لا تقل حسنا عما كان ينقشه الغربيون من الدمى ويزينون بها اسفارهم الثمينة . وقد ذكر التاريخ دار تصوير ونقش فى سمرقند أنشاها تيمورلنك نفسه وأحسن ما كان من تلك الصور كانت من قلم عبد على الشيمى البغدادى . ويحفظ اليوم العلماء وأهل الفن المغرمون بالنفائس الشرقية تصاوير ونقوشا عديدة وقد وضعوا كتبا جليلة فى وصفها وذكر محاسنها ومساوئها وقد نقلوها بالتصوير الشمسى وهذه الكتب هى أشهر من أن تذكر وهى تباع فى أسواق ديار الافرنج فليس أدنى شبهة فى أن كثيرين من المسلمين أولعوا بالنقش والتصوير وأبقوا لهم فيهما ذكرا لا يمحى .

الريازة

الريازة العربية ويسميها بعضهم الريازة الاسلامية ويسميها الأندلسيون الريازة المغربية هى فن البناية العربية الحادثة بعد الهجرة . وقد ظهرت ميزتها فى العهد العباسى ثم زادت رونقا فى زمن عبد الرحمن الأموى الأندلسى فى لابنية التى رفعها فى قرطبة فانه جلب من القسطنطينية رزاة مهرة وأرسل قسطنطين قيصر الروم يومئذ الى الخليفة المذكور بمائة وخمسين عمودا من الرخام النادر لقصر الزهراء والزهراء كانت حظية الخليفة وقد لاحظ أحد علماء الفرنسويين وهو المسيو جيرو دى برانجى أنه كان ببلاد الأندلس ثلاثة أعصر متعاقبة : عصر يبتدئ من القرن الثامن وينتهى فى القرن العاشر ومزيته تقليد الأبنية الرومانية تقليدا حذو القذة بالقذة . وكان رزائه البناؤون الذين كانوا فى ديار الشام ومصر والعراق الذين بقوا على حب الخلافة الاموية فغادروا من أجلها بلاد الشرق الى بلاد الاندلس وكان الروح العربى قد تجلى فى أصحابه كل التجلى « وكان أعظم فرحهم على ما قاله المسيو رينو أن يكثروا من الأشياء التى كانت قد أثرت على أنظارهم فى وطنهم الذى نشأوا فيه » وأراد الخليفة عبد الرحمن الذى خط بيده رسم جامع قرطبة أن يكون جامعه شبيها بالجامع

الذى شيده اهل بيته فى دمشق الفيحاء وأن يفوق زخرفه وبهاؤه زخرف وبهاء الجامع الذى كان يقيمه العباسيون آنئذ فى بغداد دار السلام . وقد وصف اوسابيوس القيصرى فى كتابه : « ترجمة قسطنطين » الابنية التى شادها هذا القيصر وكان فيها أفنية واسعة وأروقة عالية وشاذروانات تقذف مياهها الى بعد شاسع ومقاصير حسنة الهندام معدة لايواء القسوس وخدم الدين . فلا جرم أن هذه المصانع كانت أمثلة لما بنى من الجوامع فى ديار الشام وفلسطين ومصر على ما لاحظه رزاة العصر التابع من اهل المغرب بعد ان قابلوا أبنية بأبنية ولا سيما لأنهم يعلمون أعمار تلك الابنية وما سبق احدها الآخر . ففى الجوامع التى عمرت فى تلك الازمان تكاثر الفسافس (١) البوزنطية . وفى سنة ٩٦٥ م كانت الزخارف اليونانية الفنية بنقوشها وانواع زينتها . لا ترضى أصحاب الفن لميل انفسهم الى ما هو أرق منها وأوقع فى النفس فاخذوا يبحثون عن زخارف زاهية وشرعوا يكثرون من دقائقها فاصبح شكل العقود غزير التخاريم والمنعرجات المختلفة كما يشاهد هذا الاثر فى قرطبة فى مسجد (كابلة) فلاقشيوسا الذى أنشئ فى خلافة الحاكم (سنة ٩٦٥ م) وهذا هو العصر الثانى من عصور الريازة العربيـــة . اما عصرها الثالث فهو الذى حدث بعد سقوط خلافة قرطبة وذلك ان عرب الاندلس دانوا للمسلمين الافريقيين فانحط شيئا فشيئا الروح العربى فنشأ فى الصنائع والفنون الراقية مزية جديدة سماها أحد المحدثين من أصحاب الفن وهو العلامة جيرو دى برانجى « الريازة الاسلامية المغربية أو الافريقية » اذ ترى فى تلك البناية قيام العقد اليونانى الثقيل الساذج بجنب عقد بيضى الشكل كثير الرشاقة او قليلها على ما يبدو لك ذلك فى مختلف الابنيـــة ويتلو التزيين البوزنطى المنتظم التخريمات

---

(١) الفسافس جمـــع فسيفساء وهى حصى صغيرة ملونة اذا وضعت احداها بجانب اختها بمقدار عدد معلوم ينشأ منها تصاوير ونقوش مختلفة .

والتزويقات الغريبة الاشكال التى سماها العلماء « الزخارف العربية » كما اسلفنا الكلام عنها وابدلت نسافس الزجاج والرخام بفسافس الكاشانى (او الكاشى) الزاهية الالوان على أشكال وصور بديعة ادخلها الفن الجديد طبقا لاوضاع هندسية متقنة كل الاتقان وتشاهد ايضا على جدران الابنية تزيينات من الستوق مفرغة افراغا حسنا وهى اذا جاورت بقية اجزاء التزويقات والتحسينات تفعل فعلا عجبا فى الرائى . وزمن هذا العصر الذى هو أزهى عصور الريازة الاسلامية هو المائة الثمانية عشرة فى عهد دولة الموحدين الذين كان يمتد صولجان ملكهم من بلاد الاندلس الى القسم الشمالى الشرقى من افريقية واجمل امثلة هذه البناية ترى فى إشبيلية وكانت يومئذ حاضرة دولة الموحدين فمن هذه الابنية « الجيرلدة » وبقايا الجامع الذى حول كنيسة وهى قائمة الى يومنا هذا . وبعض جهات من (القصر) فهذه الابنية على اختلافها شيدت فى خلافة المنصور ومما يميز هذا العصر عن اخويه المذكورين الكتابات والمقام الرفيع الذى صار لها فى ذلك الاوان اذ اتخذت بمنزلة زينة زينت بها العمارات على اختلاف غاياتها فرارا من اتخاذ الصور عليها . الا ان الكتابات فى نظر رزاة الافرنج ليست الا بمنزلة الامور الثانوية لا غير . ثم انتقلت هذه الحالة الى حالة اخرى ارق منها الا انها كانت آخر رمق تلك الدولة وكانت غرناطة مباءة هذا الرقى . واغلب الامثلة التى يشار اليها بالبنان انشئت فى (الحمرآء) . قال المسيو رينو الذى استشهدنا بكلامه غير مرة : اذا كانت الابنية هى لسان حال الامم وتنطق باخلاقهم وعاداتهم وعمرانهم فليس من بناء ينطق بتلك الامور كلها مثل (الحمرآء) فانك ترى فيها عنوان امة تحب الفراغ وتعشق اللهو وتغرم بالانس وتتفرغ للملاهى على ما كانت عليها فى ذلك الزمن

هذا وخارج الابنية الاسلامية ساذج يكاد يكون عاريا من الزينة وليس فيه من النوافذ الا الشئ اليسير وهذه النوافذ مسدود بالمشربيات التى يسميها

العراقيون المشبكات وهى تنم عن ان من يجلس وراءها يحب التطلع على الناس بدون ان يشرف عليه احد . وهو امر معروف فى المتحضرين من العرب . وقد اشتهر بذلك نساؤهم خاصة لوجود دار خاصة بهن تسمى الحرم . ولهذا لم يكن يومئذ فى غرناطة من المبانى العمومية سوى المساجد والمدارس والحمامات . وفى هذه المصانع نفسها لاترى فى ظاهرها الزينة والبهرجة والزخارف بل تراها فى داخلها فقط . بخلاف ما يشاهد فى الابنية اليونانية والرومانية فان الزينة كانت ترى على الخارج وفى الداخل معا . لكن العرب اعتبروا ظاهر البناء بمنزلة القشرة للثمرة . فلا تهمهم القشرة اذا كانت الثمرة حسنة

اما دور خواص المسلمين فى الاندلس فانها تشبه الدور التى ترى فى يومنا هذا على سواحل افريقية . فانك ترى مدخلها مشروعا على الطريق ولا تتصل ساحة الدار الامامية بدون مرور بدهليز (يسميه العراقيون المجاز والرومان اتريوم) وفى فناء الدار يكون غالبا شاذروان (يسميه اهل الشام نوفرة اوفسقية) وحوله صفوف من اشجار النارنج والبرتقال وحول الفناء رواق مفتوح (واسم الرواق عند العراقيين الطارمة) باعمدة لطيفة دقيقة ومن هذا الرواق تصير الى الحجر اوالغرف المنتظمة حول الشاذروان . واذا خصصنا البناية العربية فى بلاد الشام ومصر حيث لا يتبدل فيها الا ما رقاه الفن نرى فيها فروقا تميزها عن بناية عرب الاندلس وريازة مغاربة افريقية . فجوامع ديار مصر مثلا تدل على معرفة واغلة فى فن تعادل الاجسام واختيار المواد اللازمة للبناء اما تزيينهم للابنية واتخاذ الكتابات المزخرفة فالظاهر انه ليس فى مصر القاهرة معهد يفوق او يجارى الحمراء فى الاندلس

ماتقدم بسطه هو نظر عام فى ابنية المسلمين فى ديار الغرب . اما فى الشرق فان لريازة الفارسية اثرت كل التأثير على الريازة الاسلامية بل اكثر مما اثرت عليها الريازة الرومية . ففى البناية الفارسية من الاشكال المتلاعبة ما انشأ فى نفوس العرب المشارقة

طرزا خاصا بهم يمترج فيه الطرز الرومى بالطرز الفارسى فاكتظت فى الجوامع القبب البيضية والمخروطة على حدما كان يرى فى مصانع الفرس والهنود القديمة وقد اقتبسها من الشرق بناة الروس ورزاتهم . فازدانت المآذن بأحواض مسننة وشرافاتها ناتئة وداخلة على طبق ما يرى اليوم فى بعض الابنية القديمة فى ديار فارس . وامتدت قسى الفتحات على شكل عقد مبالغ فيه وارتفعت بيضية الشكل حادتها وازدانت بتقاطيع وتزاويق عديدة تميز بينها تلك القبيبات المعلقة كأنها انصاف أجراس مستديرة وتكاد تتذبذب فى الهواء لما فيها من حسن أسلوب الوضع و رشاقة الاشكال وهى التى سماها الاسپانيون «مدياس نارنخاس» أى انصاف النارنجات .

وقد اتخذ العرب فى ابنيتهم الحجارة المنحوتة والاشكنج (١) وربما ناوبوا بين طبقة من هذا وطبقة من تلك اوبين طبقة من الحجارة وطبقة من اللياط واتخذوا بمهارة ما سموه التعبئة وهى ضرب من الملاط ممزوج بحصى كانوا يفرغونه بين الالواح الراكبة تخن الحائط الذى يريدون بناءه . فاذاصلبت تلك التعبئة يغشونها بطلاء رقيق يدفع عنه الرطوبة . اما الابنية المستديرة فقد ندر وجودها عندمسلمى العرب . وكانت ابراجهم مربعة كماتشاهد فى ميادين آرل فى فرنسة وكانت بعض الاحيان مسمنة الزوايا . اما اذا اردت ان تشاهد امثلة بناء الفن العربى فعليك ببلادالاندلس وافريقية وسورية وصقلية وفى بعض مدن جنوبى فرنسة .

---

(١) الاشكنج كلمة معروفة عند العراقيين و يراد بها صغار الحجار تتخذ حشوا فى البناء وهى لاتوجد فى معاجم اللغة مع انها قديمة وقد ذكرها الجاحظ فى كتاب البخلاء (ص ١٢١) اذ يقول : وما كان من اشكنج فهو مجموع البناء اه . والكلمة فارسية الاصل وهى فيها بهذا المعنى .

واما البناية فى العراق فهى على طرزين : طرز سبق الاسلام وطرز عقبه . فالطرز السابق الاسلام كان يقرب من الطرز الفارسى الساسانى مع شئ من الطرز الرومى وكان اغلب بناته العرب النصارى فكانوا يعنون بتشييد الحصون والقصور والبيع والاديرة ولم يبق فى ديارنا من تلك الابنية الا مايسمى اليوم بالاخيضر بقرب شفاثا اوبجوار النجف . وما الاخيضر على رأى بعضهم الا تصحيف الأكيدر اى قصر الاكيدر وهو صاحب القصر وبانيه . ويوافق هذا الراى ان محله يوافق كل الموافقة ماوصفه ياقوت عن قصر ومنازل فى دومة الحيرة وهى غير دومة الجندل وكلتاهما للاكيدر وهذا بعض ماقاله الحموى : «فأما دومة (الجندل) فعليها سور يتحصن به . وفى داخل السور حصن منيع يقال له «مارد» وهو حصن اكيدر الملك ابن عبدالملك ... السكونى الكندى ... وكان نصرانيا . ونقض اكيدر الصلح ... فاجلاه عمر رضه من دومة فى من اجلى من مخالفى دين الاسلام الى الحيرة فنزل فى موضع منها قرب عين التمر و بنى به منازل وسماه دومة وقيل دوماء باسم حصنه بوادى القرى فهو قائم يعرف الا انه خراب» . قلنا : وهذا القصر قائم الى يومنا هذا وقد وصفه المسيو لويس ماسنيون الفرنسوى فى رحلته ووصفته أيضا أحسن وصف الخاتون الكريمة «المس جرترود لوثيان بل» الشهيرة فى بلادنا وقد فصلت هذا الوصف فى كتابها الموسوم «من مراد الى مراد» وذكرت عنه فرائد جزيلة وصورته على اختلاف جوانبه وحجره فجاء التصوير أحسن مثال له ولمن يريد أن يشاهده بدون أن يذهب اليه . فعلى من يريد الوقوف على كل ذلك أن يراجع الكتاب المذكور ومن القصور السابقة للاسلام الخورنق والسدير ولهما أطلال باقية فى جوار النجف أيضا . وهناك غيرها من القصور كبارق وسنداد والحارى وكان هذا من أبدع ما بنى . قد نقل المسعودى فى مروج الذهب «ان بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر أحدث بنيانا فى دار قراره وهى الحيرة على صورة (جيش) الحرب وهيئته للهجته بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها فى سائر احواله فكان الرواق مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة

وميسرة ويكون فى البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه وفى اليمين منها خزانة الكسوة ، وفى الشمال ما احتيج اليه من الشراب . والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والابواب الثلاثة على الرواق فسمى هذا البنيان الى هذا الوقت « بالحيرى بكمين » اضافة الى الحيرة اه المقصود من ايراده . قلنا : وسمى بعضهم هذا النوع من البناء السدلى والسدير كما اشار اليه لغويو العرب .

واما الاديرة التى بنتها العرب قبل الاسلام فكثيرة ذكر شيئا منها ياقوت فى معجمه وخص منها بالتفصيل دير هند الصغرى ودير هند الكبرى ونحن نذكر هنا بعض ما قاله عن دير هند الكبرى . قال :(وهو ايضا بالحيرة (كدير هند الصغرى) بنته هند ام عمرو بن هند وهى هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندى وكان فى صدره مكتوب :(بنت هذه البيعه هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك وام الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيدة فى ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان فى زمن مارافوريم الاسقف . فالاله الذى بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها ويقومها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر .) انتهى

ومن الاديرة القديمة الشهيرة دير العاقول قال عنه ياقوت :(هو دير عظيم شبيه بالحصن المنيع وعليه سور عظيم عال محكم البناء وفيه مائة قلاية لرهبانه وهم يتبايعون هذه القلالى بينهم من الف دينار الى مائتى دينار وحول كل قلاية بستان فيه من جميع الثمار وتباع غلة البستان منها من مائتى دينار الى خمسين دينارا وفى وسطه صهريج جار . اه . هذا وصف شئ من ابنية العرب قبل الاسلام . واما بعد الاسلام فان طرز البناء اصبح مركبا من الطرز الفارسى والطرز الرومى على ما اسلفنا القول . وقد بنى العباسيون فى العراق ابنية كثيرة كان اغلبها جوامع وقصورا وفى نحو آخر خلافتهم عنوا باقامة المدارس . وقصورهم كانت كثيرة

وكان اكثرها فى بغداد وفى سامراء فمنها القصر الحسنى والخلد والتاج والثريا وقصر السلام والقصر الابيض والرقة والحيز والعروس والمختار والوحيد والجعفرى المحدث والغريب والشبدان والبرج والصبح والمليح وقصر بستان الايتاخية والتل والجوسق وبركوارا (ويروى بركوان وهو خطأ) والقلائد والفرد (ويروى الغرد وهو خطأ) والماحوزة (ويروى الماجوزة وهو خطأ) وهو القصر بالمتوكلية ايضا والبهو واللؤلؤة والجعفرى والمعشوق وهذا وحده موجود منه شئ فى سامرا . واما من قصور العباسيين فى بغداد فانه لايوجد سوى بقايا من قصر على دجلة يقال انه بقايا التاج وهو مايرى فى القلعة الحالية التى كانت فى عهد الاتراك (الطوبخانة) ففيها من المحاسن وآيات الزخرف مايدل على ان رزاة ذلك العهد بلغوا ابعد الشأو فى فنهم . ومادة البناء هى الآجر او الطاباق قد احسنوا شيه ونقشه وزخرفه حتى اذا وضعت الآجرة بجانب الآجرة الاخرى اختها الى اختها نشأ من مجموعها جميعا نقوش وزخارف عربية تأخذ بمجامع القلوب وتسكر الالباب وقد صورها احد مهندسى الفرنسويين وهو المسيو ڤيوله فكتب عنها رسالة وصف فيها ما لتلك البدائع من الروائع واطنب فى الكلام عن صانعيها

ومما صبر على أسباب الزمان بعض ردهات وأبهاء المدرسة المستنصرية وهى التى اتخذت مخزنا للمكس (للكمرك) فى عهد الترك . وقد أخذت هذه البقايا تتداعى لان التورانيين لم يعنوا بترميم ما كان يخرب منها . وقد صور المسيو ڤيوله المذكور عدة اقسام من هذا البناء الفخم الضخم ونشرها ايضا ڤان مكس ڤان برشم والالمانيان ساره وهرتسفلد والمسيو لويس ماسنيون

وقد قرئ على باب الخان الذى يجاور المكس الكتابة الاتية : « قد أنشأ هذا المحل رغبة فى ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا وطلبا للفوز بجنات الفردوس التى أعدها للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلا وأمر أن تجعل مدرسة

للفقهاء على المذاهب الاربعة سيدنا ومولانا امام المسلمين وخليفة رب العالمين أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين شيد الله معالم الدين بخلود سلطانه وأحيا قلوب أهل العمل بتضاعيف نعمه واحسانه وذلك فى سنة ثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله » وقد وصف المسيو فيوله المذكور رسم هذه المدرسة فى القديم وكيفية تقسيم ردهاتها فلا حاجة الى اعادة كلامه هنا لضيق مجال كتابنا هذا .

ومما بقى الى يومنا هذا منارة سوق الغزل وكانت تسمى قبل نحو نصف قرن « منارة جامع الخلفاء » الا ان متولى الاوقاف بنوا بجانبها سوقا يباع فيه الغزل فعرفت السوق بسوق الغزل عند العوام وبها اشتهرت المنارة . ولاجرم أن هذه المئذنة كانت فى جامع كبير سعته المحلة التى بنيت فى موضعه . ولا يعرف على التحقيق بانيها اذ الآراء متضاربة فيها الا انها تتفق على كونها من بناء العباسيين الاولين . وقد حاول العجم فى سنة ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) هدمها قبل أن تسقط المدينة بيد السلطان مراد الرابع باطلاق المدافع عليها فلم ينجحوا فى سعيهم الذميم انما توصلوا فقط الى كشط الجانب الغربى منها كما يرى ذلك الى يومنا هذا . ولما دخل الانكليز بغداد ورأوا ضعف أسسها اذ كان العوام تعبث بها دائما أصلحوها كما يجب حفظا لهذا الاثر الجليل . — هذ أهم ما يقال مما بقى من مصانع الخلفاء العباسيين فى عهدنا هذا .

فى العرب وفى مزاياهم الخاصة بهم — وفى أقسام العرب
المختلفة من بادية ومتحضرة — وفى أقسام القبائل
من قديمة وحديثة مع ذكر منازلهم .

— العرب ومزاياهم الخاصة لهم —

تعريفهم

العرب من أعرق الامم فى القدم ترجع فى أصلها الى سام بن نوح . وقد عاصرت جميع الامم المشهورة فى التاريخ كالشمريين والاكديين والبابليين

والاشوريين والكلدان والمصريين واليونان والرومان . وكل هذه الامم بادت وانقرضت ، أما هى فانها لازالت حية . وقد هاجمتها بعض تلك الامم فلم تفتح من ديارها الا شيئا زهيدا بقيت فى أيديها مدة وجيزة . أما هى فانها هاجمت جميع من عاداها فافتتحت بلادهم وبقيت فى أيديها مدة طويلة

اسمهم

أما اسم العرب فقد ذهب الناس فى معناه مذاهب شتى . فمنهم من قال « ان بعض أولاد سام بن نوح استوطنوا العراق وطردهم بنو حام فذهبوا بعضهم شمالا الى اشور وبعضهم ذهبوا غربا فسموا عربا لهذا السبب لان اللغة السامية الاصلية لاغين فيها فلفظة عرب بمعنى غرب واختلط بهم نسل اسمعيل ونسل مدين ونسل عيسو ونسل لوط وفى الجهات الجنوبية اختلطوا بقبائل من نسل حام فصاروا خلطا بلطا ونشا منهم قبائل وبطون كثيرة باد أكثرها أواندمج فى غيره حتى لم يبق لها رسم منذ أدوار . »

وقال فريق ان العرب مشتق من الاعراب بمعنى الابانة من قولهم أعرب الرجل عما فى ضميره اذا أبان عنه . وهذا تعليل محدث لايعتمد عليه .

وزعم فريق آخر الى انه مشتق من غرب الشئ (بالغين المعجمة) بمعنى اسود لسمرة الوانهم والعرب يسمون السمرة سوادا من باب التوسع وقال كثيرون : سمى العرب عربا من عربة وهى فى الاصل اسم لبلاد العرب .

وقال بعضهم : اول من انطق الله لسانه بلغة العرب يعرب بن قحطان وهو أبو اليمن وهم العرب العاربة

على أن الرأى المقبول اليوم عند أغلب المستشرقين والعلماء الباحثين العصريين أن العرب مشتقة من « عربا » وهى مفقودة فى العربية الا أنها موجودة

فى العبرية والارمية بمعنى البادية والصحراء . فمعنى العرب اذا فى الأصل أهل البادية أو البدو لأنهم كانوا فى الأصل من الأمم التى تعيش فى البوادى وذهب بعضهم الى أن كلمة «عرباء» موجودة فى اللغة الضادية فى قولهم (العرب العرباء) أى العرب الخلص وهم أهل البادية .

مميزاتهم

أما مميزات الأعراب فهى واحدة فى المتحضرين والمتبدّين باختلاف طفيف ناشئ من البيئة والهواء والمعيشة واختلاط الدم . ويعرف أهل البادية بقامتهم المتوسطة الحسنة التقطيع وبهزال الجسم لكنهم ذوو نشاط غريب وسعى حثيث سريعوا الحركة سمر الألوان ويكادون يكونون سودا وملامحهم منتظمة أسيلو الخدود أى بيضيو الوجوه ورؤوسهم على أشكال مختلفة فى أغلب الأحيان ومصومعتها وجباههم مشرفة وعيونهم سوداء وبصاصة الا أن تقطيب الوجه واغماض العينين فرارا من الشمس عند النظر الى البعد ينشئ فيهم منظر رجال قلقين والناظر اليهم يتوهم انهم فى منتهى التوحش وليس الأمر كما يظهر فى الخارج اذ انهم فى منتهى الأنس والالفة . والبدوى يشيخ ويهرم سريعا فيتغضن جلده ويتشنج قبل اوانه فى الهواء المطلق . ولا يناهز الأربعين سنة الا وقد وخطه الشيب واذا بلغ الخمسين هرم هرما بينا . ولا يبلغ أحدهم الستين الا قليلا " بيد أن تلك الحياة التى تتدفق همة ونشاطا لا تعرف الأمراض لا نادرا . ومما امتاز وابه القناعة والرضى باليسير من الطعام مما ينقلب عليهم بالصحة وسلامة الجسم من العاهات الوبيلة التى ترى فى النهمين أو الاكولين ولهذا يكون فكرهم رائقا دائما وحافظتهم واسعة وخواطرهم متنبهة وقد تعلموا منذ نعومة أظفارهم اتخاذ الارض فراشا واحتمال حرارة الشمس المتوقدة والنوم غرارا والاكتفاء باليسير من الطعام والصبر على العطش ولو فى حمارة القيظ . وهم لا يتعاطون المسكرات وأغلب شربهم الشنين أو اللبن الحقين الذى يهز معاطف الانسان بدون أن يسكره وهم فى الغالب لا يأكلون الآمرة واحدة

فى النهار هى الوجبة وقدرها شئ زهيد بالنظر الى ما يأكله أهل ديار الغرب من كثرة الألوان وغيرها .

أخلاقهم

هذه نظرة فى مجمل مميزاتهم الخلقية وأما مميزاتهم الخلقية فهى غريبة كل الغرابة اذ تجتمع فيها المحاسن والمساوئ معا أو المناقب والمعايب معا وهذا ينشأ من انفرادهم فى البرارى وضرورات الازمان ومخاطر الحياة فى البوادى التى احتلوها مما يجعل دمهم فوارا ومزاجهم متقلبا بتقلب أهوية الفلوات وتخيلهم ميالا الى كل قوة طارئة ميل الكلا الذى يأنس اليه ويعيش فى وسطه ويأخذ منه تموجه عند ادنى حركة فى النسيم فمن فضائله ومحامده انه فى غاية الصبر حتى لا يكاد يجاريه فيه أحد فهو يحتمل الحر والقر . الجوع والعطش . التعب والراحة . الشغل والبطالة . كثرة الشئ وقلته بنفس واحدة بدون تبرم أو تضجر . ومع هذا الصبر العجيب قد يثور فيه الغضب العظيم ويطلب الثار الشديد اذا اهانه الواحد أو احتقره وشتمه أو ضربه . — البدوى طماع وسلاب فاذا رأى عندك شيئا لماعا أو رنانا أو حسن اللون مال اليه واراد الاحتفاظ به . لكن ندا كرام الضيف ينسى كل شئ ويجود لك بنفسه . — البدوى شديد المعاملة اذا اراد سلبك ونهبك . ولكنه لا يقتلك واذا احتميت به أو نزلت خيمته أعزك وابدى لك من الظرف حسن المعاملة ما لا تجد مثيلا له فى اوغل الناس فى المدنية . وهو يعاملك بالحسنى ولو كنت عدوه وذلك اذا ما انزلك فى حماه وكنفه . — البدوى ينظر الى السلب والنهب والغزو بغير العين التى ننظر بها اليها . والذى يجيزله ذلك فقر الارض التى وجد فيها فهو ينظر الى عابر السبيل بمنزلة رزق قيضه الله له . اذ ان هذا العابر لابد ان يصل محلا فيجد فيه ما يستغنى عما خسره فى رحلته ولذلك لا يتعرض بحياته البتة . وهو لا يميز بين المحاربة وبين الخدعة فما يأخذه بقوة السلاح فى الشبكة التى نصبها للمسافر أو فى عثوره عليه هو بمنزلة كسب او ربح وعنده لا فرق بين

سلب هذا الرجل ابن السبيل و بين فتح مدينة او بلاد هجم عليها وهى لعدوه . — والذى يميز البدوى كل التمييز ويفرقه عن سائر الخلق حبه للحرية والاستقلال . فقد بلغت به هذه الشاعرة مبلغا لايمكن للحضرى ان يتصورها فهو يخيرها على كل موجود على الارض مهما كان عزيزا أو ثمينا . ومن يحاول ان يقيد البدوى بقيد من القيود كمن يحاول تقييد السنونوة فى قفص فانها لاتزال تضرب جدار القفص برؤوسها حتى تموت مفضلة الموت على الحياة بقيد ولذا ترى البدوى يحتقر كل الاحتقار أبناء المدن اذ البقاء فيها هو القضاء على حريته . تلك الحرية التى احتفظ بها منذ خلق الخلائق الى يومنا هذا . اذ أهل البادية وحدهم بقوا محافظين على معيشتهم . بينما ترى سائر الاجيال خضعت للقيد والربط والحصر والضيق . — البدوى سريع الخاطر متوقد الذهن ولولم يدرس العلوم والفنون . فان ذكاءه فطرى وسليقته سليمة من معايب التمدن وليس من بدوى الا وتراه شاعرا يصف لك الامــور على حقائقها ودقائقها . الا وتراه بليغا اذ لا يكلمك الا ويقنعك بسحر كلامه . الا وتراه خطيبا لما يسرد لك من المبادئ الصادقة المغزى والمعنى والمبنى بصوت تسكرك نغمته ونبرته . — البدوى يصدق كل ماتقول له من الخرافات والاقاويل الصبيانية لسلامة نيته . — البدوى تجيش نفسه لادنى وصف او اغراء لكون خياله يضـارع هواء باديتـه الذى يتقلب بين برد ودفء وحر وومد فى النهار الواحد . — البدوى يحب الاحاديث الخياليـة والاقاصيص الجنية والحكايات الملفقة أو الشبيهة بالملفقة ممايكثر فيها الأوهام والخياليات . — البدوى قابل لكل شئ عظيم اذا ماعرف العاقل ان يسوسه أو أقنعه بفكر ظهر له فيه منفعته . — البدوى يتلون تلون الحرباء ويتقلب تقلب الطفل . تقول له شيئا فيصدقه ثم يأتيه آخر فيخرجه من فكره بالسرعة التى دخلها . — البدوى لادليل له الا سليقته الوقتية ويحكم على الامور بموجب ظواهرها ولا يهمه بواطنها . وهو ينخـدع بالبوارق وينقاد لما فيـه جلبـة وروائع . — البدوى وحده لم تتغير صفاته وان تغير الزمان . طالع ماجاء فى الكتب القديمة

من وصف أخلاقه وقابلها بما هو عليه الآن لاتجد فرقا . حتى ولا فرقا زهيدا . والعادات والسنن التى يجرى عليها اليوم هى نفس العادات والسنن التى جرى عليها أجداده فى سابق الزمن وعلى طبق مانراها مدونة فى أسفار الاقدمين الذين جاوروهم أو عاشروهم أو خالطوهم . ولهذا تجد كثيرا من الأمور التى أعضل فهمها على العلماء والمؤرخين ، زال عنها الابهام وانهتكت أستارها عند ماوقفوا بأنفسهم على أهل البادية المعاصرين لنا . — البدوى يحتقر الموت ولا يعده شيئا فهو شجاع مستبسل منذ صبائه . فالموت عنـده شرب كأس لاغير ولهذا كثيرا مايموت قتلا وهو الموت المرغوب لكل واحد من الاعزة . وقد نعتوا الموت بنعوت منها الموت الاســود وهو الموت خنقا لان لون المخنوق يكون أزرق وهو عندهم أسود . والموت الاحمر قتلا لان دمه يسفك . والموت الابيض وهو المــوت فجأة لان كثـيرا مايبقى لون المفاجأ بلونه الطبيعى . واذا مات البدوى حتف أنفه يقولون عنه فطس أو هلك . — والبدوى الضعيف الدنىء خوان غدار وهو كثيرا ماينضم الى القوى من الناس ويقتـل ويغتال من خفره فاننا نقرأ فى التاريخ أن بطليموس السادس انتصر على صهره اسكندر بالاس فذهب هذا والتجأ الى أهل البادية ظنا منه أنه يجد فيهم ملجأ منيعا .

الا أن زبديئيل غدر بآداب الضيافة وضرب عنق زائره تقربا من بطليموس ودمتريوس . ثم بعث برأسه الى ملك مصر . ونرى سليمان باشا وزير بغداد القتيل احتمى فى طريقه بقبيلة الدفافعة فنزل عنـد شيخهم ضيفا فلمـا درى صاحب البيت أن المحتمى به مهزوم غدر به وقتله . وأقرب مثال رأيناه هو ماشاهدناه فى هذه الحرب العامة فان أعراب بادية العراق كانت تقتل دائمـا فلول العسكر فان كان المكسورون أتراكا قتلوا الاتراك وحاموا الانكليز ، وان كان المقهورون انكليزا قتلوا الانكليز ودافعوا عن الاتراك . هذه كانت أعمالهم فى مدة الحرب التى كانت تدور فى هـذه الانحاء بين القومين المتقاتلين فتلك

هى أخلاق أهل البادية فهى حقيقة مجمع أضداد وملتقى محاسن ومساوئ على ما افتتحنا به كلامنا وهو من أغرب الامور قلما تخطر على بال انسان

فى أقسام العرب المختلفة من بادية ومتحضرة الخ

يقسم العرب ثلاثة أقسام كبرى وهى: أهل حضر وأهل مدر وأهل وبر. فأما أهل الحضر أو المتحضرون فهم الذين يقيمون فى المدن ويعرفون أيضا بالعرب. وأهل المدر هم الذين يقيمون فى ضواحى المدن يبنون لهم أبنية من الطين ودأبهم الفلاحة والزراعة ورعاية المواشى وصنع المآكل التى تتخذ من ألبان المواشى . وأهل الوبر هم البدو أو البادية أو الاعراب أو العربان وهم يقيمون فى البرارى والفلوات ودأبهم رعاية الغنم والمواشى وقطع الطرق ونهب أبناء السبيل والغزو الدائم على مدار السنة . وهذه الاقسام وجدت منذ سابق العهد على ماتشهد به الكتب القديمة ورقم الاشوريين والبابليين والكلدان .

وأهم الاقسام المعروفة اليوم عند العلماء هى عرب الشمال وعرب الجنوب راجعين فى ذلك الى ماكان معروفا عنهم فى قدم الزمان . فان المصريين كانوا يسمون عرب الجنوب «فنطيو» أى سكان الفنط والفنط عندهم البلاد الواقعة فى جنوبى جزيرة العرب . ويسمون عرب الشمال «شاسو» تصحيف العربية «الشص» أى اللص الحاذق لكثرة سلبهم وغزوهم الناس وقد قال أحد العلماء المحدثين : «ان لاهالى قسمى ديار العرب مميزات لاتنكر ففى الشمال يرى مصفحو الرؤوس وفى الجنوب الفطح . » قلنا : وهى من المسائل التى تبنى عليها حقائق لايمكن أن تنكر وسوف نأتى على ذكر هذين القسمين بعيد هذا .

ويقسم العرب أيضا باعتبار الزمان الى عرب بائدة وهى التى لم يبق لها باق ويسمون أيضا العرب العاربة أو العرب العرباء وكانوا قبل اسمعيل ، وهم

عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم وعبيل والعماليق ووبار وصحار وجاسم وجش إرم وأمم آخرون لايعلمهم الا الله كانوا قبل الخليل وفى زمانه أيضا . وعرب مستعربة وهم عرب الحجاز من ذرية اسمعيل ولهذا يسميهم الافرنج الاسمعيليين أو الهاجريين نسبة الى هاجر وهم ليسوا بعرب خلص على ما حققه العلماء وهم ولد معدّ بن عدنان بن أدد . وعرب متعربة وهم ليسوا بخلص أيضا وهم بنو قحطان .

فلنعد الآن الى القسمين الكبيرين : قسم عرب الشمال وقسم عرب الجنوب فأهل الجنوب هم العرب اليمانيون وأهل الشمال هم بنو معد أو النزاريون الا أننا نعلم من التواريخ أن جماعات عظيمة من عرب قحطان اختلطت بعرب الشمال وطوائف عديدة من النزاريين هبطوا ديار اليمن فاختلطوا بأهلها . على أن الأغلبية بقيت لسكان البلاد الأصليين أى بقى النزاريون سائدين فى الشمال والقحطانيون سائدين فى الجنوب . وكان النزاع بين قبائل الفريقين على قدم وساق منذ العهد القديم . ولعل سبب الخصام هو أن أهل الشمال كانوا يدعون ان أهل الجنوب دخلاء فى البلاد العربية وذلك أن القبائل القحطانية كانت قد تحاكت بسكان الجنوب كأهل اليمن وحضرموت وعمان فأدخلت فى لسانها ولعل أيضا فى أخلاقها وعاداتها أمورا كثيرة لم تكن معروفة أومألوفة بين القبائل الشمالية فكانت من ثم مزعجة لها مجحفة بها . وهذا النزاع زاد شدة مع الزمان حتى أصبح من الامور المميزة لقوم من قوم ولما جاء الاسلام كان الانصار من سكان المدينة ومن العنصر اليمانى معادين للقرشيين أهل مكة لأنهم كانوا نزاريين وهذا النزاع كان من أضر الامور للسيادة العربية فى العالم وهو لا يزال قائما بين قبائل الفريقين ولا سيما فى ديار العرب

واذا ألقيت بصرك على أشجار النسب العربى ترى جميع اليمانيين من صلب قحطان ومن الامور التى تجدر بالتدبر والاعتبار أن القحطانيين معروفون الى يومنا هذا بمنزلة قبيلة مهمة محتلة بقعة تمتد فى شرق الحجاز وكذلك تمتد

ايضا من شمالى اليمن الى البادية العظمى وفى جنوبى هذه الرقعة تمتد ديار قبيلة كهلان التى خرج منها أهم الأحياء اليمانية .

ويتصل أو اتصل بالأحياء اليمانية الآتى ذكرهم :

١ بنو طيئ وقد أقاموا منذ نحو ألفى سنة فى جوار جبليهم الشهيرين وهما أجأ وسلمى وقد سمى السريان والفرس العرب كلهم طائيين من باب تسمية الكل باسم الجزء ولأنهم كانوا متصلين بقبائل هذا الحى أكثر مما كانوا متصلين بسائر القبائل وبنو طيئ يعرفون اليوم باسم «شمر» وهو اسم أحد أفخاذهم الذى تسلط على من بقى منهم وكان مقام الشمريين فى قرية اسمها توارن على ماقاله ياقوت فى معجمه اذ يذكر أنها «قرية فى أجا أحد جبلى طيئ لبنى شمر من بنى زهير» ولا يتسمى اليوم باسم طيئ الا عشيرتان فى الجزيرة وقد بقيتا تابعتين لشمر لكنهما لا تدفعان لهم خاوة (١) ويعتبرونهما متساويتين لهم وقد هبط الشمريون أرض الجزيرة فى القرن السابع عشر للميلاد ولهم فيها السيادة الى اليوم وكان قد دفعهم اليها عنزة وقد ساقوهم من بادية الشام .

٢ قبائل همدان ومذحج وقد بقى معظمهم فى اليمن ويتصل بمذحج بلحارث وهم يسكنون الى هذا العهد جنوب شرقى الطائف وبجيلة وكان لهم يد قوية فى فتح العراق فى خلافة عمر .

٣ بنو عاملة وجذام وقد أقاموا فى فلسطين منذ زمن قديم واللخميون الذين شادوا على الفرات مملكة الحيرة وبنو كندة الذين لم يسودوا فى بلادهم فى حضرموت فقط بل سادوا بنى أسد فى اليمامة وكان أميرهم يسمى نفسه ملكا . وكان امرؤ القيس الشاعر المشهور من أهل هذا البيت الشريف .

---

(١) الخاوة تصحيف الخوة والخوة تخفيف الاخوة والمراد بها اليوم ماتؤديه العشيرة الضعيفة للعشيرة القوية من حقوق الحماية والدفاع عنها

٤ بنو أزد وكانو من احلاف القبائل وهم لم يفتحوا عمان ويقيموا فى جبال السراة فقط بل كان أحلافهم وهم الغساسنة قد أنشأوا مملكة فى ديار الشام وكان الخزاعيون قد استأثروا بمكة مدة من الزمن وكان الأوس والخزرج (الانصار) قد اختصوا لانفسهم يثرب (أى المدينة) .

والحى الآخر النازل من صلب قحطان هو الذى يضع النساب فى مقدمته بنى حمير أو الحميريين ومن هذا الحى بنو قضاعة وهم من قبائل شتى بينها بهراء وتنوخ وقد نزلوا ديار الشام الشمالية منذ عهد قديم . ومنهم جهينة وكان لهم الكور المجاورة لوادى إضم ومنهم أيضا بنو عذرة وهم من أقارب جهينة وجيرانهم وقد اشتهروا جبهم العذرى ومنهم بنو كلب وكانوا نازلين فى بادية الشام ومنهم بنو بلى وكانوا احتلوا شمالى الحجاز وفى خلافة عمر ذهبت طوائف من بلى وجهينة وأقاموا فى الديار المصرية .

أما قبائل شمالى بلاد العرب فهى المعروفة ايضا بالنزارية او المعدية المسمين باسم جدهم على زعمهم . والحال أن المعدية وردت فى كتاب المؤرخ پروكوپس بمنزلة قبائل متحالفة لا اسم رجل وكذلك كلمة نزار فانها وردت فى كتابة مؤرخة فى سنة ٣٢٨ ميلادية اكتشفها المسيو دسو فى النمارة فى جوار الصفا (فى شرق حوران) يقول فيها امرؤ القيس بن عمرو ملك جميع العرب انه كان يحكم على بنى أسد ونزار » . ثم ان قبائل الشمال انقسمت قسمين عظيمين وهما ربيعة ومضر وقد تمزقا كل ممزق قبل الاسلام . هذا اذا تركنا على حدة حى إياذ (بالذال المعجمة وهو غير اياد بالدال المهملة) وهو حى كان عظيم الحول والطول سابقا لكنه انقرض قبل ظهور الاسلام فقبيلتا ربيعة ومضر اللتان كانتا قد سادتا فى عزهما هاجرتا شطر الجزيرة وبقى اسمهما مخلدا فى كورتى ديار ربيعة على دجلة وديار مضر على الفرات ثم نزل تلك الديار بنو تغلب ونمر .

ويتصل بحى ربيعة قبيلتا عنزة وأسد وكانتا متحدتين ومتجاورتين كل التجاور فى شمالى وادى الرمة . وكان طريق الحاج من البصرة الى المدينة يمر بارضهما . وكانت عنزة قد احتفظت بالسيادة بعد أن طردت قضاعة من ديار العرب فى العهد السابق وفى منتصف القرن السابع عشر احتلت عنزة بادية الشام كلها أو كادت ، وأخضعتها لامرها . وبنو سباعة فى الشمال الشرقى والرولة فى الغرب يرجعون اليهم . ويرى الى اليوم فى العراق من بنى أسد ، وبنو وائل متصلون بهم كل الاتصال من جهة النسب . وقد انقسموا قسمين مهمين وهما بكر وتغلب وقد جرت الحرب بينهما بعد قتل كليب الى ما لا تحمد عقباه وكان كليب يسود وائلا فانقلبت الحرب ويلا على القبيلتين الاختين فذهبت كلتاهما مع بنى نمر من أقاربهما الى انحاء الجزيرة فاحتل بنو بكر شماليها ومن ذلك اسم ديار بكر للبلاد التى نزلوها . وكانت آمد حاضرتها فسميت باسمهم . أما بنو تغلب ونمر فانهم هبطوا جنوبيها وكانوا على النصرانية فلما جاء الاسلام اكرهوا على أداء الجزية . ويرجع الى بنى بكر بن وائل بنو حنيفة أصحاب اليمامة وكذلك جيرانهم بنو شيبان . وممن يرجع ايضا الى ربيعة عبد القيس الذين كانوا يسكنون البحرين .

وأما مضر فكان فى مقدمتها بنو قيس وقد بلغوا من القوة والمنعة منزلة اية منزلة حتى أنه سمى قيسيا كل عربى لم يكن يمانيا . واليوم ليس من يتسمى بهذا الاسم الا قبيلة صغيرة من أهل المدر نازلة على الفرات وهى تدفع الخوة لبنى شمر . وفى شرق هذه القبيلة يقطن بنو عدوان وهم يدينون لشمر أيضا وكانوا ينزلون سابقا جنوبى الحجاز بجانب بنى فهم وهذيل . ويرجع الى حى قيس أيضا هوازن وبنو سليم وكانوا يقيمون فى غربى ديار نجد فى شرقى المدينة ومكة . وفى أوائل القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) اشتد أمر بنى سليم ومجاوريهم بنى هلال الراجعين الى هوازن وضاقت البلاد بعددهم العديد حتى

خيف على المدينتين المقدستين من جهة الامن فيهما . فاكرهوا على المهاجرة فهاجروا الى ديار مصر فهبطوا أولا مدالث النيل ثم اضطروا على مغادرتها يسرا فذهبوا الى الصعيد وفى سنة ٤٤٤ رضوا بالذهاب الى شمالى أفريقية على شرط أن يعطى كل واحد منهم بعيرا ودينارا . فأغلب بدو أفريقية الشمالية يعودون فى أصلهم الى بنى سلم وبنى هلال . وشهرة بنى هلال معروفة الى هذا العهد فى شعر العامة فى قلب بلاد العرب نفسها . وكانوا يعودون فى السابق الى أحلاف قبائل عامر بن صعصعة ومنهم كان أيضا بنو كلاب وبنو قشير وبنو عقيل : وما زالت هذه القبيلة الى زمننا هذا ذات شأن وخطر فى ديار نجد . وهم باعة الاباعر وخفرة القوافل التى تظعن من ديار الشام الى دار السلام ومن عقيل خرج المنتفق وكانوا أصحاب عز ومنعة منذ المائة الرابعة للهجرة (المائة العاشرة للميلاد) وهم لا يزالون كذلك الى عهدنا هذا وديارهم جنوبى العراق .

وتشمل حى قيس بنى غطفان وفيهم قبيلتان شهيرتان وهما عبس وذبيان وقد عرفتا بقتل الاخ لأخيه بسبب جوادين عرفت الحرب باسمهما أى « حرب داحس والغبراء » وأقوى بطن ذبيان كانت فزارة . ويرجع الى مضر أيضا بنو ضبة وبنو تميم الذين احتلوا الديار التى كان فيها سابقا بنو بكر وتغلب فى نجد وتميم قبيلة ضخمة انتشرت فى كل جهة . وليس فى جزيرة العرب بدو خلص بهذا الاسم اللهم الا فى أسفل دجلة فى جهة العمارة وما داناها : بيد ان معظم سكان مدن نجد يدعون انهم من تميم . وجميع قبائل نجد البدوية هى مضرية وهى فى عهدنا هذا فى شرقى الحجاز وهم بنو حرب (مزينة) وبيدهم الطريق التى تجمع بين المدينتين المقدستين . وفى شرقى أرض هؤلاء قبيلة عتيبة العظيمة البطش وبين القبيلتين وادى الرمة وفى شرقى أرض هذه القبيلتين بنو مطير وممن يرجع الى مضر بنو خالد ومسكنهم فى شرقى اليمامة وقد كسر من غلوائهم شوكة الوهابيين .

وممن يعدّ فى مضر بنو هذيل الذين أقاموا وما زالوا يقيمون فى الجبال

المجاورة لمكة ومنهم أيضا بنو كنانة وكانوا فى سابق العهد حيا ذا بطش وحول فى جنوبى الحجاز ومن كنانة قريش تلك القبيلة العريقة فى القدم والكرم والنجار ومن أعظم القبائل سوددا . واليوم تدعى قريشا قبيلة صغيرة شاوية نازلة فى أرض مكة . وهى القبيلة الوحيدة البدوية من قبائل ديار العرب تحسن صنع الجبن .

هذه هى أشهر قبائل العرب فى التاريخ ومنها تتفرع فروع عديدة لاتحصى وكلها ترجع الى أمهاتها هذه . فلما جاء الاسلام وامتدت فتوحاته أحدث تغيرا عظيما فى عالم البداوة . فلقد أمد البدو الجيوش العربية بمقاتلين كثيرين فأنشئت مسالح فى العراق وديار الشام شديدة البأس والبطش ثم أنشئت مراكز جديدة فى غربى وشرقى تلك الديار وأقاموا فيها جندا من أهل البادية فتضعضعت بذلك بعض القبائل واضطرت الى التناصر والتعاهد والتعاقد أضاعت ما كان لها من الاستقلال فى ديارها الاصلية . وقد وقع من التحاسد بين قبائل ربيعة وقبائل مضر ما أكره بنى ربيعة على محالفة قبائل اليمن منذ عهد بعيد فى القدم مقاومة قبائل مضر .

بقى علينا ذكر من لايعتبر من صميم العرب وان كانوا يطوون بساط أيامهم بين ظهرانيهم من ذلك «بنوهتيم» وهم مبثوثون فى الحجاز ونجد وقد قال عنهم السيد مرتضى أنهم الأم قبيلة من العرب وهم ينزلون أطراف مصر (ماعدا منازلهم المذكورة) وهم صيادون مشهورون وهم أهل غنم وماشية وفيهم حدادون كثيرون ومن خساس الأعراب « الشرارات » وهم فى جنوب غربى بادية الشام وهم متصلون نسبا ببنى هتيم وهم أصحاب أباعر وممن لايعد من الاعراب بتاتا الصلبة أو الصليب فهم بمنزلة بنى ساسان (أى الكاولية أوالنور) فى البوادى وهم يحسنون الرماية والصيد وفيهم مبيضو قدورة ومركوبهم الحمار لاغير . وهم لم يذكروا بهذا الاسم فى كتب المصنفين وسببه عندنا هو لأنهم كانوا

يذكرونهم بأسماء تحقرهم كالزعانفة والاجلاف ونحوهما واسمهم مشتق من الصلابة بمعنى خشونة المعيشة وليس كما قال قوم من الافرنج انه مشتق من الصليب لاعتقاد أهل البادية انهم من صليبية الافرنج دفعهم المسلمون الى بوادى العرب تذليلا لهم واحتقارا لمذهبهم فاضاعوا فى تلك الفلوات أصلهم ودينهم .

أشغال أهل البادية

البدوى الشريف تأبى نفسه أشغال اليد أما الاشغال التى يعتبرها جديرة به فهى تربية المواشى والتجارة والصيد والغزو ونحن نذكر هنا كلا من هذه الاشغال الاربعة على ما هى معروفة عند أهل البادية وعلى مايتعاطونها وأما الزراعة والبحارة فهما عندهم من الاشغال التى تصغر بجانب الأربعة الشريفة ولقد كان بنو تميم يعيرون الازد بالنوتية لان اخوانهم العمانيين كانوا يسافرون على البحار ويشتغلون فى السفن وكانت قريش تحتقر أهل المدينة لانهم كانوا يعنون بالزراعة .

أما أكثر عناية أهل البادية فهو تربية المواشى ورعاية الاغنام لان معيشتهم متوقفة عليهما فمن الاغنام والمواشى يستخرجون اللبن الحليب وهم يخرجون مافيه من المائية فيخثرونه و يحفظونه الى وقت الحاجة فاذا أرادوا أكله خلطوه بماء وهم يتخذونه كثيرا فى أسفارهم واسمه لاقط (وقد صحفوا هذه الكلمة فى عهدنا هذا فيدعونه القطى) والمريسة والمضير . وهم يستخرجون الزبد و يحفظونه بعد أن ينفوا عنه مائيته . وصنع الجبن غير معروف عند أغلب البدو وهم لاياكلون اللحم بمنزلة طعام لهم يعتمد عليه لانهم لايذبحون الا فى أيام الأعياد والمواسم اللهم الا فى فرص متعددة يضطرون فيها الى الذبح قياما بمقتضى الاحوال كقرى الضيف أو غيره من الامور فينتج من هذا ان أكل اللحم يكاد

يكون فى كل يوم وفى كل بيت . ومن العناية بالمواشى يحصل للبدوى صوف وانسجة من شعر العنز أو من وبر الجمال فيذهب بها الى المدينة ليبيعها مع الزبد والسمن وقد يبيع شيئا من غنمه ومواشيه التى رباها. واذا كان ممن يحسن تربية الخيل فهو يبيع من الحصن بقدر مايحتاج اليه من الدراهم وقد لايبيع هذه الاشياء كلها بل يبدلها بالتمر والحبوب والثياب وأدوات البيت . وكان تجار الاعراب قبل الاسلام يشترون الخمر ويشربونها ولو كلفتهم اثمانا باهظة . أما اليوم فانهم قد أبدلوها بشرب القهوة او ابنة البن أو بتعاطى التبغ المعروف بالدخان حتى أصبح هذان الحاصلان من اهم مايحتاج اليه البدوى . ومن عجيب تصرف الزمان بابناء العصران أهل البادية أنفسهم اضطروا الى ابدال شئ من الامور العائدة الى العادات وهو اتخاذ البارودة أو البندقية وطرح القوس والنشاب اللذين ماكانا يفارقانه وهما اليوم لاوجود لهما البتة فى خيمته . والتدخين محرم عند الوهابيين ولهذا ماكان يستطيع البدوى أن يدخن فى أيام من هؤلاء المسلمين المصلحين أى فى القبائل التى كانت محتمية بهم .

ولم يعن الاعراب بالتجارة عناية خاصة انما كانت عنايتهم من باب المساعدة لاصحابها بمعنى انهم كانوا ينقلون البضائع والاموال على أباعرهم ويحامون عن القوافل التى كانت تنقل تلك البياعات وهذا كان دأبهم منذ أقدم الازمان وكان أصحاب القوافل يدفعون الى هؤلاء المبذرقة اجرة يسمونها (الخفارة) وهذه العادة جارية الى يومنا هذا عند الاعراب النازلة على طرق النقل فانهم يتقاضون مبالغ من الحكومة تعرف باسم (الصرة) واذا أراد أصحاب المدن أن يمروا بارض قبيلة يضطرون الى دفع بدل لمرورهم يسمونه (الخوة) على ماتقدمت الاشارة اليه . وهذه الخوة يدفعها أيضا كل من القبائل الضعيفة المحتمية بالقبائل الكبيرة .

والبدو مغرمون بالصيد أو القنص وهم يصطادون باستعمال الكلاب المعروفة بالسلوقية أو باتخاذ الصقورة وأغلب صيدهم يكون للغزال والاروى والمها أو بقر الوحش (وهو ضرب من الحيوان تشبه البقر له قرون طويلة مستقيمة وهو على مايظن العلماء المصريون انه هو الذى كان يسميه الاقدمون الوحيد القرن) وحمر الوحش أو الفراء وهذه الحمر من أسرع الحيوانات عدوا ولهذا يتنافس الاعراب فى صيدها ومنه المثل : كل الصيد فى جوف الفرا) وأما الصيد الصغير فهو الحجل والارانب واليرابيع والضباب وهم يصطادون النعام أيضا وأغلب صائديه بنو هتيم والصلبة الا ان هذا الطير العظيم أخذ بالتناقص بل بالانقراض من بادية شمالى جزيرة العرب .

والغزو من أهم امور معيشة الاعرابى واذا لم يتيسر له غزو قبيلة من القبائل النازلة فى انحائه غزا من كان من اقربائه هذا ماجرى فى سابق الزمن وما يجرى الى يومنا هذا فالغزو عنده يتوقف على سلب ما لعدوه من الابل والماشية وبعض الاحيان ماله من النساء والأولاد بدون أن يريق دم أحد ان أمكنه لكى لاينشأ من ذلك الغزو دية . فهذه هى أقصى أمانى البدوى واذا تم الغزو فقد تفتدى النساء والاولاد وأما الاسلاب فتقسم بمقتضى اصول معروفة عندهم فالشيخ يأخذ الحصة الكبرى لما له من المنزلة الرفيعة فى قومه ولما يقوم بالنفقات التى ينفقها قياما بالواجبات واذا وقعت خسارة فى قبيلة وضع على كل فرد من أفرادها شئ بحيث لايشعر أحد بتلك الخسارة وعلى الشيخ أن يتحمل قسما صالحا منها والبدو يربون جيادهم العراب توصلا للغزوات وأكثر مايكون الغزاة على الاباعر أما اذا حاربوا أو قاتلوا أو أرادوا الهرب والفرار ركبوا جيادهم وانسلوا . ولهذا يعتبر الجواد فخر سيده ومولاه لكنه يكلفه نفقة باهظة اذ يضطر الى ادخار ماء لشربه والغزوات هى من أجل أسباب فقر أهل البادية فكثيرا ما يذهبون الى المنازل البعيدة فتكلفهم

ضناءعظيما لهم ولدوابهم واذا غزوا قبيلة يحثون مطاياهم خوفا من أن يتأثرهم المغزوون فيضر فى هذه الغزوات الغازى والمغزو والدواب . واذا نجح المغزوون فى استرداد أسلابهم فلا أقل من أن يكون قد نالهم مشقة هم ودوابهم ومثل هذا الضرر يلحق الغازين وعليه تضطر القبائل الضعيفة الى مجاورة القبائل الضخمة دفعا لمثل هذه المصائب التى لابد منها فى تلك القفار والفلوات واذا سببت تلك الغزوات قتلا فى القبيلة فالبلية أعظم لانها تولد فى الصدور ضغائن واحقادا لا يغسل أدرانها الا اراقة الدماء من جديد إلم تفصل بين القبيلتين قضية الدم المسفوك أما بالمراضاة واما بدفع الدية ولهذا قد تضمحل القبيلة كلها بعد حدوث مثل هذه الغزوات التى لايتفق فيها على سفك الدم الذى وقع عندهم .

ادارة شؤون القبيلة فى الدنيا والدين

السيد أو الشيخ (ويسمى شيخا ولو كان شابا انما شيخوخته قائمة بفضله) فى القبيلة ليس فى الحقيقة الا المقدم من بين أشباهه وليست وظيفته مما تصل اليه وراثة بل تكون فى بيته طالما يوجد فى أبنائه رجال جديرون بما يعهد اليهم فهو أمير أو قائد فى وقت الحرب بموجب عوائدهم والآن يسمى القائد عندهم عقيد لان اللواء يعقد باسمه وأما الأمير فهو لقب من يدبر شؤون الديار التى فى يده ومن ذلك أمير حائل أو شمر و بجانب الشيخ يقوم القاضى وكثيرا ما يكون القضاء محصورا فى بيت من البيوتات وهو يقضى بموجب «العادة» أو «العرف» وهذا يوافق الفقه الاسلامى اذا كان هذا الفقه قد أفرغ سابقا فى قالب عادتهم أو عرفهم وليس على الشيخ الا المشورة ولا يحق له أن يأمر فى القضايا الراجعة الى القضاء كما أن الحكم لا يوجب على أحد الطرفين الا ايجابا أدبيا لا ايجابا مدنيا لا مناص له منه والقضاء فى بلاد نجد وقراه يكون للعالم بالفقه الاسلامى وهو الذى يكون اماما فى الصلوات وخطيبا فى الجمع والأعياد ويسمى

(المطوع) وأما الذى يحكم بالعادة ويسمى (العارفة) فهو مخصوص بالاعراب الرحل وما يحكم به كالقوانين المسلمة لديهم وعرب نجد لا يأكلون ذبائح مثل هؤلاء الاعراب ويحكون عليهم بأنهم من الجاهلية .

وتكافل أفراد القبيلة الواحدة وتضامنها يوجبان على رؤسائها أن يحافظوا على آداب أبنائهم المنتسبين اليهم ولذلك اذا أتى أحد أعضاء القبيلة أمرا لا تريد القبيلة أن تأخذ على نفسها نتيجته أو اذا أخطأ الى القبيلة كلها ينفى حينئذ ذلك العضو من صميم أهلها واذا لم تقبله عشيرة أخرى حاق به البلاء لا محالة فالشاعرة التى تسوقهم الى التكافل والتضامن، والى الدفاع عن حقوقهم واتخاذ جميع الوسائل المؤدية الى خير القبيلة ونفعها وصلاحها تعرف عندهم بالعصبية وقد تزول هذه العصبية فى بعض القبائل حتى لا يبقى لها أثر يذكر فتكون تحزبا صرفا ليس الا . وأهل البادية هم من أطمع الناس فى الاشياء وأشدهم حرصا على منافعهم الشخصية فهم لا ينظرون الى الأشياء الا اذا كانت تفيدهم فائدة أو تضرهم ضررا وأما الفائدة العامة فقلما يلتفتون اليها اللهم الا أن تكون عاقبة الأمر مما يعود عليهم بالعار والشنار فحينئذ يقدرون الأمور حق قدرها . والبدوى قليل الالتفات الى مسألة الدين فهو عنده من أواخر الأمور وعقيدته ضعيفة وليس له من الاوابد اى الاعتقادات الباطلة شئ يلتفت اليه، الا انه حيث تسربت الوهابية فالقائلون به من أهل البادية متمسكون بأوامره ونواهيه ان حكمنا على ظواهر ما يبدو منهم وهذا بين اعراب نجد الذين يرون متمسكين باهداب الدين الحنيف . وقد أضر تعصب بعض جهلة الوهابيين ضررا عظيما بكثير من أهل البادية . — أما العرب أهل الحضر فانهم بخلاف أهل البادية متمسكون بعروة دينهم وقد يحملون على التعصب على أهون وجه يكون ،

عيشة أهل البيت البـــدوى

أغلب ما يكون للبدوى امرأة واحدة ولا يتزوّج عليها أخرى الا اذا كانت عاقرا ولا يريد أن يطلقها وللشيوخ فى أغلب الأحيان ثلاث نساء أو أربع ويفعلون ذلك لاسباب منها سياسية ليتصلوا ببيت شهير مثلا ومنها — وهـذا نادر — ليضمنوا راحة امرأة ومنها لغايات أخرى لا تخفى على القارئ ويغلب زواج البنات وهن لم يبلغن من عمرهن الثانية عشرة ولهذا السبب ولانهن يرضعن أولادهنّ سنتين أو ثلاث سنوات يهرمن سريعا وقبل أوانهنّ وزد على هذا انهنّ يشتغلن أشغالا كثيرة شاقة مثـــل جلب المـاء على أظهرهنّ وقطع الحطب ونقـله وحلب المواشي ومخض السمن أو الزبدة وطبخ الطعام ونسج شقق الخيمة والحف والألبسـة والنساء الشريفات الكبيرات يدعن هــذه الأشغال لمن دونهنّ من نساء البيت ومهما يكن من أمر البـدوية فهى أرق حالا من الحضرية فهى تتمتع بحرية لا تتمتع بها هذه ولها من المقام فى خيمتها يقصر دونه مقام المرأة الحضرية والكريمة البدوية أى الابنة الشريفة لها منزلة رفيعة فى قلوب الجميع وكثيرا ما تجزء السيدات منهنّ فى أمور كثيرة مهمة مما يدل على ان لكلمتهنّ فى البيت أو فى العشيرة شأنا خطيرا الا أنه لا يباح للمرأة البدوية البهو وهو من الخيمة المكان الخاص بالرجال والبـــدويات لا يستعملن البرقع واذا كان بينهنّ من يستعمله فهو نادر غاية النــدرة وتربيــة الأولاد فى بيوت البدو فى نهاية القصور غير أنهـم يعوّدون احترام الوالدين واكرام الشيوخ والكهول حتى فى القبائل غير المهذبة .

ولاهل البادية كرامة نفس وإباء وشهامة قلما يرى أمثالها فى ابناء المدن وقد شهد بذلك جميع من خالطهم من عرب وافرنج ايمـا وجدوهم من منازل ديارهم . وهم معروفون ايضا بظرفهم وأدبهم وحسن سلوكهم ومما يفوق هذا كله اشتهارهم بالكرم منذ أقدم الزمن . هذه المزايا التى هي أم الكمال المعروف

عنـدهم باسم « المروءة » نعم انهم يغزون بطيبة خاطر . أما السرقة فانهم يقبحونها . وهم يكرمون الضيف غاية الاكرام وفى نيتهم أن يعلن محاسنهم ومكارمهم ويطريهم اينما حل ورحل فالغاية القصوى من أمانى الاعرابى العالى الطبقة هى أن يحترمه الناس و يجلوه و يعلنوا فضله وكرم أخلاقه وسخاءه وشجاعته و بسالته وان يخافوه و يعجبوا به .

طعام البـــدوى

طعام البدو اليومى فى غاية البساطة فقد كان سابقا عبارة عن « السويق » وكان يتخذ عندهم من غليظ الدقيق (او الجريش ويكون جريشهم هذا من الحبوب المحمسة) مع التمر والماء أو اللبن الحليب أما طعامهم اليوم فهو « البرغل » اسمه القديم « البربور » أو « الغذيرة » وقد ذهب المستشرقون الى أن كلمة البرغل (١) فارسية والاعراب يتخذونه من بر قد غلى او ذرة قد غليت وأخرج قشرهما وهم يهيلون عليه سمنــا أو دهنا أو لبنــا مخيضا اذا نزل بهـم ضيف وقد يجعلون فيه اللحم . وكان الخبز نادر الوجود فى أيام الجاهلية لكن منـذ المجاعة التى أتلفت نفوسا كثيرة فى السنة ١٨ هـ « ٦٣٩ م » أخذ الاعراب يجلبون حنطهم من ديار مصر وخبزهم قرص يلصقونها بالتنور لاتقان شيه وهم مولعون باللبن المخيض ويكرمون من شربه بمنزلة مرطب لهم ومبرد . والتمر لبعض القبائل يتخذ طعاما رئيسا لمأكلهم واذا اجدبت السنة عندهم اكلوا كل ما وقع تحت أيديهم (٢) الضب واليربوع والحيـة والوبر والذئب والثعلب وأنواعا مختلفة من الابنية والعروق .

---

(١) مع انه لاوجه لفارسيتها بل البرغل منحوت من برغل (ش . أ .)

(٢) . أبناء اعراب نجد يرغبون فى لحوم الابل والغنم والضب واليربوع وأما الحيـة والذئب وسائر سباع البهائم فلا يأكلونها نعم لهم كمال الرغبة فى أكل الجراد بعد طبخه أو شيه ولا يأكلون كل جراد بل جراد الضخم الجثة (ش . أ .)

لباس البدوى

والبساطة لا توجد فى طعامهم فقط بل تراها ايضا فى ثيابهم فسواد أهل البادية يلبسون ثوبا يشدون عليه نطاقا يسمونه حزاما ويرتدون عباءة على ثوبهم والاغنياء منهم يلبسون فوق ثوبهم قباء يسميه أعراب العراق زبونا وأعراب الشام قنبازا . ويزيدون على هذا القباء كساء مبطنا أو جلدا من جلود الغنم المدبوغة يسمونه فروة أو صديرية وذلك فى الشتاء وقد ترك البدو العمائم القديمة واتخذوا بدلها الكوفية ويسمونها الكفية ايضا وهى الصماد عند بعضهم من أهل الحجاز جريا على اسمها القديم وهى عبارة عن كسفة يثبتونها على رؤوسهم بشد عقال عليها وهو ضرب من الحبل محكم الفتل والسراويل غير معروفة عندهم وكثيرون منهم يستغنون عن اتخاذ الاحذية وكبارهم يلبسون فى أرجلهم الجزمة والحذاء او البابوج . ورأينا كثيرا من اعراب نجد يحتذون النعال وفى أهل البلاد منهم من يحتذى الأحذية العراقية والشامية ومنهم من يحتذى النعال وهم الأغلب .

(النظافة عندهم) وهم لا يغسلون ثيابهم لان الماء نادر الوجود عندهم فى أغلب الاحيان . ولذلك ايضا لا يغسلون الا قليلا . واذا ارادوا أن يغسلوا أطفالهم أو شعورهم اتخذوا أبوال الابل بقدر ما يتمكنون منها . واذا لاقى البدوى غديرا أو موهة اغتسل فيها لكن لما كان هذا الامر من النوادر أوجب عليهم الدين الاسلامى استعمال الرمل والتراب وليس هذا الحكم مخصوصا بالبدوى بل بكل مسلم لآية : «وان كنتم مرضى أو على سفر ولم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا» للقيام بامور الوضوء بدلا من الماء وهو المعروف بالتيمم .

الوسم عند القبيلة

ولكل قبيلة علامة خاصة بها تعرف بها ابلها من ابل غيرها وهى

الوسم) وقد تنقش هذه العلامة على الصخور ايضا اشارة الى نهاية حدود أرض القبيلة . وقد ترى بجانب هذا الوسم اسماء بعض الاعراب اذا كان ثم من يحسن الكتابة ويضيفون على اسمهم بعض أمور أو ذكر بعض وقائع وفى سابق العهد كانوا يصورون بعض تصاوير غاية السذاجة مما يدل على جهلهم لاصول الرسم . والاعراب لم يزيدوا شيئا على الريازة أو فن البناء ، غير انهم نجحوا أكثر فى امر الزخارف ولهم استعداد للموسيقى والغناء وعلم الايقاع لكن دين الاسلام لم يساعد على ترقية هذه الفنون الباعثة الى الملاهى فنجحوا كل النجاح فى علوم الآداب حتى برعوا فيها الى مالاغاية له بعد ما وصلوا اليه من الشأو البعيد .

مستقبل أعراب العراق

مضت عدة قرون وأعراب بوادى العراق على حالتهم الاولى التى كانوا عليها منذ وجودهم فى هذه الديار ولم تسع الحكومة السابقة الى اصلاح شؤونهم ولا الى ترقيهم ولا الى ردع غزواتهم . أما بعد هذا العهد فلا نظن انهم يبقون على تلك الحالة الفطرية ، بل اما أن يظعنوا عن هذه البلاد وأما أن يذعنوا الى مقتضيات الاحوال فيصلحوا شؤونهم ويقلعوا عن مفاسدهم الماضية ويبدأوا بأن يسيروا على نهج جديد قويم ينفعون به أنفسهم وينفعون غيرهم .

أما سبب هذا التغيير فلا بد منه . وهو أن الحكومة البريطانية تريد أن ترقى احوال هذه الاصقاع الاجتماعية بان تؤمن الطرق وتنشر الزراعة وتبعد عن أهاليها كل ما يعرض اتعابهم للتلف . وهذا لا يتحقق إن لم تسع فتقطع دابر أهل البادية الذين من دأبهم قطع الطرق ونهب حواصل الزراع وشن الغارات على أهل المدن والقرى القريبين منهم . فاذا أخلدوا الى الراحة

أوالاقامة فى المواطن التى كانوا فيها سابقا فلا بد من أن يتخذوالانفسهم وسيله للعيشة ، ولا وسيلة لهم سوى الزراعة و رعاية الاغنام ومعالجة المهن التى تمكنهم من التعيش وهم فى بواديهم والا فروا الى البوادى التى لا تنالهم فيها جند الأمن الذين تقيمهم الدولة المحتلة فى المواطن التى يخاف عليها من فسادهم . ولا جرم أن أرباب الحل والعقد يسهلون لهم وسائل الزراعة ، بل وسائل منافع الحضارة فيتمكن بعضهم من الاقامة فى القرى وتهذيب أولادهم لكى لا ينشأوا على حب النهب والسلب والغزو .

وهل يقبل العاقل أن يرى بضعة ملايين من الخلائق يعيشون هملا فى البوادى وهم على أحسن حالة من الصحة والعافية يتجولون فى الديار ولا يصدر من أيديهم الا العيث كالذئاب المفترسة ؟ هل يقبل العاقل أن يرى هذه الالوف المؤلفة وهى لا تأتى نفعا للمواطن التى يسكنونها بل يتقلبون على وجهها بدون أن يقلبوا تلك الاراضى جنانا خضرة نضرة ؟ ولعلك تقول : ان هؤلاء الاعراب لا يذعنون لحكم حاكم ولا يرضخون لاوامره ولا يودون ان يقيدوا أنفسهم بقيود أهل الحضر . نعم كل هذا صحيح اذا كان الحاكم جائرا والاوامر مرة والقيود قيود اسرى كما ظهر مثل ذلك فى عهد الحكومة السابقة . اما اذا كان الحاكم أبا شفيقا رحيما يظهر لهم ترفيهم وتسهيل أمور معيشتهم فانهم ينقادون انقياد الغنم لراعيهم . ولا شك أن الحكومة المحتلة اذا أرادت جذبهم الى الحضارة تبذل لهم عن يد سخية ما يسهل لها أمر الزراعة وتساعدهم على حصول البذار ولا تأخذ منهم الرسوم فى السنين الاولى الى أن ترسخ قدمهم فى الارض ويطيب لهم أمر العيش الجديد وحينئذ تنتقل الى درجة ثم الى درجة الى أن يروا أنفسهم من أهل القرى والمدن بدون أن يشعروا بهذا الانتقال .

(مستقبل ديار العراق — تأثير سلط. البحر — المواصلات وطرقها)
(البصرة باب واسع لتجارة الشرق — سكك الحديد)

(مستقبل ديار العراق)

رأينا فيما وقفنا عليه من تاريخ هذه البلاد أن العراق كان قلب الحضارة فى سابق العهد وكان أهله قد برزوا فى كل ميدان حتى بزوا سائر الأمم وكانوا مع المصريين كفرسى رهان . وعن سكان هاتين البلادين أخذ الناس التمدن وتعلموا الصنائع والفنون وأوغلوا فى العلوم والمعارف . ومن قابل حالته السابقة بحالته الحاضرة يعجب مما وقع فيه من الانحطاط والتقهقر ، بينما ان مناوئتها المصرية عادت فرفعت رأسها كأنها تحاول الرجوع الى مكانها الأسبق فى عالم العمران فلماذا عادت ديار أرض النيل الى البعث والنشور ، وديار العراق باقية فى أكفان الموت والدثور ؟ إن ذلك ناشئ من المربى ففى بلاد الفراعنة دخل الانكليز وأفرغوا كنانة وسعهم لاحياء تلك الاقطار ، وأما هذه الديار فانها غلقت فى يد جيل من الناس لم يعتبر فى نظر الامم الا مقودا لا قائدا ومسودا لا سائدا والا فان تولى الاعمى قيادة الاعمى وقع كلاهما فى الحفرة وهذا ما حل فى هذه العصرية اذ انه والحمد لله قد صارت اليوم الى تلك الأمة التى أنعشت الديار الربوع فهى الآن تأخذ باقالة عثرة أهل العراق المساكين المظلومين مدة قرون متطاولة .

مركز العراق مركز القلب من جسم الحضارة والعمران فهو فى موقع يضمن له الرقى والسمو فى قليل من الزمن لانه جامع بين أوروبة وآسية ، بين بلاد متوفرة فى صنائعها وبين بلاد متوفرة فى محاصيلها . هو جامع بين أوروبة وآسية لانه أصبح بعد مد سكة الحديد عليه جسرا يمر عليه من يذهب من ديار الشرق الأقصى الى ديار الغرب الأقصى ، أصبح جسرا تنقل عليه بضائع الشرق لتبدل ببضائع الغرب . وقد كان هذا الطريق منذ العهد الواغل فى القدم معروفا عند جميع أمم الأرض ولهذا طمحت اليه أبصارهم فتعاقبت عليه دول

مختلفة ، ولهذا السبب عينه أراد الاسكندر الكبير أن يجعل عرش مملكته الواسعة بابل فعاجله الموت فلم يخرج فكره من عالم الخيال الى عالم الوجود.

ان البحار كانت هى الفاصلة بين الشرق والغرب فلما اخترعت البواخر وشقت ترعة السويس اقتربت البلاد من البلاد ورغب فى ركوب متون البحار من لم يكن يحلم به قبل تقريب الشرق من الغرب .

على انه بقى هناك أناس كثيرون يودون السفر بدون أن يذوقوا أهوال البحار ولو كانت ديار العراق سهلة المنال بوجود سكك الحديد على ظهرها لرأيت الوفا من الخلائق بل ألوف الالوف تنتقل من بلاد الى بلاد فى السنة الواحدة

تأثير سلطة البحر

ترينا مرويات التواريخ ان الامة التى قبضت على أزمة البحار قبضت أيضا على أزمة حضارة راقية وقهرت أمما جمة. فاننا لا نذكر شيئا من الملاحة على عهد نوح فالظاهر أن بناء السفن كان فى طور النشوء بما أن نوحا أقام مائة سنة لبناء فلكه ولا نذكر شيئا عن أهل الصين فانهم لم يكادوا يعرفون من سواحل بلادهم العظيمة الا القدر النزر ومع قلة خبرتهم لركوب البحار كانوا قد بلغوا رقيا بعيدا ومدّوا أيديهم الى بلاد شاسعة لكونهم كانوا يعرفون الملاحة وأما بعثة الارغنوط فلا يجب ان تعد من قبيل حديث خرافة بل من قبيل الاغراق فى الوصف ولها سدى حقيقة لا تنكر وهذا السدى هو محاولة ركوب البحر على طريقة مبتكرة فى ذلك العهد وقد أحدثت جلبة يومئذ وليس من السهل الهين تقدير مساعى أولئك الصناديد اليونان. — فسفينتهم المعروفة باسم « أرغو » الشهيرة التى كان يحملها نوتيوها على ظهورهم فى المواضع الصعبة وكانوا يجرونها ليلا الى الارض خوفا من أن تصاب بضرر كل ذلك يدل على أن ركوب السفن على البحار كان فى طفولية : ولعل التقصير ناشئ من كتاب

اليونان فى ذلك العصر لجهلهم وصف البحار وركوبها لقلة وقوفهم على ذكر مثل تلك الامور فى زمنهم الواغل فى القدم والجهل. واذا أردنا أن نذكر تقدم هذا الفن صرحنا باسم الفنيقيين هؤلاء الأقوام الذين اشتهر ميناؤهم فى صيدون (صيدا) كل الشهرة وقد جاء ذكره فى سنة ١٨٣٧ ق . م . فقد كانت تجارتهم منتشرة فى البلاد مما يدل على امعانهم فى ركوب البحار وأول ما بدأوا به كان ترددهم الى السواحل حتى انهم طافوا شواطئ البحر المتوسط من طرفه الواحد الى طرفه الآخر. وكان سيسستريس أنشأ أساطيل وفيرة (سنة ١٤٠٧ ق . م.) وارتاد سواحل فنيقية وشواطئ البحر الاحمر كلها . وكان المصريون قد هجموا على ديار الفلاسجة (أو البيلاسجيين) بأساطيل حقيقية ومع ذلك فبعد هذه الامور جاءنا هوميرس ، وكان من جوّابات البحار بدون شك ، وذكر لنا أمورا تدل على أن ركوب البحار فى أوانه لم يكن الادون ما مثله لنا الفنيقيون والمصريون والارغنوط. فلقد تقاذفت الامواج عولس مدة عشر سنوات قبل أن يصل ايتاكة . وكان ذلك كان من الأمور المألوفة عند ذلك الشاعر . وفى سنة ١١٣٧ ق . م. أسس الفنيقيون قرطاجنة وبعد ذلك بقليل أنشأ القرطاجنيون مرسيلية وهذا مما يدل على أن الفنيقيين كانوا قد جابوا البحر المتوسط وأخذوا يتجولون فيه ليلا ونهارا مهتدين بنجم القطب فى ظلمات الليل وبالشمس فى سبحات النهار فدفعهم نجاحهم هذا وحبهم لمعرفة المجهولات الى التوغل فى قلوب البحار فقام فيهم هنون وجال فى البحر حتى وصل الرأس الأخضر وقد بلغتنا تفاصيل رحلته البحرية بحيث لاتوجد شبهة فى هذا الامر (سنة ٨٠٠ ق . م) وقد قطع البحر فى جهة معاكسة لجهة الأولى أودكس فانه جاز على مايظن رأس العواصف قبل «فاسكودى غاما» ولا جرم انه وجد المعبر من مصر الى ديار الهند بطريق البحر الأحمر واتخذ موسم مطر الحميم (المعروف اليوم بالبرصات عند العرب وبرشكال عندهم سابقا) ثم جاء بعد ذلك هملكون القرطاجنى

وتوغل فى الشمال حتى بلغ انكلترة . وفى سنة ٣٣٠ زار پثياس المرسيلى جزيرة اسلندة فلم يبق منذ ذاك الحين فى صدر المحيط الاتلنتيكى سر من الاسرار اذ وقف عليها كلها أولئك الرجال أصحاب العزم والحزم حتى يظن بعض المحققين أن أولئك الأقوام عرفوا أميركة وان لم يعثروا على أدلة مكتوبة تثبت زعمهم هذا . وفى عهد الاسكندر ذهب أسطوله الى سواحل آسية ونهر السند الى خليج فارس وكان يقوده نياركس الاشتيام الكبير الذى فاق جميع الاشتيامين الذين سبقوه

بلغ الاغريق مبلغا بعيدا فى قطع البحار ثم انتقلت سيادة العالم الى الرومان فانتقلت اليهم معها السيادة البحرية ، لكنهم لم يأتوا شيئا فريا فى علم البحارة ثم كانت نوبة السيادة التجارية للبنادقة والجنوية والبيزية ، لاسيما البنادقة فانهم كانوا الفينيقيين الحديثين وكانوا قد استأثروا بتجارة البحر المتوسط والشرق الادنى . ومازال أهل الفن يبحثون عن وسيلة تهديهم الى الوجهة التى يريدونها حتى عثروا على دليل من أحسن الادلة وأقومها وهو الحك أو ابرة الملاحين فانه أحدث انقلابا عجيبا فى الملاحة وحدا بكثيرين من الابطال الشجعان الى خوض غمرات البحار واقتحام هوالها وركوب متون أعظم لججها بدون خوف أو ضلال فى تلك المتاهات الجمة فاكتشفت الجزائر الخالدات (المعروفة عند الافرنج بجزائر كنارى) وجزائر مادرة وأصورة وجزائر الراس الاخضر ثم جاء كرستوف كولنب فاكتشف أميركة وجاز «ڤاسكودى غاما» رأس الرجاء الصالح فى أسفل افريقية ثم بعد ذلك بسنين اكتشف ماجلان قناة فى قصى أمركة الجنوبية جرت به الى المحيط الهادئ (الاوقيانس الباسفيكى) فقطع تلك الارجاء والمنفسحات المائية متجها الى ديار الهند فتجت غوامض البحار بما فيها بين سنة ١٤٩٢ و ١٥٢١ فانفتح للخلق بلاد جديدة وتولدت فى القلوب مطامع لم تكن فيها سابقا . وكان السبق فى ذلك للاسپان لأن أغلب مهرة البحريين كانوا منهم ومن البرتوغاليين وهكذا

تتداول الايدى بلاد الله فتنتقل من قوم الى قوم من الضعيف الى القوى واذا هرم القوى جاء من هو أغض اهابا منه فانتشل من يدى من وهن ماعنده الى ما شاء الله . ومما زاد الملاحة دقة فى تسيير السفن ما وضعه البلجكى مركاتور من الخرائط البحرية البديعة فصار شق البحار فى القرن السادس عشر على مثال قطع البلاد والديار وفى ذلك الاوان أيضا اهتدى البحريون الى استنباط المحق (١) فلم يعد يشق أحد عباب سفنهم لاسيما بعد ان القوا المجاذيف واتخذوا لها الاشرعة . ومازالت الملاحة تحسن باختراع الآلات الدقيقة كالربع والساعة البحرية والموقتة (أى القرونومتر) التى تعين للبحريين بدقة طول المحل الذى هم فيه كما أن الحك يعين لهم عرضه حتى لم يبق لهم الا طلب وسيلة واحدة وهى تسيير السفن بقوة تكون فى قلبها عند ماتقف الرياح فى مجراها فاخترعوا لهذه الغاية البخار فتم لهم بذلك ما كان يختلج فى صدورهم منذ أزمان متطاولة وهذا كان فى القرن التاسع عشر بعد أن مضت أربعة قرون وهم على الحالة المعروفة الأولى ثم انضافت الى هـذه القوة العظمى وسائل أخرى كاتخاذ المراجل أو القدور الانبوبية وجعل قشرة المركب وفلوسه من الحديد وابدال الفراقات (أى البروانات) بالرفاس والجمع بين الاشرعة والبخار لزيادة سرعة الحركة فأصبحت القوة البحرية من أعظم القوى والدول التى تتصرف فى مثلها غدت من أعظم الدول فكان السبق فيها للدولة البريطانية ونحن نسوق اليك خلاصة نشوء هذه القوة الهائلة بايراد تاريخ الشركة المعروفة عندهم بشركة «لويد البحرية»

فى بدء القرن الثامن عشر كان فى لندن فى الشارع المعروف باسم

---

(١) المحق آلة لقياس سير المراكب وقد سماها بعضهم بركتة من الايطالية وفى خليج فارس يسميها العرب «باطلى» والكلمة الانكليزية log والفرنسية loch من العربية لحق .

« لمبردستريت » بالقرب من البورصة نوع من القهوة صاحبها رجل سمه «لويد» وكانت هذه القهوة مجمع تجار المدينة (أى السِتى) من أصحاب المراكب ومستأجرى السفن والسماسرة وضامنى المراكب . وفى سنة ١٧٢٧ اجتمع هؤلاء الرجال رجال الاشغال بصورة شركة انتقل مقرها بعد ذلك بكثير الى بناية البورصة وهو هناك الى اليوم وسموا شركتهم «لويد» وهو الاسم الذى اتخذته سائر الشركات البحرية غير الانكليزية التى انشئت على طراز هذه الشركة فترى اليوم يجتمع هناك أصحاب السفن والضامنين وأهالى رؤوس الاموال حيث يجدون جميع الافادات اللازمة لسير الحركة التجارية والبحرية مع ذكر البلايا والنكبات التى تحل بركاب البحار . يجدون هناك قوائم واعلانات يذكر فيها يوم اقلاع السفن ويوم وصولها الى الموانىء من انكليزية وغيرها كما يصرح فيها أيضا غرقها واصطدامها وجنوحها وعطلها وضررها وانقاذ من غرق من ركابها وهلاك من لم ينقذ الى غيرها من الفوائد التى يجب أن يقف عليها كل من يعنيه البحر وما يقع فيه . وهناك كتاب يسمونه (الكتاب الاسود) أو « كتاب الخسائر » فيستشيره أو يتصفحه كل من يحب أن يقف على الحقائق . واخباره هى آخر الاخبار الواردة الى لندن لأنها تجىء ليلا على لسان البرق اللاسلكى (وسابقا على لسان البرق السلكى البحرى) فتلتقط وتدون حالا وما يكاد ينشق إهاب الفجر عن جبينه الا وقد طبعت تلك الانباء البرقية على صحيفة يومية يسمونها «قائمة لويد» (لويدس لست) وهى بمثابة جريدة بحرية من أقدم جرائد هذا النوع لأن عهدها يرتقى الى سنة ١٧٤٥ فى أقل ما يظن . وفى ذلك المحل الكبير تجد آلات تتحرك من نفسها كمقياس الجو ومقياس الارياح وغيرهما فترسم على الحيطان بقلم من رصاص تقلبات الجو وسير العواصف . فبهذه الافادات المختلفة التى تؤخذ يوميا وبالافادات التى تأتى من كل موقع وموضع من أنحاء العالم «تبعث وقائع البحر ظلها على تلك الحيطان فترتسم » بموجب تعبير الانكليز ، وحينئذ

وحينئذ لا يقف رجال الاشغال على المعاملات البحرية والتجارية فقط بل يقفون وهذا أهم من ذلك — على ما يحل فى تلك الغمرات من الويلات ليتخذوا وسائل يمنعون بها وقوعها ويدفعون عن ركاب البحر المصائب التى تتهددهم وتتهدد مراكبهم وبضائعهم وأموالهم .

ولهذه الشركة البسيطة فى أصل وضعها ونشوئها فروع وشعب فى جميع الديار التجارية وقد انضمت اليها شركات أخرى قوية . والخدم التى خدمت بها التجارة والمنافع البريطانية التى أدتها هى فوق كل تصوير . يكفيك أن تعلم انها تخسر اسبوعيا نحو ستين سفينة أى نحو ٣٠٠٠ سفينة فى السنة من باب الحساب المعدل .

رأيت قوة بريطانية العظمى التجارية أما قوتها البحرية فهى فوق هذه . وكيف لا تكون فوقها وحياتها متوقفة عليها . الا أن دولة المانية لما رأت أن لا مندوحة لها عن النجاح اذا لم ترق حالة أسطولها أخذت تفرغ وسعها لتجاريها أو لتغلبها حتى خيف على انكلترة من الوقوف فى تقدمها ولا سيما لأن رجالها البحريين دون رجال الالمان عددا ، غير أن شبوب الحرب بين القومين جاء فاصلا لهذا النزاع ولهذا ينتظر أن ترجع جرمانية القهقرى وتسير بريطانية فى وجهها بدون أن يثبط عزمها مثبط .

هذه هى نتيجة القوة البحرية انها ترفع الدولة الى حيث لا تنال وتحميها من هجوم الأعادى وتذلل أمامها العقبات وترفع مقامها بين الدول واذا ضعفت فيها هذه القوة سطا عليها كل قوى وعركها عرك الرحى بثفالها وربما لاشاها وأزالها من عالم الوجود وأصبحت أثرا بعد عين .

المواصلات وطرقها

على أن فوائد هذه المراكب لا ترى فيما تأتيه من الاعمال بعبر البحار ونقل

الركاب من بلد الى بلد ، بل ان فوائدها تتعدّى كل وصف وقول . فانها هى التى تجمع البلاد الى البلاد وتزيل هذه الحواجز الهائلة القائمة بينها وهى البحار الفسيحة الارجاء . لانك تعلم أن الامة التى تستقل بنفسها ولا تراجع غيرها من الامم المجاورة لها أو البعيدة عنها تشبه الاسد المحبوس فى قفص فهو وان كان قويا شديدا لا يصرعه مصارع الا ان حبسه فى دائرة محصورة تقيده وتلاشى قواه وتذله حتى تجعل أدنى حيوان أعظم فائدة منه لهذه الالفة البشرية .

ولهذا ذهب العلماء الى أن سطوة الأمة السياسية وعمرانها وعيشتها الهنيئة ودرجة حريتها المدنية والسياسية التى تتمكن منها معقودة العرى بحالة طرق مواصلاتها . وفى عهدنا هذا نرى الامم الواغلة فى الحضارة والتمدن هى الامم التى قد هيأت لنفسها أسهل الطرق وذللت جميع العقبات وأزالت كل ما يقف فى وجهها كما نرى ذلك فى فرنسة وانكلترة والبلاد المتحدة وبلجكة والمانية والنمسة وهولندة الى غيرها . واذا كان قد اخفق الاسبانيون فى مستعمراتهم فان اخفاقهم على ما يقوله بعض المحققين ناشئ من قلة وجود طرق المواصلات فيها وهذا الاخفاق يتضح كل الاتضاح فى الحروب فان الامة التى لا تسرع فى نقل محاربيها الى ميادين القتال تكون هى المغلوبة لان العدو يخف الى نجدة جنده واتباع الجيش بخلاف الدولة المتأخرة فى طرق مواصلاتها فان جندها يسحق وليس له من معين ومنجد قبل ان تجيئه النجدات من بلده البعيد وقد ظهر نفع هذه الطرق طرق المواصلات فى الازمان القديمة كما فى الازمان الحديثة ولقد كانت هذه الطرق أشغل شغل أصحاب أهل الحل والعقد فى الامة فهى أحسن الادوات للبلوغ الى السيادة العظمى فى البلاد ولقد فهمت هذه الحقيقة رومة فانشأت حيثما دخلت طرقا واسعة معبدة حتى أنك لا تقول طرقا رومانية الا ويتبادر الى الذهن انها الطرق الحسنة البناء وفى هذه الازمان اذا تجولت فى بلاد الغرب ترى من آثارها شيئا لا يحصى فى مواطن

عديدة وهى هذه الطرق التى ميزت الدولة الرومانية سيدة الدول من غيرها التى سبقتها أو من دول هذا العصر نفسه التى من بعد أن فتحت الفتوحات الكثيرة لم تتمكن من ابقائها فى أيديها لانها لم تنشئ فيها هذه الطرق اللاحبة المكينة . ومن احسن الشواهد العصرية الدولة البريطانية فانها لا تكاد تفتح بلادا أو تستعمر ديارا الا وتسرع الى اتخاذ هذه المسالك والسبل اذ هى أيضا من الوسائل الفعالة لايصال عوامل الادارة الى حيث تجب . وتمكن أولياء الامور من ابلاغ امارات أفعالهم وأقوالهم فى أقرب آن . وكذلك قل عن ابلاغ صواعق غضبهم وسخطهم . فكر فى اسكوسية من بلاد بريطانية فانها كانت فى نحو منتصف المائة الثامنة عشرة فى قيام وقعود من أمر الفوضوية والهمجية وما اتخذت فيها هذه المسالك الا وتبدل فيها الامر وانقلب ظهرا لبطن لان مجلس النواب أمر بخرق الجبال فخرقت فسهل بذلك ايصال الاوامر والزواجر بسرعة البرق فخمدت نار الثورة أو الفوضوية وأصبحت اسكوسية مثل سائر ديار بريطانية .

سكك الحديد

ان الامم المتمدنة فى يومنا هذا تستعمل ثلاث طرق للمواصلات بلوغا لرقيها وتسهيلا لاشغالها وترويجا لتجارتها وهى الطرق الواسعة ، ومجارى المياه ، وسكك الحديد فالوسيلة الاولى وان كانت ساذجة فى حد ذاتها الا ان ادخالها فى وسائل العمران كان من أجل الامور بل اكتشافا لا يقل شأنا وخطورة عن سائر الاكتشافات وذلك أن هذه المسالك عند اتساعها مكنت الناس من تسيير المركبات والعجلات عليها فقل بذلك تسخير الانسان لنقل الاثقال الباهظة واليوم تؤدى هذه السبل فى البلاد المتمدنة من الخدم مالا يعوّض عنها معوّض لو لم تكن أو لم تفتح ومع ذلك فقد توجد بلاد وهى محرومة من هذه النعمة العظمى

فى بلاد الصين مثلا لا يوجد طرق بالمعنى الذى نريده هنا ومع وجود الجداول والترع عندهم ترى أغلب تنقلاتهم تتم على ظهور الناس .

أما مجارى المياه فقد قال عنها بسكال انها طرق سيارة تحملك الى حيث تشاء لكن — ويا للاسف — لاتعود بنا الى حيث خرجنا . هذا فضلا عن أن فى ركوبها من المساوئ ما ينقص من محاسنها ويقلل اتخاذها فبعض الانهر تطغى فى بعض الايام وتطفح على ما جاورها من الارضين فهناك تكون البلايا والرزايا . وبعضها تنقص كل النقصان فى الوقت الذى يحتاج الانسان الى ركوبها لقضاء حاجات اسفاره فيؤدى نقصانها الى تعطيل المراكب وجنوحها أو نشوبها فى الرمل . ومن الانهر ما تجمد فى الشتاء ومنها مايكثر فيها الصخور أو تتكوم فيها الرمال ومنها ماتتسلط عليها الشلالات أو مساقط المياه فى مسيرها فتكون سببا لهلاك كثيرين ، ولو لم يخترع البخار لكان العود على متون تلك الانهار من أعظم المتاعب والمصاعب . ولهذا فان هذا الاكتشاف ضاعف منافعها عشرة أضعاف ونحن فى قولنا هذا لا نبالغ البتة ، على أن جميع الانهار لا تسير عليها البواخر ، فهناك بعض منها لا تصعد الا بجر سفنها و فى البلاد المتمدنة يتولى جرها حصن تسير على المسنيات المكينة البناء الموجودة على طول الشاطئ و فى البلاد المتأخرة يجرها الرجال وهم يسيرون على الجرف كما هو الامر فى العراق . ومع كل ذلك فان فى جرها هذا العنيف فوائد ما كنت تراها لولا اياها . أما الترع وهى الجداول أو الانهر التى شقتها أيدى الناس فانها تجارى بمنافعها منافع الانهر الطبيعية وربما فاقتها فى بعض الاحيان لانك لا ترى فيها ما يجعل السير فيها صعبا أو مهلكا ولا ينقص ماؤها اذا عرف المهندس خزن المياه الى وقت الحاجة اليها . ومن مميزاتها انك لا تجد فيها مجرى قويا فيمكن لراكبها صعودها ونزولها بدون كلفة عظيمة . على أن فيها محاذير من جملتها انه ان لم يحافظ على حالتها التى وضعت عليها قد تعاب فى داخلها عيوبا تحدث فيها

المياه فتنشف بغتة وتبقى المراكب على الرمل . وقد تجد هذه الترع أو قل قد يتأخر انحلال جمدها لعدم وجود مجرى قوى يدفع الماء فيحل جمدها ، لكن هذا لا يأتى الا فى البلاد الباردة واما فى البلاد المعتدلة الهواء فلا . ومن محاذيرها ان السير عليها يقف فى حين تطهيرها أو كريها وهذا لا يكون الا مرة فى ثلاث سنوات . فمنافعها اذا أعظم من مساوئها .

ومما يجدر ذكره هنا ما فازته البلاد المتحدة فى أمريكا من النجاح الباهر بعد اتخاذها الترع فى ديارها وقد بدأ الاميركيون فى بلاد نيويرك ليظهروا للاهالى بل للعالم كله منافع تلك القنوات فمساحة سطح تلك البلاد تساوى ربع مسافة فرنسة وكان فيها من السكان أقل من مليون ففكر بعض الرجال من ذوى العزائم والهمم العلية بان ينشئوا فى تلك الارجاء قنوات تخدد وجهها حتى تكون كالشباك فيها وكان فكرهم هذا فى سنة ١٨١٠ م فبدأوا أعمالهم هذه بشق قناة تصل بحيرة «أرية» بنهر «هدسن» فى البانى . وطول خطها ١٤٢ فرسخا أى انهم حفروا أعظم نهر وجد على سطح الارض مما حفره البشر وكان بدء هذه الاعمال فى ٤ تموز سنة ١٨١٧ يوم ذكرى تحرير أميركا وتمت فى تشرين الاول من سنة ١٨٢٦ أى بعد ثمانى سنوات ودونك الآن نتيجتها بعد ١٢ سنة وعاقبة تأثيرها على غلات البلاد . ففى سنة ١٨١٧ كانت تبلغ رؤوس أموال تلك الغلات ١٦ مليون فرنك فبلغت ١١٨ مليونا فى سنة ١٨٣٧ وفى هذه المدة نفسها قامت مدن جديدة جليلة الشأن على طول تلك القناة أو الترعة ، دع عنك القرى والدساكر التى انشئت ايضا فى الوقت المذكور وكلها تدل على أن سكانها يتمتعون بعيشة هنيئة رغيدة . وقد قامت جمعيات لانشاء ترع مهمة منها شركة الترع الاربع ، والترع الثلاث . ومن أشهر الترع واعظمها شانا وفائدة وخدمة للبشرية «ترعة أو قناة السويس» التى وصلت بحر الروم أو البحر المتوسط بالبحر الاحمر بسعى المهندس الفرنسوى الشهير

المسيو دى لسبس فكانت بابا واسعا لترويج التجارة ونشرها فى أقطار الارض وتأتى بعدها فى الشأن ترعة بنمة التى جمعت بين المحيطين الهادئ والاتلانتيكى وكان الناس يظنون أن اختراع سكك الحديد يضر بحفر الترع فجاء الامر بعكس ما كان يظن فان النقل على السكك خص بالبضائع وبالاثقال الخفيفة وأما الترع فاتخذت لنقل الاثقال الباهظة .

على أن جميع وسائل النقل تتضاءل قدرا وشأنا بجانب سكك الحديد فان لها المقام الاول بين أخواتها الاخر ولا سيما لانها لا تعرف تقلبات الجو ولا اختلاف الاهوية والفصول ولا يهمها سقوط الثلج أو هبوب العواصف أوتدفق الامطار فهى تجرى فى وجهها مهما كانت عوامل الطبيعة . فان قدد الحديد هذه ، الضيقة المصقولة التى تسير عليها عجلات القواطر يتيسر عليها النقل أكثر مما يتيسر على الطرق والمسالك المألوفة . فلقد أثبت المحققون ان مقاومة طريق حسن لقوة النقل هى بمثابة ثلاثة أو أربعة أجزاء من مائة جزء من الحمل بأجمعه من باب المعدّل واما على سكك الحديد فهى عشرة أضعاف أقل فتأمل . على ان السكك المذكورة لا تستطيع ان تنقل مواد ثقيلة بقيمة زهيدة كما تفعله الترع الا انها تفضلها من جهة الجر . فان البخار أهون مراسا من الدواب فى هذا الامر بل قد تتعب الحيوانات وتنهك وأما البخار فلا . وذكر محاسن هذه السكك مما يطيل الكلام على غير جدوى فى الوقت الذى قد عرف العام والخاص منافعها . فالاجدر بنا ان نتكلم عن هذه السكك فى العراق .

العراق هو من البلاد القديمة الحضارة على ما تقدمت الاشارة اليه . الا أن وقوعه فى أيدى أناس أصبحوا فى أخريات الامم المتحضرة أضرّ به أعظم الضرر حتى أن أمم افريقية المعروفة بالتوحش سارت فى العصر الماضى سيرا حثيثا فى العمران وتمتعت بمحاسن وفوائد الرقى لكون الذين قبضوا عليها كانوا من الامم المتقدمة فى العلوم والصنائع فأفادوا تلك الاقوام فوائد لا تحصى . ومن

الغريب ان أمم الأفرنج كانت ترى بعين الكآبة والأسف أهل هذه الديار يهوون الى هوة الجهل والانحطاط فكانوا يحاولون نشلهم منها ويطلبون الى الدولة التى ترعاهم أن تأذن لهم بادخال أسباب الرقى فى تلك الربوع القديمة الحضارة والتمدن فكان أصحاب الأمر يمنعون ادخالها خوفا من أن ترتقى أهاليها فتتخلص من ربقة الاذعان لسلاطين آل عثمان فبقيت تتسكع فى ظلمات الجهل والغباوة حتى دخل النور اليها من شق ضعيف رغما عن مقيديها بتلك السلاسل الثقيلة والقائها فى ذلك المطبق (السجن المظلم) الهائل . دخل اليها النور من انحاء الاستانة وأزمير وبيروت فلم يمكن لأولياء السجن أن يبقوا أولئك الأسرى فى تلك الغياهب المدلهمة . دخل اليها النور على يد الأجانب الذين كانوا يلحون على أرباب الحل والعقد أن يسرعوا الى نفع الأهالى بممتعات التمدن العصرى اذ أغلب أولئك الأهالى يهجرون البلاد الى غيرها من ديار الغربة فيطعنون بالحكومة التى قد قبضت عليهم بأيد من حديد بل هى أصلب وأقسى من الحديد وحينئذ ينشأ فى قلوب الرعية عداوة أو فكر انقلاب الحكومة وكان السلطان يعلل الناس بمنح ما يتوقون اليه حتى وقع ما وقع من خلع عبد الحميد وانتقال زمام الأمور الى جمعية الاتحاد والترقى التى أخذت على نفسها رفع الناس من حالتهم الى حالة أعلى ، لكن على نظرها الذى ظهر فساده لعينى كل بصير .

ولما تربع عبد الحميد على أريكة السلطنة كانت السكة الحديدية معروفة فى الروملى فقط وفى الطريق المؤدية من حيدر باشا الى أزميد وبضع مئات من الكيلومترات فى ولاية أزمير ولما اضطرته الأحوال الى تطويل تلك الخطوط مد خط أزمير الى الاناضول وعدة خطوط أخرى ذاهبة من سواحل بحر الروم الى داخله مثل خط مودانية الى برصة وخط بيروت الى الشام وخط يافا الى القدس ، ثم مد خط الحجاز فنشأ من هذه الخطوط كلها فى العهد الحميدى ما هذا جدوله :

٢٫٠٠٠ كيلو متر فى الحجاز

٢٫٥٠٠ « من خط بغداد

٣٫٠٠٠ « فى الروملى والاناضول وسورية

٧٫٥٠٠ « هو المجموع وهو شئ زهيد بالنظر الى تلك البلاد الواسعة الارجاء .

على أن الحكومة رأت فائدة تلك الخطوط فأسرعت الى تحويل امتيازات خط بغداد الى الشركة الالمانية التى كانت قد طلبتها مع الضمانة الكيلومترية فكانت من أضر الأضرار على البلاد . بينما ان شركات أخرى كانت قد طلبت تلك الامتيازات بدون الضمانة الكيلومترية . لكن ماالعمل وكانت الاقدار قد ساقت تركية الى البوار وقد سلمت نفسها الى الالمان ودفعت اليهم مقاليد أوامرها ونواهيها فأخذوا يتصرفون فى البلاد على مايهوون ويشاءون فكانت النتيجة ما رأيناه ونراه الى يومنا هذا .

وكأن الزمان قد آدخر تأخير مد سكك العراق الى دولة لها فيها أعظم المنافع ولسكان العراق بأجمعهم فوائد أعظم . فالهند من مستعمرات بريطانية العظمى وديار مصر لاحقة بتلك الدولة الكبرى وهى منفصلة عنهما بحار بعيدة الارجاء إلا أن مراكبها الضخمة تصلها بهما وصالا يكاد يكون شديدا لولا بين الهند ومصر حاجز هو من أمنع الموانع لربط مصر بالهند بل قل لربط آسية بأوربة فلقد اتصلت بلاد الدنيا كلها بعضها ببعض الا الشرق الاقصى فانه بقى منفصلا عن الشرق الادنى وعن أوربة . وما ذلك الا من مقاومة تركية لروح العصر ونوره . فساقت الأقدار خروج هذه الديار من أيديها لتكون فى أيدى دولة تخرجها من ظلمات الجهل الى أنوار العلم . وعلى ذلك سنرى عن قريب عصرا جديدا يدخل الخطة العراقية فى مصف البلاد الراقية وتكون عضوا

متصلا بسائر أعضاء جسم العالم الكبير فتحيا بحياته وتنمو بنمائه وتسير سيرا حثيثا فى الرقى والاعتلاء .

ان ديار العراق سترى من الفلاح والنجاح مالم تحلم به فى غابر الزمن . سترى جميع زوار العجم يذهبون للحج بعد أداء فرائضهم الدينية فى النجف وكربلاء . وبدلا من أن يذهبوا على البحر فيصرفوا المبالغ الطائلة سوف يركبون سكة الحديد من بغداد الى مكة . وكذا القول فى الهنود فان أغلبهم سيحجون عن طريق دار السلام اذا مارأوا سهولة السفر برا وتحققوا منافعه . لاسيما اذا كانت عيالهم معهم . وهناك مندوحة عن الانتقال من جدة الى مكة سيرا فى البر ووقوعهم فى أيدى أقوام البادية الذين كثيرا مايسلبون ماعليهم ويتركونهم عراة لا يملكون الا أنفسهم . وعلى كل حال ان الهنود الاغنياء الذين يذهبون للحج على طرق البحر يرجعون الى ديارهم على طريق البر لاسيما اذا كانوا من الشيعة ليتبركوا بالبلدين المقدسين عندهم ويزوروهما بعد الحج المفروض . وبعد أن يكونوا قد مروا ببلاد الشام اذ فيها مدافن كثير من الانبياء والأوليا . فما تقدم بسطه نرى أن العراق قد أخذ ينفض الغبار القديم عن ثيابه ذلك الغبار الذى قد علق بها منذ مئات من السنين وأملنا انه يسرع حثيثا فى طريق النجاح بفضل مساعى الدولة التى وعدت أهاليه بكل خير وبانهاضه من كبوته فى أقرب زمن .

البصـــــرة

باب واسع لتجارة الشرق

البصرة هى آخر مدينة كبيرة من العراق . والعراق كله كمخزن عظيم بابه البصرة والمخزن الذى لاباب له لافائدة فيه اذ يبقى مغلقا دون منفعة الناس

والظاهر من مسرى الحوادث والاشغال أن ثغر البصرة يفوق عن قريب مدينة بغداد وسيكون له من الشأن والخطر مايجعل دار السلام دونه منزلة ومقاما وسوف ترتبط به ارتباط التابع بالمتبوع ولا يبقى لها من الحياة الا مايجود به عليها ذاك الثغر الباسم . — بغداد وان كانت شهيرة بتاريخها القديم المجيد لانها كانت مقر خلافة بنى العباس وقبة الاسلام ومندفق أنوار الحضارة العربية الا ان البصرة لم تقل عنها شأنا بما أنجبت من العلماء الذين جروا فى ميدان الشعر واللغة ولا سيما النحو جريا ظهر فيه ان من كان فى عهدهم من الكوفيين ومن جاء بعدهم بقرون لم يشقوا غبارهم بل تخلفوا عنهم بمسافات عظيمة لاتقدر وقد أبقوا من الذكر مالو مرت عليه القرون الطوال فانها لا تزيده الا شهرة ورفعة ونباهة . — البصرة لم يكن لها فى التاريخ شهرة فى تجارتها لان الاموال فى سابق العهد كانت تأتيها من جميع الجهات على طريق البادية الا ما كان يأتيها من طريق الهند فانه كان يصلها عن طريق البصرة . أما اليوم فالبضائع والأموال وأنواع البياعات لا تأتيها الا على البواخر من ديار الغرب الى البصرة ومنها اليها بدون أن تلق على البر البتة ولا يأتيها بالقوافل الا ما يحمل من أنحاء الموصل وحلب و. ورية وديار الاناضول وهو شئ زهيد لايكاد يذكر بجانب مايأتى عن طريق البحر والنهر . — البصرة تكون عن قريب مدينة أكبر من بغداد وسوف يزيد سكانها على سكان دار السلام وسوف تكون تجارتها من أكبر مايمكن أن تكون لهذه البلاد وسوف يكثر فيها الغرباء والمحلات الاجنبية حتى تكون من المدن التى تضاهى الحواضر الكبرى فى ديار الافرنج . —

كانت البضائع تنقل اليها سابقا من ديار الغرب قبل أن تخرق ترعة السويس على سفن بحرية تعرف الواحدة منها باسم « البغلة » والجمع «بغال» وعلى سفن شراعية لا يتجاوز عددها فى السنة الثلاث والاربع فكانت تصلها من بعد أن تجول حول رأس أفريقية المعروف يومئذ برأس الزوابع أو العواصف وهو المسمى اليوم رأس الرجاء الصالح وكانت تجارتها شيئا زهيدا لايستحق الذكر

ولما خرقت الترعة وبدأ عبورها سنة ١٨٦٩ تغيرت الأحوال تغيرا عظيما وأخذت تجارتها ترتفع ارتفاعا عجيبا اذ ما كانت تمضى السنة الواحدة الا وقد تضاعفت المقادير عما كانت فى السنة المنصرمة . وكان الانكليز أسبق سائر الامم الى نقل البضائع منها واليها وهم الذين نشطوا البصريين لترويج التجارة ولغرس النخيل لاجتناء الـ‍ر . نعم أن النخل كان موجودا فى البصرة ونواحيها لكن لم يكن بالالوف المؤلفة على ما نشاهد عدده اليوم . فلقد أكد لى العارفون بأن النخل زاد مائة ضعف عددا من بعد عشر سنوات من فتح قناة السويس

وفى سنة ١٨٩٠ كان عدد السفن الشراعية والبواخر كما يأتى :

جنسية العلم	عدد سفن الاشرعة	محمولها بالطن	عدد البواخر	محمولها	مجموعها معا	محمولها معا
انكليزى ...	١١٤	١١,٤١٨	١٠١	١٠٣,٢٩٦	٢ ٥	١١٤,٧١٤
عثمانى ...	١٧٥	١٠,٦٤٤	—	—	١٧٥	١٠,٦٤٤
فارسى ...	٩٧	١١,٦٨٨	—	—	٩٧	١١,٦٨٨
فرنسوى ...	—	—	١	٩٥٠	١	٩٥٠
المجموع	٣٨٦	٣٣,٧٥٠	١٠٢	١٠٤,٢٤٦	٤٨٨	١٣٧,٩١٦

وكان عددها فى سنة ١٨٩١ :

انكليزى ...	١٢١	١١,٨٨٥	١٣٦	١٢٢,٥٤٠	٢٥٧	١٣٤,٤٢٥
عثمانى ...	٣٦٣	١٤,٥٤١	١	١,٣٢٦	٣٦٤	١٥,٨٦٧
فارسى ...	٣٨٥	١٩,٤٥٠	—	—	٣٨٥	١٩,٤٥٠
المجموع	٨٦٩	٤٥,٨٧٦	١٣٧	١٢٣,٨٦٦	١٠٠٦	١٦٩,٧٤٢

هذا من جهة حركة الميناء قبل نحو ٢٨ سنة . وأما حركته فى هذا العهد فلم نعثر عليه . وأما حركة البصرة التجارية فكانت السنوات الثلاث ١٨٨٨ و ١٨٨٩ و ١٨٩٠ قد بلغت نحو ٥,٤٢٥,٠٨٢ ايرة انكليزية مقسمة على الوجه لآتى :

سنة	اخراج	جلب	مجموع ايرات انكليزية
١٨٨٨	٩٧٣,٧٦١	٥١٠,٦٥٢	١,٤٨٥,:١٣
١٨٨٩	١,٠٠٩,٩٦٢	٨٤١,٩٤١	١,٨٥١,٩٠٣
١٨٩٠	١,١٢٧,٣١٩	٩٦٠,٤٤٧	٢,٠٨٧,٧٦٦
	٣,١١١,٠٤٢	٢,٣١٤,٠٤٠	٥,٤٢٥,٠٨٢

وقد بلغ الجلب والاخراج فى سنة ١٩١٠ (وهى آخر السنين التى وضع

الأتراك لها قائمة) نحو ٣,٢٥٨,٧٥٤ ليرة عثمانية وكان مبلغ الجلب وحده ٢,٢٠٦,٦٩٥ ومبلغ الاخراج ١,٠٥٢,٠٥٨ وهذه الاعداد تدلك على ترقى التجارة فى البلاد وسنة ١٩١٠ لم تعدّ بين السنوات الحسنة بل بين السنوات السيئة لانه فى السنوات السابقة لها كان الجلب والاخراج أعظم مماذكرناه بكثير. ولهذا النقص أسباب منها ان مايرد الى ثغر البصرة لايصرف كله فى العراق وحده بل فى ديار العجم وكردستان أيضا ومنذ اعلان الدستور فى ممالك الدولة العثمانية كانت تجرى أمور عظيمة وتغيرات مهمة فى داخل ايران فقل الأمن فى الطرق ولم تنفق البضائع كل النفاق فكسدت الأسواق رويدا رويدا وتضررت محلات كثيرة بسبب هذا التوقف . والسبب الثانى هو نقص فى زوار كربلاء والنجف فان السنين التى يكثر فيها زوار الشيعة يحدث فى العراق حركة عظيمة تمتد من خانقين الى البصرة فينتفع منها الناس كلهم أجمعون من الصغير الى الكبير . والحال أن الزوار فى سنة ١٩١٠ كانوا قليلين لما حدث فى ديار ايران من الاضطرابات والفتن الداخلية وقلة أمن الطرق. ومن الأسباب التى تنتج الكساد فى الأسواق الأمراض الوافدة ولا سيما اذا وقعت هذه الاوبئة فى النجف وكربلاء وهى لاتكاد تنقطع منهما لنقل الجثث اليهما من جميع البلاد الاسلامية فاذا وقعت تلك الامراض صعب السفر الى العراق لما يوضع من المحاجر الصحية وما يضرب من النطق الواقية من سريان الأمراض الى الديار غير الملوثة وهناك سبب رابع وهو أن تقييد مايجلب ويخرج من هذه البلاد يختلف فى بعض السنين لاختلاف العمال فيتفق أحيانا أن كبار العمال الذين يأتون جديدا لايرتشون أبدا أو يرتشون قليلا وحينئذ يقيد كل شئ فى السجلات أو يكاد . أما اذا كان العمال ولا سيما الكبار منهم يرتشون فانهم يسمحون للتجار بارسال الشئ الكثير من الأموال لقاء دريهمات وحينئذ جميع مايرسل به لايسجل . والذى أعلمه شخصيا أن بضائع كثيرة أرسلت فى السنة المذكورة بدون أن تدون فى الدفاتر . والذى ساق الناس الى

هذا العمل أنه شاع بين موظفى الحكومة أنهم من الآن وصاعدا لا يرتشون والذى شاع وذاع كان على خلاف الحقيقة فلقد اكتفى العمال بالسمعة الحسنة وأخذوا يرتشون أكثر من سابق . والذين كانوا فى ذلك العهد يعرفون هذا الامر ولا ينكرونه . وما سبب هذه الرشوة الا فساد أخلاق موظفى تلك الحكومة . وهى التى ساقتهم اليها بما كانت تأتيه من سوء التصرف فى الأمور وعدم الاهتمام بتحسين المدارس التى تؤهلهم لمثل تلك الوظائف التى تتطلب ذمة طاهرة وآدابا لاشائبة فيها . وهذا بعيد المنال فى حكومة كانت قد نخرت قناتها الى درجة لم يبق منها الا الظاهر .

وعلى كل حال نرى ان ازدياد التجارة فى ميناء البصرة هو أمر محسوس يكاد يدهش الأفكار . ومما يدل على تحسن أحواله أن سكانه كانوا قبل فتح قناة السويس نحو ثمانية آلاف نسمة لا غير وكانت البرداء (الحمى الملارية) تفتك بأهاليها بحيث كان أغلبهم قد هجروها إما الى بلاد ايران واما الى داخل البلاد العثمانية وزد على ذلك حدوث الاوبئة والطواعين بحيث انها أصبحت فى بعض السنين مفتوحة لعربان تلك الأرجاء فكانوا يأتون عصابات عصابات ويسلبون من بقى من أهلها ويسرقون كل ماشاؤوا ثم يوغلون فى بواديهم «وخراب البصرة» أمر مشهور فى أمثال العوام. أما اليوم فان الحكومة الانكليزية ماكادت تدخل البلاد الا ودفنت كثيرا من المستنقعات والغدران وجميع المياه المفتوحة . والمواطن التى لم تدفنها تلقى فيها بعض السوائل تمنع فيها تكون البق فيها والبق أو البعوض هو المسبب لتلك الحمى الناهكة للقوى (على ما أيده الأطباء وأثبته الاختبار المتكرر) وأمنت المدينة من عصابات اللصوص بالضرب على أيديهم وفى شهر آب سنة ١٩١٧ أحصت الحكومة البريطانية أهالى البصرة المقيمين فيها طول السنة فكانوا كما يأتى بيانه :

٢٠٫٤٩٨	من العرب المسلمين
٣٫٣٤٧	من اليهود
١٫٣٥٠	من المسيحيين على اختلاف طوائفهم
١١٦	من الاوروبيين الملكيين
٢٫٨١٢	من أقوام شتى
٢٨٫١٢٣	وهو مجموع السكان

وأما ان بعضهم كتب فى بعض الاحصاءات انهم يبلغون ستين ألفا فهو من قبيل الخرافات ولعلهم خدعوا بكثرة العملة الذين يكونون فى وقت «التمرة» وهو جمع التمر من النخيل ووضعه فى الصناديق والعلب فيجتمع وقتئذ خلق عظيم من أهل البادية ومع ذلك فلا يتجاوز عددهم فى السنين المقبلة الخمسة الآلاف من العملة . — هذه هى البصرة وسوف نرى ماتصير اليه فى ظل العلم البريطانى فيظهر الفرق بين عهد وعهد وهو الموفق لكل خير .

الخاتمة

خروج العراق من أيدى الترك ومصيره الى الدولة البريطانية الكبرى

تناوب على العراق أمم مختلفة وأقوام شتى فى عصور عديدة وليس بلادا مثل هذه الديار تتابعت عليها الأجيال واختلفت عليها الايدى الا ماقل وندر. وقد مر بنا ذكر أعظم هذه الشعوب وفى الآخر وقعت فى أيدى المغول على ما سبقت الاشارة اليه ومنهم انتقلت الى جماعة منهم يعرفون باسم «جلائر» وكان أحدهم وهو «حسن بزرك» قد أنشأ دولة فى بغداد فى سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) عند وفاة أبى سعيد. وهذه الدويلة لم تعمر فان آل «قره قويونلى» (أى الخروف الأسود) جاؤوا فى سنة ١٤١١ فأبادوها من بغداد .

ومن أخبار ذلك العهد ان الامير الشيخ حسن المذكور لما دالت عليه الدولة فغلبه حسن الجوبانى فى معركة وقعت له معه فى ديار ايران عاد أدراجه الى بغداد وكان فيها ابنه السلطان أويس بمنزلة حاكم فيها فاستقل بها مدة ١٧ سنة وشيد مبانى فخمة فى النجف وتوفى فى بغداد فى سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) ودفن فى النجف بجوار مدفن الأمير . وذهب بعض المؤرخين الى أن حسن الكبير أوحسن بزرك الايلخانى أو الجلائرى لمك عشرين سنة فلا شك أنهم حسبوا فى هذه المدة السنوات التى غاب فيها عن الزوراء قبل ان يجهر بالاستقلال .

وملك بغداد بعد حسن بزرك ابنه السلطان أويس المذكور وذلك فى شهر رجب سنة ٧٥٧ هـ (تموز سنة ١٣٥٦) وبعد سنتين اضطر الى أن يزحف على اخيجوق بجوار تبريز وكان هذا الأخير قد تملك على اذربيجان غير أن السلطان أويس لم يفلح فى زحفته اذ خانه أحد قواده فاضطر الى أن يعود الى بغداد لكن ماأعظم ما كان عجبه لما علم أن مملوكه مرجان الذى كان قد أبقاه فى المدينة وكيلا عنه قد تمرد عليه واستقل ولم يرد أن يذعن له لانه علم بخيبته فى ايران فأراد أن يخيبه فى دار السلام أيضا لكن السلطان أويس استشاط غضبا وأراد أن يمثل بهذا النصرانى الخائن الذى من بعد أن اشتراه ابوه وهو صغير وعلمه دين الاسلام فأسلم حاول أن يغدر هذا الغدر . ومما حمل الخواجا مرجان على هذا الغرور أن الفصل كان ربيعا وكان دجلة قد طغى طغيانا فاحشا فأحاط بالمدينة وجعلها كالجزيرة الحصينة التى لا ترام . بيد أن السلطان أويس بذل من الهمة والسعى مامكنه من دخول المدينة وكان معه أربعمائة سفينة مشحونة بالمقاتلة والذخائر ولما أراد قتله شفع فيه أهل المدينة فعفا عنه لكنه نزع من أيديه كل سطوة ولم تعد اليه الا عند وفاة سلطان شاه الخازن التى وقعت فى سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٨ م) ومذ ذلك الحين صمم الخواجا مرجان على أن يكفر عن خيانته فأنشأ مدرسة كبيرة وحبس عليها الأوقاف وبنى لها مسجدا وهو الذى نراه الى يومنا هذا وهو المعروف باسم «جامع

مرجان » وهو آية فى حسن البناء يزين مدخله عمودان ملتفان وحولهما زخارف عربية بديعة مما يدل على أنه كان فى بغداد فى ذلك العهد رزاة يشهد لهم بطول الباع وسعة المعرفة . على أن أغلب تلك الأوقاف قد تلفت لاسيما ماكان منها فى خارج المدينة لاهمال الدولة التركية شؤونها وادارتها .

وأول من ملك العراق فكانت حاضرته بغداد وهو من دولة «قره قويونلى» الشاه منصور بن محمد وذلك فى سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) ثم قام عليه السلطان أحمد من القبيلة المذكورة فطرده من بغداد سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) وبقى فيها الى ٨٠٢ هـ (١٣٩٩ م) لما استولى على بغداد تيمورلنك وملكها بالامان فهرب احمد الى بلاد الروم والتجأ بالسلطان بيازيدخان فأرسل تيمور يطلبه من السلطان فأبى هذا أن يخون دخيله فنشأت العداوة منذ ذلك الحين بين تيمور وبيازيد . ولما هلك تيمور عاد أحمد الى بغداد وقبض على ناصية العراق الى سنة ٨١٣ (١٤١٠) وفى تلك السنة تقوى قره يوسف التركمانى على السلطان أحمد وقتله وملك بغداد والعراق، وانقرضت بذلك الدولة الايلخانية من هذه الديار .

وفى سنة ٨٣٣ (١٤٣٠) مات قره يوسف فى اوجان من نواحى الموصل فقام بدله ابنه محمد وكان ذا فكر ثاقب ورأى صائب فأدار شؤون العراق ادارة حسنة وبعد موته انتقل الملك الى ابنه البكر اسكندر الذى اتفق مع أخيه الآخر جهانكيرشاه فجيشا الجيوش وزحفا على شاه رخ بن تيمور ولنك لكن السعد خدم ابن تيمور الذى هزم عدويه . ثم ان جهان شاه وأغلب امراء الترك ملوا معاملة اسكندر فتركوه ولجأوا الى معسكر شاه رخ فرحب بهم وقلد جهان شاه ولايتى ديار بكر وآذربيجان بشرط أن يفتحهما ويقبض على أخيه اسكندر . فلما درى بذلك هذا الاخير فر الى قلعة ألنجق ليقاوم أخاه العدو فلم يستطع جهان شاه أن يحقق منيته الا بعد أن غدر به وذلك انه كان يعلم ان قبادابن المحاصر قد عشق مملوكة أبيه فحمله

على قتل أبيه لينيله ما يطلب ففعل وكان ذلك فى سنة ٨٤١ (١٤٣٨) وكان قد ملك ١٦ سنة . وقد روى صاحب (نخبة التواريخ) ان جهان شاه قتل بعد ذلك بيده الولد العقوق الفاتك معاقبة له لاثمه الفظيع .

ولما تبوأ جهانكير شاه عرش المملكة قبض أيضا على أعنة بلاد ديار بكر وآذربيجان مدة ١٢ سنة بمقام نائب عن شاهرخ بن تيمور . ولما قضى شاهرخ نحبه سنة ٨٥٠ (١٤٤٦) استقل حينئذ جهانكير بالملك كل الاستقلال وبقى مدة ٣٢ سنة سيدا مستبدا مادا صولجان ملكه على بلاد ديار بكر وآذربيجان وبغداد والبصرة وفارس ، وكرمان وليس له مناوئ يعارضه ثم نهض بعد هذه المدة اوزون حسن (أو حسن الطويل) مؤسس دولة آق قويونلى التركمانية (او دولة الخروف الابيض) وقتل جهان شاه سنة ٨٧٢ (١٤٦٨) والمملكة التى كان قد أنشأها القتيل انتقلت بسعتها وعظمتها الى حسن الطويل . وبعد وفاته التى كانت فى سنة ٨٨٣ (١٤٧٨) انتقلت الامارة الى ابنه البكر خليل ميرزا وكان سيئ الخلق ظلوما غشوما فقتل والقتل نهاية كل ظالم وذلك فى سنة ٨٨٤ (١٤٨٠) فقام على العرش أخوه يعقوب ميرزا وبقى متسنما اياه ثلاث عشرة سنة حتى سقته امه سما وهى لا تدرى فمات وماتت هى ايضا لانها شربت من ذلك السم عينه بدون أن تعلم حقيقته .

فاجتمعت طائفة من خدمهما ونصبت باى سنقر ميرزا ملكا بينما كانت جماعة أخرى من خدمهما الآخرين انتخبوا لهم ملكا مسيح ميرزا فنشب القتال بين الاخوين فقتل مسيح فى المعركة وتمكن باى سنقر من رقى العرش الذى خلا له هنيهة لان محمود بك ابن اوغورلى محمد أى ابن عم باى سنقر انهزم الى بغداد وكان فيها يومئذ حاكما شاه على بيرناك وقبض على أعنة المدينة بسعى الحاكم المذكور ومساعدته . فلما سمع بذلك باى سنقر ومؤدبه صوفى خليل زحفا على المتحالفين فنشب بين الجمعين معركة شديدة انجلت عن قتل المتحالفين

المذكورين والاسلحة بأيديهما . على ان باى سنقر لم يتمتع بالملك مدة طويلة لان رستم ميرزا بن مقصود وهو من أولاد عمه نهض عليه وقاتله فقتل فى المعركة ونال رستم ما منى به نفسه وهو القبض على آذربيجان فملك عليها مدة خمس سنوات ونصف ثم قتل سنة ٩٠٤ (١٤٩٨) فملك بعده ابن عمه احمد خان ابن ارغون بن محمد بن اوزون حسن فكان آخر من ملك بغداد من دولة آق قويونلى لان الشاه اسمعيل بن حيدر بن جنيد قدم بغداد وحاصرها ولم يفتر عن التضييق عليها حتى افتتحها وأعمل فيها السيف مبتدئا بأحمد خان فذبحه . وذلك فى سنة ٩٠٥ (١٤٩٩) وأجبر كثيرين من السنة على التشيع بعد سنة من قدومه وعمل له بعض أدباء الجعفريين هذا التاريخ بقوله «مذهبنا حق» (وهو يساوى بحساب الجمل ٩٠٦) فردّه أحد أدباء السنة فقال : (مذهب نا حق) ومعناه مذهب غير حق بالفارسية ولم يحصر هذا الأديب أن يقول هذا القول فى عهد الشاه الصفوى بل بعده بكثير . وكان الشاه قد قتل كثيرين من مسلمى السنة وذبح جميع نصارى المدينة ولم يبق واحدا منهم اما اليهود فانه لم يتعرض بهم لأنهم كانوا أدلاءه على السنة والمسيحيين وكانوا يهدون اليه الهدايا الجليلة والاموال الطائلة لاحتياجه اليها يومئذ .

ومسئلة قتل الشاه للسنة أنشأ فى قلوب هؤلاء ولاسيما فى قلوب الاتراك ضغينة لا تطفأ نارها . ولما برح الشاه الصفوى مدينة بغداد ترك فيها واليا ابراهيم خان وكان بالنسبة الى غيره من الولاة الايرانيين ارفق بالناس لكن لما مات الشاه اسمعيل وملك بعده أخوه محمد خدابنده (وكان أعمى وقد سملت عيناه حين ظهورهم فى عالم السياسة) ارسل الى بغداد جيشا فقتلوا ابراهيم خان المذكور سنة ٩٣٤ (١٥٢٧) وعينوا بدله رجلا طاغية لا يعرف قلبه الرحمة ولا الشفقة

والاعجام لم يملكوا مدة طويلة فى العراق لأن قساوتهم الشديدة حملت الاهالى على الانتقام من أولئك الطغاة فى أول فرصة يتمكنون منها وكانت الرسل

تذهب تترى الى الاستانة لتوقف أولى الامر على حقائق الاحوال وتطلعهم على ما يفعل الايرانيون بالمتمسكين بالسنة النبوية فصمم حينئذ السلطان سليمان خان على انقاذ البلاد العراقية من أيدى الايرانيين فزحف عليها ومعه وزيره لطفى باشا فقدم على مدينة سلطانية (١) وحاصرها واحتلها ولما كان الشتاء سار السلطان الى بغداد وملكها وهرب حاكمها من قبل خدابنده فدخلها السلطان بالامان فأرخ أحد الادباء سنة دخوله فيها بقوله : (انفتح العراق) (٩٣٤ يساوى ١٥٢٧) ثم أمر بتحصين سور بغداد وجعلها من ملحقات المملكة العثمانية . وزار مشاهد كربلاء والكاظمين . ثم زار تربة أبى حنيفة والشيخ عبد القادر الجيلى (الكيلانى) وبنى لها قبابا وأوقف لها أوقافا . ولما ولى الشتاء زحف السلطان سليمان على تبريز فهرب الشاه خدابنده وأرسل اليه بالهدايا وطلب الصلح فصالحه السلطان على أن تكون بغداد للدولة العثمانية وعاد سليمان الى مقر سرير ملكه سنة ٩٦١ (١٥٥٤) وبقيت بغداد للدولة العثمانية يأتيها وزير كل سنة يكون حاكما عليها من قبل السلطان . وبقيت الأمور تجرى فى اعنتها والايرانيون يحرقون الأرم ويريدون استرجاع العراق وانتشاله من أيدى الاتراك لاسيما لانهم كانوا يتذكرون ان هذه الديار كانت لهم فى سابق الزمن وكانت طيسفون (اليوم سلمان پاك) مقر كبيرهم وملكهم فكانوا يتحينون الفرص بلوغا لامانيهم حتى سنحت لهم سانحة بالوجه الآتى :

---

(١) مدينة فى العراق العجمى أنشأها الملك الجايتو المغولى وهى على ١٠٥ كيلومترات الى شمال غربى قزوين وجعلها مصيفا له وهى على طريق قزوين وهمذان . ثم جاء بعده الشاه خدابنده من الصفوية فاتخذ فيها منزلا عجيبا بناه بلبن الذهب والفضة وبالغ فى تزيينها . وفى سنة ٧٣٦ (١٣٣٦) دفن فيها أبو سعيد وقد دمرها تيمورلنك ولم يبق منها سوى آثار تدل على ما كان لها من العظمة

كانت الحكومة العثمانية قد عينت واليا على بغداد الوزير يوسف باشا وكان فى المدينة رجل اسمه بكر كان فى بدء أمره واحدا من الانكشارية (الينيچرية) فى حامية بغداد ثم ساعده الحظ فصار (صوباشى) (١) ثم آغا الصوباشية . لكن اشتهر باللقب الاول وبقى معروفا ببكر الصوباشى ثم خدمه السعد حتى غدا صاحب الامر والنهى فى العراق كله وما كان يعين احد لوظيفة الاوكان له اطلاع على ذلك وبرضاه أو بفكره . فلما رأى ان يوسف باشا يزاحمه فى أمره احتال عليه حتى قتله وتخلص منه فخلا له الجو ثم أخبر السلطان عثمان بوفاة وزيره وطلب اليه أن يقلده الوزارة عن بعد فأبى السلطان أن يلبى طلبه لوقوفه على خفايا الأمور وأمر حافظ أحمد باشا أن يحاربه فتوجه اليه وحاصر المدينة محاصرة شديدة ليكره الصوباشى على التسليم . أما هذا فانه لما كان يعلم عداوة الشاه للسلطان وان الشاه يتحين الفرص لاسترجاع بغداد كتب الى الشاه عباس خفية يحثه على المجىء ليسلم اليه مقاليد البلاد وأمورها وتكون الخطبة والسكة له ويستأثر هو بالحكم فقط . فلبى الشاه طلبه وللحال غادر مقره تحقيقا لما دعى اليه . فلما علم بهذا الامر حافظ أحمد باشا وتحقق ان لا قبل له بمقاومة الشاه صالح بكرا الصوباشى وخلع عليه خلعة الوزارة وولاه بغداد ورحل منها الى ديار بكر خوفا على حياته من غدر الوزير الجديد أو من فتك الشاه عباس به . وفى تلك الاثناء قرب الشاه من دار السلام وكتب الى الصوباشى أن يسلمه اياها فأجابه بكر : انى تصالحت مع السلطان فولانى الزوراء ولهذا لا حاجة

---

(١) الصوباشى لقب كان يلقب به رئيس القضاء سابقا فى بلاد الترك وكان له تحت أمره عدد من الفرسان أصحاب تيمارات (اقطاعات) وكانت سلطته سلطة شيخ بلد فى ذلك القضاء وكان يعنى بشؤون الامن والنظام ومن جملة وظائفه انه يرأس توزيع الماء ثم أطلق هذا اللقب على المفتش أو التفتيشجى أى على رئيس البوليس ثم على كل فرد من أفراد البوليس .

للمدينة اليك . فلما سمع الشاه هذا الكلام اشتعل غضبا وضيق الحصار على الحاضرة حتى اضطر كثير من الفقراء الى اكل أولادهم . فلما رأى هذه الحالة محافظ القلعة محمد بن بكر الصوباشي وأن لا قبل لابيه أن يقاوم مدة طويلة هذا الحصار الشديد . تبع هواه فخان أباه وأرسل الى الشاه يطلب اليه الامان لحياته اذا فتح له باب القلعة فأمنه الشاه وفتح الابن الخائن باب القلعة ليلا وأدخل عسكر الشاه اثنين اثنين الى أن دخل جميعهم . وما لاح جبين الصبح الا ودقت طبول الشاه فى القلعة فدخل المدينة وأمر جنوده بوضع السيف فى أهاليها السنة فقتل منهم أكثر من أربعين الفا وجمع كتبهم المذهبية وألقاها فى دجلة فجدد عباس ما كان قد ارتكبه هولاكو وتيمورلنك . وبعد هذه الفظائع نادى بالامان وهدم مرقدى أبى حنيفة والشيخ عبد القادر الجيلى وأنفذ قاسم خان فملك كركوك فالموصل ومنها عاد الى بغداد بعد أن عين لها واليين من قبل الشاه وكان ذلك فى سنة ١٠٣٢ (١٦٢٣) أى فى السنة التى رقى فيها السلطان مراد الرابع عرش آبائه .

فهل يسكت السلطان الجديد عن هذه الامور وهل يمكنه أن يغفر لشاه الايرانيين تلك الفظائع بدون أن يقابلها بما يقاربها ؟ — فبعد أن فكر السلطان مليا بما يفعله أودع الولاية خسرو باشا وفوض الى وزيره حافظ أحمد باشا الذى كان قد استقر فى ديار بكر أن يستخلص بغداد من ايدى الأعداء بعد أن عينه رئيس عسكر (سر عسكر) فنزلا بجنودهما على بغداد وحاصراها أربعين يوما . الا أن الشاه صفى قدم فى تلك الاثناء فخافا منه وانهزما الى بلاد الروم وبينما كان خسرو فى تلك الارجاء اذ قتل غيلة . وممن كان مع خسرو المذكور فى أيام حصار المدينة رجل اسمه خليل باشا فهذا الرجل أبى أن يرجع خائبا فسار الى الحلة وملكها ولما قدم الشاه صفى ودخل بغداد أرسل عسكرا قبضوا عليه فسجنه فى بغداد ثم أطلق سراحه ومرض الشاه صفى ابن الشاه عباس فى بغداد ومات فيها فى سنة أخذه بغداد أى سنة ١٠٤٠ (١٦٣٠) .

وفى سنة ١٠٤٨ (١٦٣٨) قدم السلطان مراد الرابع ونزل فى جوار بغداد وحاصرها حتى فتحها (١) ووضع السيف فى الشيعة من أهاليها حتى قتل منهم أكثر من عشرين الف نفس وأسر جماعة من الملقبين بالخان مثل بكتاش خان وخليل خان ونقدى خان وعلى يار خان الى غيرهم وأمر بجمع كتب الشيعة فأحرقت مقابلة المثل بالمثل . ولما استتب الامن فى البلد عمر السلطان سور بغداد والقلعة ومرقد الامام أبى حنيفة وتربة الشيخ عبد القادر الجيلى وعين لمحافظة بغداد وزراء وعساكر وزمرا من الانكشارية (اليفيچرية) وحذرهم من غدر الشاه بكتاش بن الشاه عباس وعاد الى اصطنبول .

رحل السلطان وترك واليا عليها وزيره كوجك حسن باشا ثم توالى الولاة . على ان الزوراء وان كانت فى قبضة سلاطين آل عثمان الا ان العراق كله لم يكن فى أيديهم بخلاف ما يظن . بل كان قد تغلب على كل مدينة من مدنه الكبار شيوخ من الاعراب يحكمون فيها ويتحكمون ففى سنة ١٠٥٠ (١٦٤١) انتزعت هيت من أيدى اعراب الخزاعل وكذلك السماوة والعرجاء بعدها ومما

---

(١) كان دخول السلطان مراد من الباب المعروف بباب الطلسم وكان من أجمل أبواب المدينة ومن بناء الناصر لدين الله العباسى فى سنة ٦١٨ (١٢٢١) وواقعا فى جنوبى المدينة وكان يرى عليه رسم ثعبانين وأسدين من الجهة الخارجة والعوام تزعم ان هذا الرسم هو طلسم المدينة ومن ذلك تسميته بباب الطلسم . وكان الاتراك قد اتخذوه مخزنا للبارود . فلما كانت ليلة ١١ آذار سنة ١٩١٧ وكانوا قد تحققوا أن البريطانيين على قاب قوسين نسفوه نسفا فتطايرت آجره واهتزت لانفجاره المدينة كلها وتكسر كثير من زجاج النوافذ . واليوم لا يبقى له أثر البتة . حتى انه ليصعب على الباحث أن يجد موضعه المنسوف .

زاد الطين بلة ان الوزراء والولاة كثيرا ما كانوا يعصون ويتمردون على السلاطين محاولين استئثارهم بالعراق لبعد اصطنبول عن هذه الديار . وأول من أظهر العصيان والاستقلال ببغداد بعد ذهاب السلطان مراد الرابع كان الوزير ابراهيم باشا الذى كان قد عين لبغداد فى سنة ١٠٥٦ (١٦٤٨) فدس عليه السلطان ابراهيم بن أحمد خان من قتله وكذا فعل أيضا ولاة البصرة وأول من رفع منهم لواء العصيان كان حسين باشا فانه تقوى بأخويه محتميا بهم وهما أحمد بك وفتحى بك وذلك فى سنة ١٠٦٣ (١٦٥٣) فبعث اليه والى بغداد وكان يومئذ قره مصطفى باشا يقول له : أن احذر غضب السلطان فأبى الا الشقاق وفى سنة ١٠٦٤ (١٦٥٤) ولى بغداد الوزير مرتضى باشا وأمره السلطان بفتح البصرة فلما جاء بغداد جمع العساكر وسار الى البصرة فانضم اليه أخوا والى البصرة أحمد بك وفتحى بك وحاصروا البصرة فهرب حسين باشا الى ديار ايران وملك البصرة مرتضى باشا ثم غدر بأحمد بك وفتحى بك — كما هى عادة الاتراك اذا ما قضوا مآربهم — وقتلهما . وقتل جماعة من أمراء المدينة المذكورة فخافه العرب وقام عليه أهل الجزائر (١) وتبعهم أعراب قشعم والمنتفق وخزاعل وكعب وبنى لام وحاربوا التركى الخائن المكار حتى الجأوه الى الفرار فخرج من البصرة هو وعسكره لا يلوى على شئ متجها الى بغداد . فقدم اليها من ديار ايران واليها السابق حسين باشا ودخل البصرة بأبهة وإجلال ودان للسلطان فدانت له الاعراب جميعهم . ولما رأى مرتضى باشا ان السلطان

---

(١) المراد بالجزائر هنا الجزائر المتكونة من سواعد شط العرب بين الجوازر (المعروفة اليوم باسم القرنة) وبين عماسية فى جوار واسط المشهورة فى تاريخ عهد العباسيين (راجع ما قاله فى هذا الصدد الحاج خليفة المؤلف التركى المعروف وذلك فى كتابه جهانتما ص ٤٦٨)

لم يعاقب والى البصرة بل أيده فى ولايته ثار هو أيضا مجاراة لمن سبقه فهرب الى كردستان وأراد الاستئثار بها نعين السلطان لمحاربته والى ديار بكر محمد باشا ابن بكر باشا فأرسل جيشا مع الكتخداه (على كهية) وناجز مرتضى باشا فلما رأى ان القتال يطول وعد الأكراد هدايا اذا حملوه اليه فقبضوا عليه خيانة كما كان هو قد غدر بأحمد بك وفتحى بك ودفعوه الى الكهية فقتله فى الموصل وأرسل برأسه الى السلطان . وهكذا يكون عقاب كل غدار مكار . وممن جارى ولاة العراق فى انتزاع المدن من أيدى سلاطين آل عثمان أمراء الاعراب فقد وقع فى سنة ١٠٧٤ (١٦٦٣) ان حسين باشا والى البصرة أرسل عساكر مع أمير بنى خالد براق وطلب اليه أن يسير الى الاحساء لينتزعها من يد مختلسها محمد باشا فلما حقق الغاية استأثر بها هذه المرة براق نفسه فأرسل السلطان فى سنة ١٠٧٥ (١٦٦٤) يقول الى الامير يحيي آغا وكنعان أمير قشعم ان سيرا الى الاحساء وانتزعاها من يد الامير براق فذهبا ووقع بينهما وبين بنى خالد معركة شديدة انجلت عن انكسار الامير براق وانتصار الاميرين فعادت الاحساء من جديد الى المملكة العثمانية .

وكان يتفق أحيانا ان ولاة العراق اذا بقوا خاضعين للدولة العثمانية كان أعراب العراق يثورون على الولاة ويطردونهم من ديارهم . وأغلب ما كان يقع هذا الامر فى ولاية البصرة . لأن الاعراب هناك كثيرون يأتونها من جزيرة العرب ومن جنوب غربى ديار ايران وهم هناك أيضا كثيرون ففى سنة ١٠٧٥ (١٦٦٤) المذكورة ثار اعراب البصرة وطردوا واليها حسين باشا فولى بغداد الوزير ابراهيم باشا وعينه الخاقان لقمع اولئك الثائرين وعين معه والى ديار بكر وولاة حلب والرها والموصل وشهرزور فسار ابراهيم باشا من بغداد سنة ١٠٧٦ (١٦٦٥) ومعه الوزراء فنزل القرنة وحاصرها ثلاثة أشهر ثم ضاق الامر بأهلها فصالحوه على مال وسلموه البلدة ومن هناك نزل على البصرة فملكها ثم استدعى

واليها آلفار أى حسين باشا وأعاده الى مقامه السابق واليا على البصرة . أما هو فرجع الى بغداد فرحا مسرورا . ثم مضت ست وعشرون سنة والولاة يتوالون فى بغداد والبصرة بدون أن تحدث أدنى فتنة وهو أمر نادر .

وفى سنة ١١٠٢ (١٦٨٩) رفع مانع أمير اعراب البصرة لواء العصيان فحاربه والى البصرة دفتر دار حسين باشا مير ميران ولم ينجح فى محاربته لتقاعد والى بغداد عن نصرته فانكسر حسين باشا شر كسرة مما جرأ مانعا المذكور أمير قشعم على مد يده الى غير البصرة فاحتل فى سنة ١١٠٨ (١٦٩٦) جصان وبدرة الى مندلى (البندنيجين) وكان سبب تعاظم عصيانه ان والى البصرة لما حاربه استباح أمواله فأراد أن يثأر منه أو من دولته وفى سنة ١١١٠ (١٦٩٨) طرد أعراب قشعم والى البصرة حسين باشا ودفعوا مفاتيح المدينة الى شاه العجم أما هذا فلم يرد أن يثير عوامل غضب السلطان فاخذ المفاتيح وضمها الى هدية سنية وبعث بها الى السلطان . فأخذها شاكرا لكن لم يرد أن يسكت عن سوء أعمال آل قشعم فولى الخاقان وزيره على باشا ولاية بغداد وأمره أن يسير على قشعم ويؤدبهم أحسن تأديب فزحف عليهم وحاصرهم حتى أذلهم فصالحوه على مال وكان فى البصرة متسلما داود خان فخرج من البصرة وتسلم مفاتيح المدينة واليها السابق حسين باشا . وكان فى القرنة متسلما ميرزا خان وفى الحويزة فرج الله خان فلم يتعرضا بشئ وبقيت المدينتان فى ايدى العجم فلما كانت سنة ١١١٢ ولى بغداد الوزير اسماعيل باشا فلم يقدر على محاربة الاعجام فعزل وولى بدله الوزير « دالدبان مصطفى باشا » فدخلها وحارب آل قشعم والعجم وقدم لنصرته والى الموصل چلبى يوسف باشا الحلبى وحاكم العادية قباد باشا ، ووالى ديار بكر حاجى محمد باشا ، وحاكم حلب أحمد باشا ، وحاكم أرفا ابراهيم وحاكم البيرة (بيره جك) يوسف باشا فاجتمع كلهم فى بغداد فى شهر شعبان وكان عدد الجند مثتى الف فارس وراجل فسار بهم «دالدبان مصطفى باشا» حتى نزل على القرنة فاسترجعها وقتل من فيها من الايرانيين واعراب قشعم ثم سار منها الى البصرة

فلما سمع بقدومه صاحب الحويزة فرج الله خافه فبعث اليه يطلب الامان فأمنه وتسلم البلد منه . أما أمير قشعم مانع فانه هرب من وجه الباشا ثم بعث اليه يطلب الامان والمصالحة فصالحه على مال وعفا عنه ثم عاد دالدبان مصطفى باشا مع ١٠ كان معه من الحكام والولاة ثم قتل والى ديار بكر الحاج محمد باشا لانه وجد منه خيانة قبل مسيرهم حين تحركت الانكشارية وطلبوا علوفاتهم فأعطاهم وعاد الوزراء الى بلادهم .

على ان أهل العراق اذا أخلدوا الى الطاعة فى موطن رفعوا راية العصيان فى موطن آخر وذلك لسوء تدبير الاتراك لهذه الديار وكثرة تعدياتهم التى ما كانت تنقطع البتة ففى سنة ١١١٦ (١٧٠٤) ثار أهل الخانوقة (وهى قلعة خربة على جبل يطل على دجلة بين بغداد والموصل فحاصرهم ونهبهم وقتل معظم رجالهم حتى اضطروا الى طلب الأمان فأمنهم وعاد الى بغداد وفى سنة ١١١٨ (١٧٠٦) قام بنو لام على الحكومة العثمانية فسقاهم كاس الحمام وفرق جموعهم فتشتتوا أيدى سبا . وفى سنة ١١٢٧ (١٧١٥) قتل اليزيدية بعض المعتدين عليهم من المسلمين فاتخذ حسن باشا ذلك القتل حجة لينكل بأهل سنجار فسار اليهم وأذاقهم الامرين وقتل خلقا عديدا منهم ونهب أموالهم وسلب ماعندهم ودمر قراهم فلم يبق فيهم غنيا وتاريخ ذلك « غزاء (١) حسن »

وفى سنة ١١٣٤ (١٧٢١) عرض حسن باشا على السلطان أن يعين لولده أحمد باشا وظيفة حاكم لانه تراءى فيه كل خروع بذل النفس للدولة العثمانية فولاه السلطان مدينة أرفا فسار اليها وتولى أمرها وكان ذلك بدء انخراطه فى سلك الحكام وفى سنة ١١٣٥ (١٧٢٢) عزل أحمد باشا عن ارفا فذهب الى الموصل فتلقاه بالاكرام والى الموصل الوزير صارى مصطفى باشا وكان قد هرب من أحمد باشا مملوكان له والتجئا الى صارى مصطفى باشا فأرسل هذا الى

(١) فى هذا التاريخ عيب وهو ان الغزاء بالمد لا يعرف بمعنى الغزو

أحمد باشا يتشفع فيهما فأبى صاحبهما فطلبهما بالثمن فأبى . فعند ذلك أرسل يقول له : «اخرج من ولايتي ولا تعد تقف فيها» ثم عرض الأمر على والده حسن باشا فغضب هذا على ابنه وحلف له أن لا يدخله بغـداد الا بشفاعة صارى مصطفى باشا فخرج أحمد باشا من الموصل حتى جاء دجيل وأقام فيه خمسة عشر يوما فتشفع فيه صارى مصطفى باشا فأدخله بغداد . ثم أرسله الى البصرة واليا .

وفى سنة ١١٣٦ (١٧٢٣) خرج من بغداد بالعساكر الوزير حسن باشـا زاحفا على ديار ايران لان العجم كانوا يدسون الدسائس لالقاء بذور الفتنة فى العراق . فلما وصـل كرمانشاه حاصرها حتى فتحها وكان الوزير قد تعب من وعثاء السفر ومشاق المحاربات فمرض مرضه الاخير ومات فى السنة المذكورة فأخفى موته الكتخداه محمد كهية حتى قدم ابنه من البصرة أحمد باشا على خيل البريد وتولى قيادة الجيش ثم صرح بموت والده وأرسل جثته الى بغداد فدفن فى مرقده وكانت مدة ولايته فى بغداد احدى وعشرين سنة . وأرسل أحمـد باشـا الى السلطان ينعيه والده فأرسل اليه الخاقان بالمنشور وبخلعة السمور وولاه بغداد فدبت فى نفسه الحماسة والشجاعة وأظهر من حسن الامارة والقيادة ماأنسى ذكر والده. فانه سار من كرمانشاه ونزل على همذان وحاصرها الى أن فتحها يوم النحر وقتـل الكثير من أهلها فأرخ ذلك المـلا جرجس الموصلى بقوله من جملة أبيات :

تملكها قهـرا وأعجب ماجرى ... بان فتحت صبحا وأرخت الظهر

وفى سنة ١١٣٧ (١٧٢٤) نزل بعساكره على مدينة اريوان وفتحها وقتل غالب أهلها ثم كر راجعا الى البصرة وحارب بنى لام الذين كانوا قد عادوا الى الثورة وقتل منهم عددا جما وغنم الغنائم ثم عاد الى بغداد .

على ان شباب أحمد باشا ساقه الى غزو الاعراب والاعراب لم يغمضوا

له أعينهم . فاذا ذهب الى جهة قام اعراب الجهة الاخرى كأنهم يريدون أن يسخروا منه ومن قوته فبينما كان يحارب بنى لام ثار على الحكومة اعراب شمر فوجه عليهم الكتخداه سليمان باشا فحصرهم . ثم تسلق الجبل هو بنفسه وتبعته العساكر حتى بلغوا اعلاه فوضع السيف فى العصاة ولم يخلص من الموت الا القليل منهم فأسرهم ونهب أموالهم ثم عفا عنهم عند طاعتهم ومقدرته عليهم وعاد الى بغداد وقد قتل فى تلك الواقعة من عسكره نحو ستمائة .

وفى السنة المذكورة عصى أمير قشعم محمد بن مانع فحاربه والى البصرة عبد الرحمن باشا فقتل من اعرابه بعضا ونهب آخرين الى ان ذل الامير وخضع الكبير فطلبوا الامان فعفا عنهم بعد ان أخذ منهم أموالا طائلة .

وفى سنة ١١٣٩ (١٨٢٣) عزم أشرف خان شاه العجم على أخذ بغداد فتلقاه الوزير أحمد باشا بقلب قد من جلمود الا ان الشاه عدل عن فكره ورجع الى مقره .

والخلاصة كان العراق فى هـذه القرون الاخيرة فى حالة يرثى لهـا فانه ما كانت تمضى سنة الا ويسمع فيها ان الوزير الفلانى خرج على السلطان أو عصى عليه فاستأثر بالمدينة الفلانية . أو أقبل الشاه الفلانى لاسترجاع الاراضى المقدسة عندالشيعة أوثار الاعراب فى الناحية الفلانية لكثرة ماأنزل فيهم الباشوية من التعديات والجور والظلم . فأهل العراق لم يذوقوا طعم الراحة ولم تستطع الدولة العثمانية ان تخليهم اياها . لا سيما فى عهـد المماليك الذين قبضوا على أعنة العراق منذ عهد سليمان باشا (١) مؤسسهم فى بغـداد الى ان قتلوا على يد على رضى باشا فانهم ارتكبوا من الموبقات والفظائع ماتقشعر لها الاجسام . اللهم الا فى أيام داود باشا فانه وان كان قد خرج على السلطان

(١) توفى سليمان باشا فى سنة ١١٧٥ (١٧٦١) وعمره ٦٦ سنة وانقرض المماليك فى أوائل سنة ١٢٤٧ (١٨٣١)

واستقل بالملك فانه لم يأت الا الحسنات والمكرمات فلقد أبقى له من الذكر الطيب الى يومنا هذا ما يخلد اسمه بين الذين سعوا فى انهاض المدينة الى أوج الرقى والعمران .

فقد كان داود باشا كرجيا نصرانيا ولد فى تفليس فى نحو سنة ١١٩٠ (١٧٧٦) فأتى به الى بغداد أسيرا فاشتراه والى بغداد يومئذ سليمان باشا وكان الصبى مفرط الذكاء فأولع بالعلوم فقرأها على كبار علماء الزوراء فحصل منها العقلية والنقلية المنطوق والمفهوم . ثم تنقل فى المناصب حتى صار دفتر دار بغداد . ثم فر من الحاضرة فى عهد سعيد باشا بن سليمان باشا المذكور . ثم رجع الى بغداد ولما قتل سعيد باشا ولى داود العراق وكانت الولاة يومئذ مستبدين بحكمهم مستقلين بادارتهم لبعد الشقة بين الزوراء وفروق فلما قتل على رضا باشا المماليك أرسل داود باشا الى الاستانة فنفاه السلطان محمود الى بعض البلاد ثم عفا عنه وأرسله الى المدينة شيخا للحرمين حتى توفى فيها سنة ١٢٦٧ (١٨٥١) وعمر داود باشا فى بغداد عدة مساجد وجوامع وأسواق الا انه كان لا يحجم عن القتل سياسة ولا عن مصادرة بعض المثرين وبالجملة كان عالم الوزراء ووزير العلماء .

وبعد قتل المماليك ونفى داود باشا لم يحسر أحد من الولاة أن يعصى السلطان فتعاقب الولاة على بغداد ومدن العراق بدون أن يفيدوها فائدة تذكر بل كان أعظم همهم جمع الأموال ومصادرة الاغنياء وضرب الضرائب العظيمة مما أضعف سكان هذه الديار ضعفا شديدا وسبب جمع هذه الأموال أن الولاة كانوا يشترون وظيفتهم بالمال من السلاطين فكانوا يتعهدون بدفع المبلغ الفلانى قبل الذهاب الى أم العراق . ولهذا كان أول شئ يأتيه الوالى عند قدومه بغداد أن يجمع من المبالغ ما يتمكن منها فى أسرع وقت لأنه لا يعلم المدة التى يقيم فيها قبل أن يعزل فكان من أعظم همومه ان يستوفى أولا المبلغ الذى

سلمه الى الوزارة الداخلية ثم ادخار مبالغ طائلة ليشترى بها وظيفة أو لقبا أو رتبة مما يطمح اليه . فكانت الأموال تنقل من العراق الى الاستانة بدون أن تعمر بلادهم أو تصلح . ولهذا كانت البلاد فى تأخر دائم حتى جاءها مدحت باشا سنة ١٢٨٥ (١٨٦٨) وأقام فى بغداد ثلاث سنوات وثلاثة أسابيع فأدخل فى المدينة وفى ديار العراق من الاصلاحات شيئا وافرا فقد بنى الثكنة (القشلة) العسكرية ودار الشفاء للغرباء (وهى اليوم المستشفى الملكى الواقع فى الكرخ) ومدرستين رشديتين احداهما فى الرصافة والاخرى فى الكرخ وجلب منضحة عظيمة بخارية لتستق الماء من دجلة فتوزعه على المدينة بواسطة أنابيب من حديد لكنه لم يتمكن من اتمام شغله لعزله عن بغداد . وهو الذى جلب أيضا مطبعة كبيرة بخارية لطبع الكتب وأنشأ فيها جريدة رسمية سماها الزوراء بقيت تصدر الى أيام خروج الاتراك من هذه المدينة وكانت تصدر باللغتين التركية والعربية . فلما كان عهد جمعية الاتحاد والترقى أبرزوها تركية صرفة . وأسس مدرسة للصنائع وأوقف عليها الأوقاف الجزيلة وبقيت سائرة فى وجهها الى آخر يوم من أيام الاتراك وكان قد جعل فى جانب منها المنضحة البخارية التى كان يصنع فيها الثلج أيام الصيف . وهو الذى جلب الى العسكر طائفة تامة من الآلات الموسيقية العسكرية فكانت تعزف فى النهار ثلاث مرار وهو الذى أنشأ معملا لنسج الثياب الصوفية للجند وهو المعمل المشهور هنا باسم «العباخانة» والخلاصة أتى مدحت باشا من الأعمال مدة ولايته الوجيزة مالم يضارعه فيها جميع الولاة مما الذين جاؤوا من بعده فانهم أضروا أكثر مما نفعوا . لانه هو وحده لم يرتش ولم يقبل أن تعطى الرشوة لأحد لافسادها الموظف واكراهه على أن يسلك مسلكا منافيا للسنن المشروعة وللوجدان .

هذه كانت حال ديار العراق فى القرن التاسع عشر أى ان البلاد لم تر فى مدة مائة سنة سوى رجلين يصح أن يطلق عليهما هذا الاسم وكان الافرنج الذين قدموا هذه الديار للتجارة يرون هذه البلاد وما هى عليه من التأخر والانحطاط

ويأسفون على الحالة التى صارت اليها بعد أن بلغت ذلك المبلغ من الرقى والسمو وكانوا يطلعون سفراءهم على مايجرى فيها وعلى ما تصير اليه اذا ماعنى أرباب الحل والعقد بتربية لزراعة وفتح الطرق ومد السكك الحديدية وكانت الحكومة العثمانية تعد المواعيد الطيبة ولا تأتى أمرا مذكورا .

وكانت الدولة البريطانية تحب دائما اعمار العراق وترقيته وجمع كلمة أهاليه وضم شتاتهم لما بين العراق والدولة البريطانية من التآلف والتقارب والتضافر التى وجدت بين الانكليز وأبناء العرب منذ قرون متطاولة وأجيال متتالية تناقلت تلك الشواعر الطيبة . وهناك سبب آخر وهو مجاورة العراق للهند وارتباطهما بربط التجارة العريقة فى القدم . وهذه العرى زادت استحكاما عند ازدياد التجارة وتوسعها وتيسر شؤون نقلياتها وهذه الأمور لم تكن تتم لولم تتخذ الوسائل المروجة لأمور النقل بين بريطانية العظمى وبلاد الهند فسهلت بذلك النقليات من الهند الى العراق . والدولة العثمانية عرفت أيضا أن حياة هذه الديار متوقفة على اتصالها بالهند ولذا اذنت فى اقامة عامل انكليزى فى البصرة منذ سنة ١٧٦٤ ثم بعد ذلك بقليل نظمت الدولة البريطانية المذكورة بريدا بين البصرة وحلب فكان ذلك نعمة من أكبر النعم لاهالى البلاد فحينئذ أقامت الحكومة العثمانية بريدا يصل بغداد الزوراء بدمشق الفيحاء فلم تر الدولة الانكليزية بعد ذلك حاجة الى ابقاء بريدها البرى فاعتاضت عنه بالبريد البحرى وبقى جاريا الى سنة ١٩١٢ أما القنصل البريطانى فى بغداد فانه بدأ بالاقامة فى دار الامارة العباسية فى سنة ١٧٩٨ وخوله السلطان من الامتيازات مالم يخولها لغيره من القناصل الاجانب الذين كانوا قد أقيموا فى العهد الأخير .

أما المواصلة بين الهند والبصرة على طريق خليج فارس برعاية الدولة البريطانية فيرتقى الى العقد الأول من المائة الثامنة عشرة ميلادية فأخذت

الدولة المذكورة على عهدتها اثارة الخليج وتطهيره من لصوص البحر وغزاته وكانوا يعيثون فيه عيث الذئاب فى الغنم وكان من أعظم أعمالهم ابطال النخاسة (أى بيع الرقيق) فكان ابطالها من المجد الذى خلد فى الخليج حسن أعمال انكلترة . وفى سنة ١٨٣٥ زار البلاد ضابط انكليزى وفحص الفراتين وفى سنة ١٨٦١ وفقت شركة انكليزية تخولت حق تسيير باخرة على النهرين المذكورين . ومما يجب أن يلاحظ انه لم يرسم لجزء من هذه البلاد العراقية خريطة من الخرائط كالواجب ماعدا ماخط فى سنة ١٨٣٥ وبقى هذا الأمر الجليل مهملا الى مجىء الجيش البريطانى حينما احتل البصرة فى تشرين الأول سنة ١٩١٤ .

فلما راى العراقيون أن الانكليز وحدهم يعنون هذه العناية العظيمة ببلادهم ولم تجارهم فى ذلك دولة من الدول الافرنجية وهى لم تنقطع من أن تبذل المبالغ الطائلة فى سبيل نفعهم وتفرغ مافى وسعها لتحسين شؤونهم العمرانية والادبية والتجارية تحققوا أن بريطانية العظمى هى الدولة الوحيدة المستعدة لأن تعاونهم فى أمورهم . وكان قد عرض شيوخ البلاد وأكابرهم مرارا لاتحصى على القنصل البريطانى أن يحمل دولته على أن تأخذ هذه البلاد تحت أجنحة حمايتها لكن لما كانت سلطانة البحار فى صداقة موثقة العرى مع السلطنة العثمانية كان يضطر المقيم البريطانى الى أن يصرف أولئك الرجال بالتى هى أحسن .

ومما بغض الحكومة المحلية فى عيون الأهالى ان جمعية الاتحاد والترقى التى قلبت عبد الحميد عن عرشه أخذت تظهر مكنونات نياتها وعزائمها وهى : تتريك العناصر غير التركية واجبار الأهالى على اتخاذ اللغة التركية لغة رسمية فى المحاكم ولغة علمية وأدبية فى المدارس وإبعاد الوطنيين عن الوظائف الكبيرة وتقليدها للأتراك وحدهم أو لمحبيهم ممن يتظاهر بالتترك أكثر من

الاتراك أنفسهم . وكان فى عزمهم القبض على أموال جميع ولا سيما الأوقاف على أوقاف المسلمين ليخصصوها بمدارسهم التركية وكانوا قد بدأوا باخراج هذه العزائم من حيز الخيال الى عالم الوجود قبل الحرب بنحو ثلاث سنوات ومما كانوا قد صمموا عليه تصميما لا مرجع عنه هدم قواعد الدين الاسلامى بما نشروه وكانوا ينشرونه من الكتب والرسائل وبثها بين الطلبة وموظفى الحكومة وتكريه الناس للعرب وأنبيائهم وأوليائهم وكتبهم المقدسة وعلمائهم وأدبائهم ومما شرعوا به قبل الحرب العامة المذكور انهم اخذوا يهملون ترميم المساجد والجوامع وتعميرها وكانوا اذا رأوا أحد أتقياء المسلمين يحاول ترميم مسجد أو تعميره أقاموا فى وجهه الموانع او اضطهدوه ليعدل عن فكره فكان يعدل عنه اذا فهم السبب . وبالجملة كان العرب يتجرعون الغصص ولا يمكنهم أن ينطقوا بكلمة خوفا من أذية الاتحاديين الذين كان قد عظم أمرهم وتفاقم شرهم وكانوا فى كل ذلك يعملون بمشيئة الألمان الذين أصبح نفوذهم فى البلاد العثمانية مما لا ينكر ، لاسيما من بعد أن حصلوا على امتيازات مد السكك الحديدية فى ربوع الأناضول والعراق .

هذا كله يريك أن العرب كانوا نافرين من سوء معاملة الاتراك لهم . وكان التورانيون يرون أن أبناء اللغة الضادية لا يوافقونهم فى أفكارهم بل يعارضونهم فى كثير من خططهم وأفكارهم . ولهذا عزم الاتراك أن يبعدوهم من عضوية مجلس المبعوثين ومجلس الشيوخ أو الاعيان فشرعوا بأن يقربوا من المسلمين كل عربى نزع عنه أخلاقه التى ولد فيها ومال الى أخلاقهم فتخلق بها فنجحوا فى مسعاهم هذا بعض النجاح الا أن الحزب العربى أخذ يتقوى فى ديار الحجاز والشام وكان يتحين فرصة لينتهزها ويتملص من ربقة أولئك الاغرار المستبدين حتى سنحت له على وجه لم يكن فى الحسبان .

اذ فى تلك الاثناء (فى سنة ١٩١٤) نشبت الحرب بين سربية والنمسة ثم بين روسية فالمانية ففرنسة واندلع لسان اللهيب الى تركية فارادت هى أيضا

أن تشترك فى هذه الحرب لتوسع أملاكها وتستعيد مجدها السابق وتبسط جناحى سطوتها على بلادها القديمة أى ديار مصر وطرابلس وجميع أقطار أفريقية الشمالية ثم تسترجع بلاد كوه قاف (قفقاسية) وفارس والهند الى غيرها. وبكل ذلك وأكثر منت ألمانية الكاذبة تركية الجاهلة فاندفعت هذه الاخيرة الى تحقيق هذه الاحلام واتخذت جميع الوسائل التى كانت تمليها عليها جرمانية فركبت تركية كل مركوب حرون حتى خيف عليها الجنون فجنت فى زعمائها الذين كانوا يديرون شؤونها على أسوأ حال وأقبح صورة فأتت من الأعمال أنكرها ومن المساوئ أفظعها .

واول مافعلته انكلترة انها استولت فى مبادئ اعلان حرب تركية على باب العراق أو مفتاحه أى على البصرة وذلك فى غرة المحرم من سنة ١٣٣٣ (١٩ ت ٢ سنة ١٩١٤) وبذلك أمنت لنفسها فتح العراق كله ثم احتلت القرنة فتقهقر جاويد باشا بفلول جيشه الى العزيز وعقب جاويد باشا قواد أتراك كل واحد منهم أقسى قلبا ممن سبقه وعاملوا أبناء العرب معاملة أفسدت عليهم قلوب محبيهم أنفسهم . وما زالت الحرب بين الترك والبريطانيين سجالا حتى انجلت عن جلاء الاتراك عن بغداد فى ليلة ١١ أذار سنة ١٩١٧ فكان فى المدينة من الفرح بمنقذيهم الانكليز مالا يصفه واصف مما ذكرته الجرائد المحلية وغير المحلية وشاد به الشعراء فى قصائدهم ومنظوماتهم . وهكذا صار معظم العراق ومن بعد ذلك بنحو سنة العراق كله الى يد دولة تعرف قدره وقدر سكانه فبدأت حالا بتحسين شؤونه من مد سكك الحديد وتنشيط الزراعة وفتح الطرق التجارية وتكثير عدد البواخر وفتح المدارس الرشدية والعالية وتنوير البلدة بالكهربائية الى غيرها من الامور التى نراها كل يوم . والآمال معقودة أن هذه البلاد تخرج من ظلمات الجهل والغباوة الى أنوار المدنية والحضارة بسعى الدولة البريطانية العظمى وما ذلك ببعيد بمنه تعالى وكرمه

(تم الكتاب)

[illegible]

[illegible]

[illegible]

